البلاغة الاصطلاحية

دكتور

عبده عبد العزيز قلقيلة

دار الفكر العربي

البلاغة الاصطلاحية

دكتور

عبده عبد العزيز قلقيلة

أستاذ النقد الأدبي والبلاغة

جامعة طنطا

الطبعة الثالثة

١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

شارع جواد حسني / القاهرة

ص ب : ١٣٠ ـ ت ٣٩٢٥٥٢٣

الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

الطبعة الثانية ١٤١١هـ / ١٩٩١م

الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م



وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

سورة الحج



إهداء

إلى بيت الملائكة مبنى ومعنى





مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد

فهذه هى الطبعة الثالثة لكتاب «البلاغة الاصطلاحية» تصدر بعد عام من صدور الطبعة الثانية.

ولقد صححت فى هذه الطبعة ما ندَّ فى الطبعة الثانية من أخطاء مطبعية قليلة، فمهما أجهد الإنسان نفسه فى المتابعة والمراجعة يفاجأ بعد صدور الكتاب بوجود أخطاء تسخر من حرصنا وتؤكد بشريتنا.

* * *

وبحول الله وطوله تأتى هذه الطبعة وهى أقرب إلى الكمال من سابقتيها بفضل مؤازرة أخى وصديقى حضرة العالم النابه الأستاذ رزق هيبه وهو من تدين له مجلة روز اليوسف ومطبوعات دار الفكر العربى بالكمال النسبى ، أما الكمال المطلق فوق طاقة البشر .

* * *

شكراً للسيد المهندس عاطف محمد الخضرى مدير دار الفكر العربى على إخراجه الممتاز لما يصدره من كتب.

والحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين،

عبده عبدالعزيز قلقيله

القاهرة ٢٦/٢/١٤١٢هـ

٥ / ٩ / ١٩٩١م

قال الجاحظ :

« وكلام كثير جرى على ألسنة الناس وله مضرة شديدة وثمرة مرة ، فمن أضر ذلك « لم يدع الأول للآخر شيئاً » .

فلو أن علماء كل عصر مذ جرتْ هذه الكلمة في أسماعهم تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلاً » (١) .

أو قال :

(ليس مما يستعمل الناس كلمة أضر للعلم والعلماء ولا أضر للخاصة والعامة من قولهم « ما ترك الأول للآخر شيئاً ») (٢) .

---

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة تأليف عبد المتعال الصعيدي جـ ١ ص ٣٤ ط (٢) ١٣٦٢هـ / ١٩٤٢م القاهرة .

(٢) رسالة الوكلاء ضمن « رسائل الجاحظ » ٤ / ١٠٢ ط (١) مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩ تحقيق عبد السلام هارون .

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد : فقد صدرت الطبعة الأولى لكتاب « البلاغة الاصطلاحية » عن دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

والحمد لله على حسن استقبال الناس له :

لقد رأيت بعينى حفاوتهم به ، وسمعت بأذنى ثناءهم عليه ، ولمست عن قرب حماسهم له ، وشرفتنى لجنة النقد والبلاغة فى جامعة الملك سعود بجعله مرجعاً للمقرر ٣٢١ عرب [بلاغة] البيان والبديع ، والمقرر ٣٢٢ عرب [بلاغة] علم المعانى .

وكنت قد علمت أنه موجود بكثرة فى أيدى طلاب جامعة الكويت حتى قيل : إنه مقرر عليهم ، ولم أستبعد ذلك ؛ فقد كان الكتاب على بعد خطوات منهم فى مؤسسة دار الكتاب الحديث شارع فهد السالم ، وكانت المسئولة عن توزيعه خارج مصر. وكم أسفت لأن طبعته الأولى حفلت بكثير من الأخطاء المطبعية وتعرضت أكثر من مرة لفوت كلمة أو جملة ، ثم إن بنطها صغير وورقها خفيف وحبرها باهت فى بعض الكلمات والأسطر ، ولم تأخذ العناوين فيها أماكنها اللائقة بها مما حرمها الوضوح والتألق .

* * *

أرجو ـ وقد أشرفت على هذه الطبعة ولم أشرف على سابقتها ـ أن تبرأ من عيوبها ، منوهاً بأنى قد صححت الأخطاء المطبعية وتداركت الفوت ، ونقحت بعض العبارات ، وأضفت بعض الآراء كجعل الجملة الاسمية مؤكَّدة ولو لم يكن معها مؤكد آخر ، وكجعل القصر من أنواع التوكيد .

ومن الإضافات كذلك بيان أسوار كل من السجع ، والتزام مالا يلزم ، والمشاكلة ، ورد الصدر على العجز. أجل « رد الصدر على العجز » كما ينبغى أن يُسمى ، وليس [رد العجز على الصدر] كما سماه البلاغيون القدماء والمحدثون فى محاضراتهم وكتبهم .

إلى اللقاء ـ إن شاء الله تعالى ـ فى مقدمة الطبعة الثالثة . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبده عبد العزيز قلقيله

القاهرة { ١٤١١/٢/١٥هـ
٥ /٩/ ١٩٩٠م

تقديم

البلاغة علم وفن . نظرية وتطبيق . تقنية بلاغية وكلام بليغ . ومن هنا تجب التفرقة بين المعرفة البلاغية من جهة : وتوظيف هذه المعرفة فى إبداع الأدب ونقده من جهة .

لما كانت المعرفة تأتى أولاً دائماً ، فإننى أرى أن نبدأ بالبلاغة علماً ونظرية وتقنية ، وليكن ذلك غاية فى ذاته مؤقتاً ، أجل مؤقتاً ؛ فبعد البلاغة غايةً تأتى البلاغة وسيلة ، وسيتم ذلك فورياً وتلقائياً هكذا : علم فعمل ، والأمل أن يكون عملاً جيداً ؛ لصدوره حينئذ عن بينة، هى الإحاطة الشاملة الكاملة بالقواعد البلاغية ، وهى قواعد فنية غير ملزمة ، أقصى مدها هو (ينبغى) و (يحسن) ونحوهما .

يقول حازم القرطاجنى : « وكلامنا ليس واجباً على الشاعر لزومه ، بل مؤثر حيث يمكن ذلك » [1] .

وفى باب الفصل والوصل من كتاب عروس الأفراح يقول السبكى : « حيث قلنا فى هذا الباب : يجب الوصل ، أو قلنا : يجب الفصل ، نريد به الوجوب بحسب البلاغة ، وتطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ولا نعنى الوجوب بحسب اللغة » [2] .

فليطمئن السادة محترفو الخوف من دراسة البلاغة دراسة أكاديمية مجردة ـ فى أول الأمر ، ولفترة محددة ـ عن أية غاية خارجية ، لأن ما نقوله هنا لقرائنا ، وهناك لطلابنا ، لا يعدو أن يكون بذوراً نبذرها لتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى متى توافرت الموهبة ، نعم الموهبة.

فلا ننتظر من كل من تعلم البلاغة أن ينشئ كلاماً بليغاً ، إذ تعلُّم البلاغة وحده لا يكفى فى تأليف كلام بليغ ، ولكنه بكل تأكيد يكفى فى فهم الكلام البليغ ، وفى تفسيره وتذوقه .

وفى المعنى نفسه يقول هوراس : « لست أدرى ما يستطيع التحصيل أن يثمر من غير نفحة وافرة من الموهبة الفطرية ، أو الموهبة الفطرية من غير التحصيل ، إن أحدهما ليلح فى طلب الآخر ، ويعاهده على صداقة دائمة » [3] .

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٨٣ .

(٢) جـ ٣ ص ١٥ .

(٣) فن الشعر ص ٩٢ ترجمة لويس عوض .

ولنأخذ التكنولوجيا الحديثة مثالاً موضحاً ، إذ يلزم لمن يريد الانتفاع بها أن يكون قادراً على تشغيلها ، وهو لن يكون قادراً على تشغيلها مالم يفهمها فهماً جيداً ، وبحسبه ذلك أولاً، وفى مرحلة أخرى ، أو فى مراحل تالية ، وبالجهد المريش بالعلم والموهبة يقدر على صنعها ، أما قبل ذلك أو بدون ذلك فلا .

* * *

بقى أن أوضح ما قصدت إليه من تسمية هذا الكتاب بالبلاغة الاصطلاحية . وباختصار شديد أقول : إننى قصدت بهذه التسمية ، البلاغة الخالصة من شوائب العلوم الأخرى كالأصول والفقه والمنطق والفلسفة والنحو والصرف والعروض والقافية وعلم الكلام وعلم اللغة؛ فلكل واحد من هذه العلوم مسائله ومشاكله ومجاله .

ولقد كان هذا هو السبب فى أننى لم أقف فيه عند مبحث الحقيقة ؛ لأن الحقيقة مهما كان نوعها لا تخرج عن كونها نقطة انطلاق إلى البلاغة ، وأدق من ذلك أن نقول : إن الخروج عليها هو البلاغة .

ولو أننى وقفت فى البلاغة الاصطلاحية عند حقائق العلوم الأخرى لكررت ما فعله السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ فى كتاب يصدر سنة ١٤٠٧هـ . وأبادر فأقرر أن عمل السكاكى فى مفتاح العلوم ليس عيباً أبداً ، بل إنه مزية أية مزية ، لكن الدراسة الحديثة للمقررات المختلفة والمتخصصة ـ وهى حولية أو فصلية ـ لا تساعد عليه ، بل لا تسمح به .

وتفريعاً على التأصيل السابق أقول :

إننى لم أهتم فى هذا الكتاب إلا بالمعنى الاصطلاحى للموضوع الذى أدرسه ، أما معناه اللغوى ، فلم أكن ألم به إلا إذا كان المعنى الاصطلاحى يساويه أو يسامته .

وحتى فى هاتين الحالتين لم أكن أطيل الوقوف عند الدلالة اللغوية للمصطلح البلاغى ، توفيراً لوقت أمضى فيه معه على طريق البلاغة لأشرحه وأوضحه ، ولأنظر : هل هو مُسلَّم به أو مختلف عليه ، ثابت أو متطور ، واحد أو متعدد ، فهذا ـ من وجهة نظرى ـ أجدى على عملى من أن أزحمه بالمعنى المعجمى لكل مصطلح .

* * *

ومنهجى فى هذه الدراسة منهج تقليدى مزدوج :

أما أنه تقليدى ، فلأنى سرت فيه على منهج القدماء :

نبذة مختصرة عن البلاغة : علومها وبعض أعلامها .

الفصاحة والبلاغة .

البيان ـ المعانى ـ البديع .

وأما أنه مزدوج ، فلأنه كلى وجزئى معاً .

كلى ، لجعل العلوم أساس التقسيم .

وجزئى ، لأن موضوعات كل علم ـ وهى أجزاؤه المكونة له ـ قد عولج كل جزء منها معالجة خاصة به داخل علمه .

أما بعد :

فقد نقل الشيخ بدر الدين الزركشى عن بعض المشايخ أنه كان يقول : « العلوم ثلاثة : علم نضج وما احترق وهو علم الأصول والنحو ، وعلم لا نضج ولا احترق ، وهو علم البيان والتفسير ، وعلم نضج واحترق وهو الفقه والحديث » (١) .

ولما كان البيان فيما نقله الزركشى مقصوداً به علوم البلاغة الثلاثة ، فإنى أقرر أن كلام الشيخ عن هذه العلوم ما زال قائماً ، وأن ما قلته فى هذا الكتاب ليس أكثر من عشبة صغيرة وضعتها فى نارها ، إسهاماً متواضعاً منِّى فى إنضاجها .

والحمد لله أولاً وآخراً . .

عبده عبد العزيز قلقيله

الرياض ١٨/٢/١٤٠٤هـ ـ ٢٢/١١/١٩٨٣م

---

(١) شرح عقود الجمان فى علمىْ المعانى والبيان للسيوطى ص ٣ .

البلاغة
علومها وبعض أعلامها

مما ينسب إلى رسول الله ﷺ قوله : « المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه » ، وقد نظم الشاعر الحكيم هذا المعنى فى نصف بيت هو :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

وإذا كان لسان المرء أحد شقيه ؛ فإن لغة الأمة كذلك أحد شقيها ، ولعله من هنا جاء اهتمام الأمم بلغاتها تدويناً ودراسة ، حتى إذا ثبتت أركانها واستقرت أصولها ، أذاعتها وعلمتها ، وشجعت على إجادتها وإتقانها ؛ إيماناً منها بأن اللغة هي الجانب المعنوى فى الإنسان شعوراً وفكراً .

* * *

وقد بعث الله فى العرب رسولاً منهم وأنزل عليه القرآن الكريم كتاب العربية الأول ، وصمام الأمان لها ضد عوامل التآكل المسلطة على التراث والناس .

* * *

وبرحلتى الشتاء والصيف أولاً ، ثم بالفتوح الإسلامية ثانياً ، انتشرت اللغة العربية شمالاً وجنوباً ، وشرقاً وغرباً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، واختلط الفاتحون العرب بالسكان الأصليين للبلاد المفتوحة ، فجرت كلمات أعجمية على ألسنتهم مثلما غزت العربية ألسنة العجم .

وكان من نتيجة ذلك أن وقع بعض الاعوجاج فى ألسنة بعض العرب فخاف الحرصاء على اللغة من أن تفسد ملكة العربية ويضطرب لسان أهلها ، وقد كان هذا الخوف ظاهرة صحية ؛ فمنه كان الانطلاق نحو التأليف فى علوم اللغة ، وتوجهت عناية العلماء أول ما توجهت إلى ما يحفظ هذه اللغة من جهة الإعراب والبناء ، وهو ما عرف بعدُ بالنحو ، وإلى ما يحفظها من جهة تصريفها وبنيتها ، وهو ما عرف بعد بالصرف ، ثم إلى ما يحفظها من جهة مادتها وهو ما عرف بعد بمتن اللغة .

* * *

وإذا كان فقه العربية وفهم فلسفتها وإدراك أهدافها ومعرفة صورها والإحاطة بدقائقها الفنية .....

نقول : إذا كان هذا كله وغيره سهلاً وميسوراً على علماء اللغة المتبحرين فيها ، والواقفين على أسرارها ، فإنه يصعب قليلاً أو كثيراً على غيرهم ، ولو كانوا مبرزين فى علوم أخرى كالرياضة والفلسفة والمنطق ، بل لو كانت حرفتهم الكتابة ، وهى الصناعة التى تمثل الجانب العملى للمعرفة النظرية ولا سيما فى الناحية اللغوية .

ها هو ذا أبو يعقوب يوسف الكندى وهو عربى يقصد أبا العباس [(١)] ليقول له : إنى لأجد فى كلام العرب حشواً ، ويسأله أبو العباس عن الموضع الذى وجد فيه ذلك الحشو ، فيقول له : أجدهم يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون ، إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم .

الألفاظ مختلفة والمعنى واحد ، ويجيبه أبو العباس بقوله : المعانى مختلفة ، فالأول إخبار عن قيامه ، والثانى جواب عن سؤال سائل ، والثالث جواب عن إنكار منكر [(٢)] .

ولقد كان هذا الرد من أبى العباس هو الأساس الذى أقام عليه علماء البلاغة فيما بعد ما سموه « أضرب الخبر » .

* * *

وها هو ذا أبو عبيدة معمر بن المثنى فى حضرة الفضل بن الربيع وزير المأمون قد استدناه حتى أجلسه إليه على فرشه ، ويدخل رجل فى زى الكتاب له هيبة فيجلسه الفضل إلى جانب أبى عبيدة ، ويعرفه به قائلاً : هذا أبو عبيدة علاّمة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه ، فيدعو الرجل للفضل ، ويقرظه لفعله هذا ، ثم يلتفت إلى أبى عبيدة قائلاً : إنى كنت إليك مشتاقاً ، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لى بأن أعرفك إياها ؟ قال أبو عبيدة : هات ، فقال الرجل : قال الله عز وجل : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله ، وهذا لم يعرف .

---

(١) هو ثعلب أو المبرد ، فقد كانا متعاصرين ومتفقين فى الكنية ، والكندى هو يعقوب بن إسحق من نسل الأشعث بن قيس رضى الله عنه ، كان عظيم المنزلة عند المأمون وابنه أحمد ، وله تآليف كثيرة فى جميع العلوم ما بين كتاب ورسالة .

(٢) دلائل الإعجاز لعبد القاهر طبعة الشيخ محمد رشيد رضا ص ٢٤٢ .

فقال أبو عبيدة : إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

هم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به [1] . فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه الرجل .

يقول أبو عبيدة : وعزمت من ذلك اليوم أن أضع كتاباً في القرآن في مثل هذا وأشباهه، وما يحتاج إليه من علمه . فلما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته المجاز ، وسألت عن الرجل السائل ، فقيل لي : هو من كتاب الوزير وجلسائه هو إبراهيم بن إسماعيل الكاتب .

كان ذلك سنة ثمان وثمانين ومائة . أي قبل وفاة أبي عبيدة بثمان عشرة سنة [2] .

* * *

وبعد أبي عبيدة جاء أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أحد شيوخ المعتزلة وأئمتهم وشيخ الأدباء والمؤلفين والمتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، وله في كتابه (البيان والتبيين) مباحث كثيرة عن الفصاحة والبلاغة ، وفضل حسن البيان ، وتبيان ما حسن من السجع والبديع .

وقد أجهد الدكتور محمد علي سلطاني نفسه ـ شكر الله له ـ حتى جمع من « البيان والتبيين » ومن « الحيوان » أربعة وعشرين وجهاً نسبها كلها إلى فنون البلاغة الثلاثة ، والواقع أن بعض هذه الوجوه لا كلها هو الذي تصح نسبته إلى علوم البلاغة الثلاثة ؛ ثم إن الجاحظ لم يكن أول من سمى هذه الأوجه بأسمائها كما قرر الدكتور سلطاني بحق [3] .

ويسلمنا الجاحظ إلى الخليفة العباسي الشاعر العالم عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ كان بشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبو تمام وغيرهم يأتون في شعرهم بضروب من البديع ، فجاء ابن المعتز وجمع من أنواعه ثمانية عشر نوعاً ضمنها كتابه المعروف باسم «البديع» ؛ وقد قال فيه تقريظاً له : « وما جمع قبلي فنون البلاغة أحد ، ولا سبقني إليه

(١) انظر في تفسير الآية ، وفي التعليل للتشبيه فيها الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٧٩ نشر مكتبة المعارف في بيروت د. ت .

(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٩ ص ١٥٨ ، ١٥٩ طبعة دار المأمون ـ القاهرة .

(٣) انظر « مع البلاغة العربية في تاريخها » القسم الأول . الطبعة الأولى دمشق سنة ١٩٧٩م ص ٥٣ – ٩٠ .

مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى إضافة شئ من المحاسن إليه فله اختياره » .

* * *

وقد كانت هذه دعوة من ابن المعتز استجاب لها وإياها معاصره قدامة ابن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ ، وقد جمع فى كتابه « نقد الشعر » عشرين نوعاً من أنواع البديع ، توارد مع ابن المعتز على سبعة منها ، وسلم له ثلاثة عشر ، تضاف إلى الثمانية عشر التى جمعها ابن المعتز ، فتكون جملة ما جمعاه واحداً وثلاثين نوعاً هى كل ما جمع إلى ذلك الوقت .

* * *

وبعد قدامة نجد أباهلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥هـ ؛ وهو صاحب (كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر) .

ونجد فيه من البلاغة : الباب الأول .

الفصل الأول : فى الإبانة عن موضوع البلاغة فى اللغة وما يجرى معه من تصريف لفظها ؛ والقول فى الفصاحة وما يتشعب منه .

الفصل الثانى : فى الإبانة عن حد البلاغة .

الفصل الثالث : فى تفسير ما جاء عن الحكماء والعلماء فى حدود البلاغة .

الباب الخامس : فى ذكر الإيجاز والإطناب .

الباب السابع : فى التشبيه .

الباب الثامن : فى ذكر السجع والازدواج .

الباب التاسع : فى شرح البديع وهو خمسة وثلاثون فصلاً تبدأ بصفحة ٢٦٦ وتنتهى فى ص ٤٣٠ ، وهذه نماذج من عناوين الفصول فى هذا الباب الطويل :

الفصل الأول : فى الاستعارة والمجاز .

الفصل الثانى : فى المطابقة .

الفصل الثالث : فى التجنيس .

الفصل الرابع : فى المقابلة .

الفصل الخامس : فى صحة التقسيم .

الفصل الثامن : فى الإرداف والتوابع .

الفصل التاسع : فى المماثلة .

الفصل الثانى عشر : فى الكناية والتعريض .

الفصل الرابع عشر : فى التذييل .

الفصل الخامس عشر : فى الترصيع .

الفصل السابع عشر : فى التوشيح .

الفصل الثامن عشر : فى رد الأعجاز على الصدور .

الفصل العشرون : فى الالتفات .

الفصل الحادى والعشرون : فى الاعتراض .

الفصل الثالث والعشرون : فى تجاهل العارف ، ومزج الشك باليقين .

الفصل الثامن والعشرون : فى المذهب الكلامى .

* * *

ونلاحظ أن أبا هلال قد درس الاستعارة والمجاز والكناية والتعريض والتذييل والاعتراض فى الباب المخصص للبديع ، وهى ليست منه ، ولا عجب فقد كان البديع إلى ذلك الوقت ؛ يعنى مباحث البلاغة على جهة التغليب ، وبهذا التوسع فى إطلاق اسم البديع ، وصلت أنواعه فى كتاب العمدة لابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ إلى تسعين نوعاً .

وفى العمدة كما فى البديع لابن المعتز ، وكما فى الصناعتين لأبى هلال أبواب للبلاغة والبيان والإيجاز والمجاز والتمثيل والتشبيه ، والاستعارة والإشارة وغير ذلك من فنون البلاغة ومباحث علومها ، وقد ظلت هذه المباحث مختلطة وغير متميزة حتى عند عبد القاهر الجرجانى الملقب بشيخ البلاغة والمتوفى سنة ٤٧١هـ .

نقول ذلك على الرغم من أنه أول من هذب مسائلها وأرسى قواعدها وبوبها ورتبها فى كتابيه « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » وهما الكتابان اللذان درسهما واستوعبهما جار الله محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، يلمس ذلك بوضوح من يقرأ كتابه القيم : (الكشاف فى حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) .

وما يهمنا في مسارنا مع البلاغة هو أن نقرر أن الزمخشري ـ فيما نعلم ـ هو أول من فصل فصلاً تاماً بين علمي المعاني والبيان ، بل إنه هو صاحب هذه التسمية التي صارت نهائية بقوله في مقدمة الكشاف :

« إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سلكها ، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم ..

فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَّة أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن ، وهما علم المعاني وعلم البيان ، وتمهل في ارتيادهما آونة ، وتعب في التنقير عنهما أزمنة » .

وإذا وجدنا في الكشاف بعض الفنون البديعية فإنها جاءت لمحاً لا شرحاً ، ولا عجب فالفنون البديعية المكونة لعلم البديع لم تأخذ من اهتمام المتكلمين عن إعجاز القرآن الكريم وأسرار البلاغة فيه إلا أقل القليل ، وإذا بحثنا لذلك عن دليل ، فإننا نجده فيما نقله السيد الجرجاني عن الزمخشري نفسه من أنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً بل كان يراه ذيلاً لعلمي المعاني والبيان [١] ونجده فيما كتبه محمد بن علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٧٢٩ هـ قال : « إن نسبة صناعة البديع إلى صناعتي المعاني والبيان نسبة صناعة النقش إلى صناعة النساجة ، إلا أنه يمكن إفراد صناعة النقش مالم يكن ذاتياً عن صنعة ما غير النقش ، ولذلك قد يتغاير الصانعان ولا يمكن إفراد صناعة البديع عن صناعتي العلمين ؛ لأنهما صفة ذاتية للكلام » ويمضي فيقول : « لا يستحق المتكلم الموقع في كلامه صناعة البديع المدح بالإطلاق إلا بعد رعاية شرائط البلاغة ، كما أن البنَّاء لا يستحق المدح بالإطلاق على بنائه إلا بعد رعاية دقائق صنعته كلها » [٢].

ولما كان الكشاف كتاباً في التفسير لا في البلاغة ، فقد كان طبيعياً أن تأتي الفنون البلاغية فيه ـ كما أتت فيما سبقه وما لحقه ـ على حسب مجيئها في سور القرآن الكريم ومن خلال آياته ، ولا ننتظر ـ وهذا هو واقعها في القرآن الكريم وفي تفاسيره ـ أن تكون مرتبةً الترتيب الذي نراه في كتب البلاغة منذ السكاكي .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص ٢٢٢ ط ٢ دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ بتحقيق الدكتور عبد القادر حسين سنة ١٩٨٢م دار نهضة مصر للطباعة والنشر .

فهذا هو عمل السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ ، وتلك هي مأثرته ، أجل . مأثرته ، فقد ألف كتابه (مفتاح العلوم) وجعله ثلاثة أقسام . بسط في القسم الثالث منه علوم البلاغة بما سمح له أن يقول عن نفسه « إنه قضى بتوفيق الله منها الوطر »[1].

وقد جعل كل ما يتعلق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال (علم المعانى) ، وكل ما يخص إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه (علم البيان) ، أما ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة ، ووضوح الدلالة فقد جعله (علم البديع) .

ولم يأت بعد السكاكى من أضاف إلى مباحث البلاغة إضافة تذكر . كل من جاء بعده فبظله استظل ، ومن بستانه قطف ، كان قصارى جهدهم أن تناولوا كتابه بالاختصار تارة وبالشرح أخرى .

وأهم مختصراته تلخيص الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ هـ وقد ضمنه القواعد الموجودة فى القسم الثالث من المفتاح بعد أن دعمها بما كان ينقصها فى موطنها الأصلى من الأمثلة والشواهد .

وقد شرق هذا التلخيص وغرب ، وشرحه عدد كبير من علماء البلاغة ، ولعل القزوينى قد خاف على تلخيصه من شرح غيره له ، فشرحه بنفسه فى كتابه (الإيضاح) يقول فى مقدمته : « أما بعد ؛ فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح ، وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح ، وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصلت معانيه المجملة ، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر الجرجانى رحمه الله فى كتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما ، فاستخرجت زبدة ذلك كله ، وهذبتها ورتبتها حتى استقر كل شئ منها فى محله . وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكرى ولم أجده لغيرى ، فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم » .

* * *

(١) المفتاح. مقدمة المؤلف صـ٦ ط (١) ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م دار الكتب العلمية. بيروت.

وقد تأكد بعد القزوينى ما حدث بعد السكاكى من توقف جهود علماء البلاغة عن الابتكار والتجديد ، وجمودهم على ما تركه أسلافهم لهم ، وظل الحال كذلك إلى أن جاءت النهضة الحديثة ، وللنهضة الحديثة بلاغة حديثة والحديث عنها مجال آخر .

أما الآن فمع :

أوجه الحاجة إلى دراسة البلاغة :

وهذه هى :

١ – أن الناظر فى هذه العلوم والمحصل لملكتها يعرف إعجاز القرآن الكريم معرفة يقينية ، فيكون مؤمناً عن بينة .

٢ – أن المتمكن من أصولها وأحكامها يلمس بنفسه دقائق العربية وأسرارها ويدرك مراتب الكمال ومزايا صوره شعراً ونثراً ، وبعبارة أخرى يصير ناقداً واعياً .

٣ – أن الدارس لها الخبير بضوابطها وقوانينها إذا أراد أن يقول شعراً أو نثراً فى أى غرض يستطيع أن يجد من أمره رشداً فيصيب الهدف ويدرك القصد ، ويأتى بما يطابق الحال من الألفاظ والتراكيب ويهتدى إلى المستجاد من الكلام ، والمختار من القول ، لأن معه مصباحه الذى يستضئ به ، ويسير على هديه ، وبعبارة أخرى يصير أديباً مبدعاً (١).

---

(١) كتاب « الصناعتين لأبى هلال العسكرى » ص ٢ – ٣ الطبعة الأولى ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م تحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم .

الفصاحة والبلاغة

الفصاحة

للفصاحة لغة أكثر من معنى ، وتلتقى هذه المعانى فى دلالتها على الظهور والبيان ، يقال: أفصح فلان عما فى نفسه إذا أعرب عنه ، وأفصح الصبى فى منطقه وفَصُح فيه إذا فهم عنه عندما يشرع فى التكلم ، وأفصح الأعجمى وفَصُح إذا انطلق لسانه بالعربية لا تشوبه اكنة ، ومنه قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح منى لسانا » . أى أظهر وأبين منى قولاً ، ويقول أحدنا للآخر ، أفصح إن كنت صادقاً أى بيِّنْ وأظهر ، والمثل المشهور يقول : « أفصح الصبح لذى عينين » أى ظهر ، كما يقال : هذا يوم مفصح ، أى جلى لا غيم فيه .

أما الفصاحة فى اصطلاح البلاغيين ، فإن معناها يختلف باختلاف موصوفها ، وموصوفها يمكن أن يكون الكلمة ، ويمكن أن يكون الكلام ، ويمكن أن يكون المتكلم .

يقال : هذه كلمة فصيحة ، إشارة إلى كلمة معينة كلفظة أسد ، ويقال هذا كلام فصيح ، إشارة إلى مركب معين كقولنا : الشمس طالعة ، والسماء صافية ، ثم يقال : هذا متكلم فصيح ، إشارة إلى شخص معين .

فصاحة الكلمة

وهى تتحقق بخلوها من :

(١) تنافر الحروف .

(٢) مخالفة الوضع .

(٣) الغرابة .

ووجه حصر فصاحة الكلمة فى السلامة من هذه العيوب ، هو أن كل كلمة لها مادة هى حروفها ، وصورة هى صيغتها ، ودلالة هى معناها .

فعيبها إما فى مادتها وهو التنافر ، وإما فى صيغتها وهو مخالفة الوضع ، وإما فى دلالتها على معناها وهو الغرابة .

وبسلامتها من هذه العيوب تسلم مادتها وصيغتها ومعناها من كل خلل ؟

وهذا بيان بكل عيب على حدة .

١ - تنافر الحروف : وهو أن تكون الكلمة ثقيلة على اللسان .

والتنافر نوعان :

(١) تنافر شديد : مثل (الظش) للموضع الخشن ، و (الهعخع) لنبات ترعاه الإبل ، سئل أعرابى عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع .

هاتان الكلمتان (الظش والهعخع) غير فصيحتين ؛ لما فيهما من تنافر الحروف تنافراً شديداً يشعر به كل ناطق بهما ، وهذا التنافر خلل واقع فى مادتيهما .

(ب) تنافر خفيف : مثل لفظ (النقاخ) وهو الماء العذب فى قول الشاعر :

وأحمق ممن يكرع الماء قال لى ... دع الخمر واشرب من نقاخ مبرد

ومثل (مستشزرات) بمعنى مرتفعات فى قول امرىء القيس واصفاً شعر صاحبته بالارتفاع ، وبأنه أنواع ، فبعضه معقوص أى ملوى ، وبعضه مثنى أى مفتول ، وبعضه مرسل أى غير ملوى وغير مفتول قال :

وفـــرع يزين المتن أسود فاحم ... أثـــيث كقنـو النخلة المتعثكل

غدائـــره مستشـزرات إلى العلا ... تضل العقاص فى مثنى ومرسل

والتنافر فى هاتين الكلمتين (نقاخ ومستشزرات) أخف من التنافر فى الكلمتين السابقتين (الظش والهعخع) .

دليل خفة التنافر فيهما مجيئهما فى الشعر .

* * *

وقد اختلف فى سبب التنافر ، فقيل : هو قرب مخارج الحروف. وقيل : بعدها ، بمعنى أن تكون الحروف متقاربة فى المخرج ، أو متباعدة فيه ، فكلمة (الهعخع) متنافرة لتقارب حروفها فى المخرج ، فالهاء والعين والخاء خارجة كلها من مخرج واحد هو الحلق ، وكلمة (مستشزرات) متنافرة لتقارب حروفها فى المخرج كذلك ، إذ حروفها ماعدا الميم خارجة من مخرج واحد هو اللسان .

أما كلمة (ملع) بمعنى أسرع ، فهى أيضاً متنافرة الحروف لكن لعكس السبب السابق أى لتباعد حروفها فى المخرج ، فالميم من الشفتين ، والعين من أقصى الحلق .

وقد رد هذا السبب المزدوج ؛ لأنه غير مطرد ، فنحن لا نجد تنافراً فى كلمتى (الجيش والشجى) مع تقارب الجيم والشين فى المخرج وهو اللسان كما لا نجد تنافراً فى كلمتى (علم وملح) مع تباعد العين والميم أو الميم والحاء فى المخرج : فالميم من الشفتين ، والعين والحاء من الحلق .

على أننا لو جعلنا التباعد فى المخرج أو التقارب فيه سبباً للتنافر المخل بالفصاحة لاقتضى ذلك وقوع غير الفصيح فى القرآن ، فقد جاءت مادة (علم) فى غير موضع منه مع تباعد العين والميم ؛ كما ورد فيه قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ﴾ مع تقارب الهمزة والعين والهاء فى المخرج ، وورود غير الفصيح فى القرآن المعدود فى أعلى طبقات الفصاحة ، مما لا يقول به عاقل .

وإذاً فقرب المخارج أو بعدها ليس سبباً كافياً للتنافر لعدم اطراده ، والمعول عليه فى ذلك هو الذوق السليم ، فما عده ثقيلاً متعسر النطق فهو متنافر ، وما عده خفيفاً سهل النطق فهو فصيح غير متنافر ، أى بصرف النظر عن تقارب مخارج حروفه أو تباعدها .

٢- مخالفة الوضع :

وهى أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع ، سواء خالفت القياس أم وافقته .

مثال ذلك كلمة « ضننوا » يعنى : بخلوا فى قول الشاعر :

مهلاً أعاذل قد جربت من خلقى ... أنى أجود لأقوام وإن ضننوا

فكلمة (ضننوا) غير فصيحة ؛ لأنها مخالفة لما ورد عن الواضع ، والقياس الصرفى ، ومثلها كلمة (الأجلل) فى قول الشاعر :

الحمد لله العلى الأجلل ... أنت مليك الناس رباً فاقبل

* * *

ومثال ما خالف الثابت عن الواضع ووافق القياس ، الفعل (يأبى) بكسر الباء مضارع (أبى) ، فهو غير فصيح ؛ لأنه مخالف لما ثبت عن الواضع ؛ إذ الثابت عنه (يأبى) بفتح الباء لا بكسرها علماً بأن الكسر هو الموافق للقياس الصرفى ؛ لأن (فعَل) بفتح العين لا يأتى مضارعه على (يفعَل) بفتح العين إلا إذا كانت عين ماضيه أولامه حرف حلق ، كسأل يسأل ، ومنع يمنع ، وليس أبى يأبى من هذا القبيل .

* * *

ومثال ما وافق الثابت عن الواضع وخالف القياس قولهم : عورت عين فلان ، واستحوذ عليه الشيطان ، فإن القياس فيهما أن يقال : عارت عينه واستحاذ ، بقلب الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فتصحيح الواو حينئذ مخالف للقياس ، لكنه فصيح ؛ لأنه ورد هكذا عن الواضع .

٣ - الغرابة :

وهى أن تكون الكلمة حوشية وحشية أو غير ظاهرة الدلالة على معناها فيُحتاج فى فهمها:

(أ) إما إلى أن يبحث عنه فى الكتب اللغوية المطولة كما روى عن عيسى بن عمرو النحوى أنه سقط عن حمار له فاجتمع الناس حوله فقال :

« ما لكم تكأكأتم علىَّ كتكأكئكم على ذى جنة ؟ افرنقعوا»

أى مالكم تجمعتم علىَّ كتجمعكم على مجنون ؟ تنحوا عنى .

ومثل كلام عيسى قولهم (الحقلد) للسئ الخلق و(الابتشاك) بمعنى الكذب .

(ب) وإما أن يلتمس لها وجه بعيد كما فى قول العجاج :

أيام أبدت واضحاً مفلجاً ... أغرَّ براقاً وطرفا أدعجا

ومقلــة وحاجبــاً مزججا ... وفاحمــاً ومرسنا مسرجا

فإنه لم يعرف ما أراد بقوله : (مسرجا) .

وقد اختلف فى تخريجه :

فقيل : هو من قولهم للسيوف : سريجية ؛ نسبة إلى قين اسمه سريج .

يقصد الشاعر أن أنف محبوبته فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى .

وقيل : من السراج .

يريد أنه فى البريق كالسراج ، وهذا يقرب من قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرَّج الله وجهه أى بهَّجه وحسَّنه .

وذهب الدكتور طبانة إلى أن التمثيل بكلمة (مسرجاً) فى بيت العجاج أدخل فى باب (المشترك) الذى يحتمل أكثر من معنى منه فى باب (الغريب) ودال على ذلك بقوله : « لأن كل معنى من المعانى التى قالوها للفظ (مسرج) يصح المعنى به ، ولا يوصف اللفظ بالغرابة إلا لخفاء معناه لا لتعدد معانيه » . انتهى كلام الدكتور طبانة فى كتابه معجم البلاغة العربية . جـ ٢ ط ٢ ص ٦٠٥ وأنا معه فيما قاله .

فصاحة الكلام

فصاحته هى أن يبرأ من العيوب الثلاثة الآتية وهى :

١ – تنافر الكلمات مجتمعة .

٢ – ضعف التأليف .

٣ – التعقيد بنوعيه اللفظى والمعنوى .

ووجه حصر براءة الكلام من العيوب فى هذه الأمور الثلاثة هو أن كل كلام له مادة هى أجزاؤه أى كلماته ، وله صورة هى هيئة تأليفه من هذه الكلمات ، وله دلالة على معناه .

فعيبه إما فى مادته وهو التنافر ، أو فى صورته وهو ضعف التأليف أو فى دلالته على المعنى وهو التعقيد .

* * *

ولننبه إلى أن براءة الكلام من هذه العيوب مشروطة بسلامة أجزائه ــ وهى كلماته المفردة ــ من العيوب الثلاثة المتقدمة فى فصاحة الكلمة .

والآن مع كل عيب على حدة :

١- تنافر الكلمات :

وهو أن تكون الكلمات مجتمعةً ثقيلة على اللسان يتعسر النطق بها وإن كانت كل كلمة على حدة لا ثقل فيها ، وهو كتنافر الكلمة نوعان : تنافر شديد ، وتنافر خفيف .

(أ) فالتنافر الشديد . مثل :

وقبر حرب بمكان قفــر   وليس قرب قبر حرب قبر

والشاهد فيه المصراع الثانى ، فإن كلماته متنافرة أشد التنافر حتى إن اللسان لا يكاد يلفظ بها مجتمعة .

(ب) والتنافر الخفيف : كقول أبى تمام فى المدح :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى   معــى وإذا ما لمتـه لمتـه وحدى

والشاهد فيه قوله : « أمدحه أمدحه » .

فإن فى اجتماع هاتين الكلمتين ثقلاً فى النطق بهما ، يشعر به صاحب الذوق السليم .

وما قيل من أن الجمع بين الحاء والهاء إنما هو سبب الثقل مردود بقوله تعالى: « فسبحه ليلاً طويلاً» .

٢- ضعف التأليف :

وهو أن يكون فى التركيب العام للكلام خروج على قوانين النحو التى ارتضاها جمهور النحاة ، كالإضمار قبل ذكر المرجع فى قولنا : « قتل آسرُه الأسيرَ » فإن الضمير فى «آسره» راجع إلى الأسير ، وهو (الأسير) متأخر لفظاً ورتبة .

ومثله قول الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر   وحسن فعل كما جوزى سنمار [1]

---

(١) سنمار اسم رجل بنى للنعمان بن امرئ القيس قصراً عظيماً بالكوفة سماه « الخورنق » ولما أكمل بناءه وزخرفته ألقاه النعمان من أعلاه ، لئلا يبنى قصراً مثله لغيره ، فمات لوقته ، وضرب به المثل لكل من يجازى على الخير بالشر ، وفى هذا يقول شاعر آخر :

جزتنا بنو سعد بحسن فعالنا   جزاء سنمــار وما كان ذا ذنب

وكالإضمار قبل الذكر فى الإخلال بفصاحة الكلام ، الإتيان بالضمير متصلاً بعد (إلا) ، ونصب المضارع بدون ناصب مذكور فى الكلام :

فالأول مثل :

وما علينا إذا ما كنت جارتنا ألا يجـــاورنا إلاك ديـــــار

الأصل : إلا إياك .

والثانى مثل :

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه ويذكر عيباً فى أخيه قد اختفى

٣ - التعقيد :

وهو أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى لخلل واقع فى نظمه وتركيبه بحيث لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى بسبب تقديم أو تأخير ، أو فصل أو حذف أو نحو ذلك مما يترتب عليه صعوبة فهم المعنى المراد .

وهو على ضربين : شديد وخفيف .

فالشديد : كما فى قول الفرزدق يمدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال هشام بن عبد الملك أحد خلفاء بنى أمية :

وما مثله فى الناس إلا مملكاً أبـو أمـه حىٌّ أبـوه يقاربه

يريد أن يقول : ليس مثل الممدوح فى الناس حىٌّ يقاربه فى الفضائل إلا مملكاً أبو أم ذلك الملك أبو الممدوح ، أى لا يحاكيه أحد إلا ابن أخته وهو هشام .

ففيه فاصل كبير بين البدل وهو (حى) والمبدل منه وهو (مثله) ، وفيه تقديم المستثنى وهو « مملكاً » على المستثنى منه وهو « حى » ، وفيه فصل بين المبتدأ والخبر وهما «أبو أمه أبوه » بأجنبى هو « حى » ، وبين الصفة والموصوف وهما « حى يقاربه » بأجنبى هو «أبوه».

وكل هذه الأمور كانت سبباً فى تعقيد اللفظ حتى خفى المعنى واستغلق على الفهم .

ومثل البيت السابق فى شدة تعقيده قول الآخر :

فأصبحــتْ بعد خط بهجتها كأن قفراً رسومهــا قلمـــا

يصف الشاعر داراً بالية ، وأصل الكلام : فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسومها .

ففيه من الفصل والتقديم والتأخير ما جعله مثالاً للتعقيد اللفظى فى أقبح صوره .

أما **التعقيد اللفظى الخفيف** : فشاهده قول المتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم ... شيم على الحسب الأغر دلائل

يصف قوماً بحسن الشمائل . جفخت أى افتخرت ، وأصل التركيب هكذا : جفخت بهم شيم دلائل على الحسب الأغر وهم لا يجفخون بها .

وقد فصل الشاعر بين الفعل والفاعل وهما « جفخت شيم » بأجنبى هو جملة « وهم لا يجفخون بها » الواقعة حالاً ، وفصل بين الصفة والموصوف وهما « شيم دلائل » بالجار والمجرور الموصوف وهما « على الحسب الأغر » .

ومثله قول الفرزدق من قصيدة فى وصف الذئب :

تعال فإن عاهدتنى لا تخوننى ... نكن مثل من يا ذئب يصطحبان

يريد : نكن يا ذئب مثل من يصطحبان ، ففصل بين الموصول والصلة ، وهما « من يصطحبان » بأجنبى هو قوله « يا ذئب » فعقد اللفظ بعض تعقيد .

(ب) التعقيد المعنوى :

وهو أن يكون الكلام خفى الدلالة على المعنى المراد لخلل فى انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة ، إلى المعنى الثانى المقصود ، بحيث يكون إدراك المعنى الثانى من الأول بعيداً عن الفهم يحتاج إلى تكلف ، بسبب استعمال اللفظ فى معنى مخالف للمعنى الأول ، كقول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ... وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

الشاهد فى هذا البيت قول الشاعر « لتجمدا » فإنه لم يوفق فى أداء المعنى الذى أراده من هذا اللفظ على وجه صحيح ، ذلك أنه أراد أن يكنى عما قصده بكنايتين ، أصاب فى إحداهما ، وأخطأ فى الأخرى .

وتوضيح ذلك هو أنه كنى بسكب الدموع عما يوجبه فراق الأحبة من الحزن والكمد ، وهذا صواب ؛ لسرعة فهم الحزن من سكب الدموع ، ثم كنى عما يوجبه اجتماع شمله بأحبته من السرور والابتهاج .

نقول : كنى عن ذلك بجمود عينيه ، وهذا خطأ ؛ فجمود العينين إنما هو جفافهما من الدمع عند الدافع إليه ، أى أن جمودهما إنما هو بخلهما بالدمع وقت الحاجة إليه ، لا ما أراده من السرور .

يؤيد ذلك قول الشاعر :

ألا إن عينا لم تجد يوم واسط عليك بجارى دمعها لجمود

أى لبخيلة بالدمع .

ومنه قول الخنساء ترثى أخاها صخراً :

أعينىّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى ؟!!

والعرب تقول : « سنة جماد » أى بخيلة بالمطر ، « وناقة جماد » أى لا تدر لبناً ، ومن هنا لا يصح أن يقال فى مقام الدعاء لشخص بالسرور : « لا زالت عينك جامدة » ، على معنى : لا أبكى الله عينك ؛ إذ هو دعاء عليه بالحزن ، وليس دعاءً له بالسرور .

والخلاصة أن المعنى الذى أراده ابن الأحنف وهو السرور لا يُفهم من الجمود ؛ إذ لا يدل اللفظ عليه لا لغة ولا عرفاً ، ومن هنا جاء التعقيد المعنوى .

فصاحة المتكلم

فصاحة المتكلم ملكة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح . قلنا «ملكة» ولم نقل « صفة » ؛ إشعاراً بأن الفصاحة من الحالات المستقرة فى نفس الفصيح ، حتى إن المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح لا يُعد فصيحاً إلا إذا كانت القوة التى اقتدر بها على التعبير ملازمة له ، وراسخة فيه .

وقلنا « يقتدر » ولم نقل « يعبر » ليشمل التعريف الفصاحة بالقوة والفصاحة بالفعل .

وقلنا « بلفظ فصيح » ؛ ليعم المفرد والمركب .

وتكتسب ملكة الفصاحة عن طريق التمرس بالآثار الأدبية شعراً ونثراً ، قراءة وحفظاً وفهماً .

وبعبارة أخرى : تذوقاً ومعايشة .

البلاغة

كلمة « بلاغة » لغة تعنى الوصول والانتهاء ؛ يقال ؛ بلغ الشخص بلاغة ، إذا وصل بكلامه إلى ما يريده له من إمتاع أو إقناع .

وهى فى الاصطلاح البلاغى تختلف باختلاف موصوفها ، وموصوفها إما الكلام وإما المتكلم ، يقال : هذا كلام بليغ ؛ وهذا متكلم بليغ . ولا توصف بها الكلمة ؛ فلا يقال : هذه كلمة بليغة ، لأن الكلمة المفردة لا تكوّن معنى كاملاً يمكن تبليغه فلا توصف بالبلاغة .

بلاغة الكلام

بلاغة الكلام هى مطابقته لمقتضى الحال مع سلامته من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه .

الحال : هو الأمر الداعى للمتكلم إلى أن يعتبر فى كلامه شيئاً خاصاً زائداً على أصل المعنى .

ومقتضى الحال : هو ذلك الأمر الزائد الذى اعتبره المتكلم فى كلامه لاقتضاء الحال إياه.

ومقتضى الحال قد يسمى الاعتبار المناسب ، كما قد يسمى الخصوصية .

أما : **مطابقة الكلام لمقتضى الحال** : فهى اشتماله على ذلك الشئ الزائد .
مثال ذلك أن يقال لمن ينكر انتصار العرب على إسرائيل عام ١٩٧٣ « إن العرب قد انتصروا على إسرائيل سنة ١٩٧٣ » .

فإنكار المخاطب لهذا الانتصار « حال » . لأنه أمر يحمل المتكلم على أن يعتبر فى كلامه شيئاً خاصاً زائداً على أصل المعنى هو « التأكيد » ؛ محواً لهذا الإنكار ، فهذا التأكيد كما نرى أمر زائد على المعنى الأصلى الذى هو ثبوت النصر للعرب .

والصورة التى وردت للتأكيد فى الكلام هى « مقتضى الحال » إذ أن الحال اقتضتها ودعت إليها .

أما اشتمال الكلام على هذه الصورة ، فهو مطابقته لمقتضى الحال .

والعبارة بعد ذلك كله أو بذلك كله بليغة ؛ لأنها مطابقة لمقتضى الحال ، أى مشتملة على ما تقتضيه الحال من التأكيد.

وكالإنكار أيضاً المدح ، فهو حال يدعو المتكلم لأن يورد كلامه على صورة الإطناب ، لأن مقام المدح يقتضى إطالة القول ، والإفاضة فيه ، قضاء لحق الممدوح .

وكذلك ذكاء المخاطب حال يحمل المتكلم على أن يورد كلامه على صورة الإيجاز ، لأن مقام الذكاء يقتضى الاختصار فى القول واستعمال العبارات ذات المعانى الدقيقة ، وكل من صورتى الإطناب والإيجاز مقتضى الحال . واشتمال الكلام على هذه الصورة أى مجيئه على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة لمقتضى الحال .

بلاغة المتكلم

هى ملكة راسخة فى نفس صاحبها يتمكن بها من تأليف كلام بليغ فى أى معنى يريد ؛ وصاحب هذه الملكة بليغ وإن لم ينطق ، أى بليغ بالقوة ، فإذا نطق أو كتب كان بليغاً بالفعل، ولا يكون بليغاً من يقدر على صوغ الكلام البليغ فى غرض دون آخر .

والأمر فى اكتساب ملكة البلاغة كالأمر فى اكتساب ملكة الفصاحة كلاهما رهن بتشرب الكلام البليغ لدرجة التشبع به ، ولقد كان إبراهيم المازنى يقرأ ويقرأ ويقرأ حتى إذا امتلأ فاض وفاض ، كان رحمه الله يشبه نفسه بعربة رش الشوارع بالمياه ، ويرى أنه خزان ضخم يمتلئ ليفرغ ، ويفرغ ليمتلئ ، ولندعه هو يتكلم قال : أحس الفراغ فى رأسى ، فأسرع إلى الكتب ، ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغى ؛ هذا الذى خلقه الله لى خلقة عربات الرش كما قلت ، حتى إذا شعرت بالكظة ؛ وضايقنى الامتلاء ، رفعت يدى عن ألوان هذا الغذاء ، وقمت متثاقلاً متثائباً مشفقاً من التخمة ، فلا ينجينى إلا أن أفتح الثقوب ، وأسح ، وهكذا دواليك »[1] .

* * *

مما تقدم فى الكلام على الفصاحة والبلاغة عرفنا ما يعرض للكلام من عيوب ، وما ينتابه من خلل ، وينبغى ـ لتكون الدراسة إيجابية ـ أن نعرف كيف نتقى هذه العيوب ، ونتحاشى ذلك الخلل .

---

(١) قبض الريح . تأليف إبراهيم عبدالقادر المازنى ، ص ٢ ، المطبعة العصرية بمصر سنة ١٩٢٧م .

١- التنافر :

ملاك معرفته الذوق السليم ؛ فهو الذى يقول إن لفظ « مستشزرات » متنافر الحروف وهو الذى يدرك ما بين الكلمات من تنافر أو تضافر ، والذوق نوعان : فطرى ومكتسب .

٢- المخالفة :

يمكن الاحتراز عنها بالوقوف على ما نقل عن الواضع ، وبمعرفة قواعد علم الصرف ، لأنه العلم الذى يبحث فى صيغ الكلمات وطرق استعمالها ، فمن ألم بقواعده عرف أن نحو (الأجلل) مخالف دون (الأجل) إذ من قواعده أن المثلين إذا اجتمعا فى كلمة واحدة ، وكان ثانيهما متحركاً ، ولم يكن زائداً لغرض وجب إدغامهما .

٣- الغرابة :

يمكن اجتنابها بالاطلاع على متن اللغة ، وبكثرة القراءة ، فمن تتبع معاجم اللغة ، ووقف على معانى المفردات المستعملة ، علم أن ما عداها مما يفتقر إلى تنقيب أو تخريج غير سالم من الغرابة .

٤- ضعف التأليف والتعقيد اللفظى :

يمكن توقيهما بمعرفة قواعد النحو ، فهو العلم الذى يبحث طرق استعمال الكلمات على الوجه الصحيح فى تركيب الجمل . فمن تمرس بهذا العلم ووقف على أصوله ومسائله استطاع أن يصوغ الكلام على نهج قويم سليم من شوائب الضعف والتعقيد .

٥- التعقيد المعنوى :

يعرف من دراسة علم البيان ، فمن وقف على هذا العلم وأحصى مسائله ، عرف كيف يتوقى التعقيد فى معانى الكلام .

٦- الخطأ فى تأدية المعنى المراد :

أى فى تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، وذلك يعرف من مزاولة علم المعانى ، فمن درس هذا العلم وتعمقه ، عرف كيف يتجنب الخطأ فى تأدية المعنى المراد ، وكيف يورد الكلام وفق مقتضيات الأحوال .

* * *

أما الوجوه التى تضفى على اللفظ ابهاء والرواء فتعرف من علم البديع ، لأنه العلم الموكول إليه تجميل الكلام وتحسينه .

والثلاثة الأخيرة هى المسماة بعلوم البلاغة .

وبعض المؤلفين يسمى الثلاثة « علم البيان » ، لأن البيان هو الكلام الفصيح المعرب عما فى الضمير .

* * *

قال الجاحظ : « البيان اسم جامع لكل ما كشف لك عن المعنى » .

وقال ابن المعتز : « البيان ترجمان القلوب ، وصيقل العقول » .

ومنهم من يسمى « البيان » و « المعانى » علم البلاغة ، لأنهما يبحثان فى صلب المعنى المراد ، وفى حسن عرضه ، فتأثيرهما فى الكلام ذاتى لا عرضى .

* * *

وبعضهم يسمى الجميع « علم البديع » لما فى مباحثه ـ بعد هذا الاتساع ـ من الروعة والإبداع [1] .

* * *

---

(١) الإيضاح لمختصر تلخيص المفتاح تأليف الخطيب القزوينى ص ١-١٢ طبعة محمد صبيح الثانية ، وتهذيب السعد لسعد الدين التفتازانى تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨ م ص ٦ – ٢٦ مقدمة المحقق و ص ١ – ١٩ مقدمة المؤلف ، والمنهاج الواضح لحامد عونى ص ٥ – ٧٢ الطبعة الثانية ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م القاهرة ، وبغية الإيضاح لتلخيص المفتاح لعبد المتعال الصعيدى ص ٣ – ٢٤ الطبعة الثانية ١٣٦٢هـ / ١٩٤٢م القاهرة .

- ١ -

علم البيان

علم البيان هو العلم الذى يقدرنا على التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ؛ فالوفاء والكرم والشجاعة والجمال ، يمكن التعبير عن كل منها بأكثر من تعبير واحد ، وعلم البيان هو الذى يجعلنا نستطيع ذلك .

ومباحث علم البيان هى التشبيه والمجاز والكناية .

التشبيه

هو إلحاق أمر بأمر آخر فى صفة أو أكثر بأداة من أدوات التشبيه ملفوظة أو ملحوظة .

وهو عند عبد القاهر : « أن تثبت لهذا معنى من معانى ذاك أو حكماً من أحكامه ، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد ، وللحجة حكم النور فى أنك تفصل بها بين الحق والباطل ، كما يفصل بالنور بين الأشياء » [1] .

ولما ذكر الأستاذ الدكتور بدوى طبانة هذا التعريف لعبد القاهر ، علق عليه بقوله : « وهذا التعريف يبين وظيفة التشبيه وعمله أكثر مما يدل على حقيقته وحده » [2].

وحذا حذوه الدكتور أحمد عبد السيد الصاوى فقال : « ومن الملحوظ أن هذا التعريف يبين وظيفة التشبيه وعمله أكثر مما يدل على حقيقته وحده » [3] .

والحق أن كلام عبد القاهر تعريف جيد للتشبيه ؛ أجل . إنه لم ينص فيه على الأداة ، لكن الأداة ركن من أركان التشبيه ، وليست طرفاً فيه ، وهى لهذا تذكر أو تقدر ، وتقديرها أفضل من ذكرها بلاغة .

* * *

وقد نظر البلاغيون فى تعريف التشبيه إلى المعنى اللغوى لكلمة (شِبه) وهو (مثل) تقول : فلان شبه فلان أو مثله ، وشبهته به أى مثلته به ، فالمعنيان اللغوى والاصطلاحى للتشبيه قريب من قريب [4] .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٧٨ - ٧٩ تحقيق هـ . ريتر . استانبول ١٩٥٤م .

(٢) علم البيان ص ٤٢ طبعة الأنجلو المصرية ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧ م .

(٣) فن الاستعارة ص ١٩٤ طبعة الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٩ م.

(٤) انظر الزمخشرى فى أساس البلاغة ص ٢٢٨ بتحقيق عبد الرحيم محمود ١٣٧٢هـ ١٩٥٣م .

وأمثلة التشبيه أكثر من أن تحصى .

يقول المبرد « والتشبيه جار كثيراً فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد »[1].

وقد ذكر أن المرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها قال الأعشى

كأن مشيتها من بيت جارتها

مر السحـــابة لا ريث ولا عجل

كما ذكر أن العرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والدرة والبيضة ، وإنما تقصد من كل شئ إلى شئ[2] .

وفى مكان آخر يقول « التشبيه كما ذكرنا من أكثر كلام الناس ، وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم ـ وعن أصل أخذوه ـ أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبى أو البقرة الوحشية ، والأنف بحد السيف ، والفم بالخاتم ، والشعر بالعناقيد ، والعنق بإبريق فضة ، والساق بالجمار ، فهذا كلام جار على الألسن ، وقد قال سراقة بن مالك بن جشم ، فرأيت رسول الله ﷺ وساقاه باديتان فى غرزه كأنهما جمارتان ، فأردته فوقعت فى مقنب من خيل الأنصار ، فقرعونى بالرماح وقالوا : أين تريد ؟ .

وقال كعب بن مالك الأنصارى : وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ تبلج وجهه فصار كأنه البدر[3] .

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ٧٩ نشر مكتبة المعارف . بيروت د . ت .

(٢) الكامل جـ ٢ ص ٥٥ .

(٣) الكامل جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤ . والغرز : ركاب من جلد يضع فيه الراكب رجله تقول : اغترز الرجل وغرز رجله فى الركاب إذا ركب ، أما المقنب فهو الجماعة من أى شئ تقول : قنبوا نحو العدو وتقنبوا أى تجمعوا وصاروا مقنبا .

(أساس البلاغة ص ٣٢٢ ، ص ٣٧٨ وانظر فى الجزء الثانى من الكامل الباب ٤٧ ص ٤٠ - ١١٧) .

أركان التشبيه وطرفاه

أركان التشبيه أربعة هى : المشبه والمشبه به والأداة ووجه الشبه .

أما طرفاه فهما المشبه والمشبه به . هما طرفان ، وهما ركنان ، أما الأداة ووجه الشبه فركنان فقط .

والفرق بين الركن والطرف فى التشبيه : أن الركن يمكن وجود التشبيه بدونه ، بل إن حذفه أفضل من ذكره ، أما الطرف فلا يمكن وجود التشبيه بدونه ، ولتوضيح ذلك نقول :

كما لا يمكن تصور الميزان ذى الكفتين بدون الكفتين ، لا يمكن تصور التشبيه بدون الطرفين .

والطرفان قد يكونان :

حسيين مبصرين : مثل « كأنهن الياقوت والمرجان » .

وقد يكونان :

حسيين مسموعين : مثل : صوت فلان كنفير الحرب ، أو كقرع الطبول .

وقد يكونان :

حسيين مذوقين : مثل : عصير البرتقال كالعسل .

وقد يكونان :

حسيين مشمومين : مثل : نكهة حفيدتى كالمسك .

وقد يكونان :

حسيين ملموسين : مثل : لها بشر كالحرير .

وقد يكون الطرفان عقليين : أى لا يدرك واحد منهما بالحس ، كتشبيه العلم بالحياة ، والجهل بالموت ، والجمال بالسحر .

أو مختلفين والمشبه عقلى والمشبه به حسى ، وهذا هو الأصل فى التشبيه :

مثل أن تشبه عدل الحاكم بالظل ، وظلمه بالحرور ، والموت بالسبع والسيرة الطيبة بالعطر .

ومن ذلك قولهم : القناعة كنز لا يفنى . وقولهم : الحكمة شجرة تنبت فى القلب وتثمر فى اللسان .

وقد يكونان مختلفين والمشبه حسي والمشبه به عقلى :

أى عكس السابق وهو فرع له :

قال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى : انصرفت عن دار الصاحب قبيل العيد ، فجاءنى رسوله بعطر الفطر ومعه رقعة فيها هذان البيتان :

يأيها القاضى الذى نفسى له ... مـع قرب عهد لقائه مشتاقه

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه ... فكأنمـــا أهــدى لــه أخلاقه

وكقول الصاحب قول أبي نواس في وصف الخمر :

عتقــت فـي الـدن حتى ... هــى فـى رقــة دينـى

وقول ابن بابك :

وأرض كأخلاق الكريم قطعتها

وقد كحل الليل السماك فأبصرا

وقول ابن طباطبا :

رب ليـــل كــأنه أملى فيــ ... ـك وقد رحت عنك بالحرمان

وقوله :

صحـــو وغيم وضياء وظُلَمْ ... مثل سرور شـابه عارض غم

وقوله :

كأن انتضاء البدر من تحت غيمة ... نجـــاء من الباســاء بعـد وقوع

وفى هذه القطعة للقاضى التنوخى تشبيهات كثيرة من هذا الضرب :

رب ليـل قطعتـــه كصـــدود   أو فـــراق ما كـان فيـــه وداع
موحش كالثقـيل تقذى به العيـ   ـن وتأبـــى حديثـــه الأسمـــاع
وكـان النجــوم بين دجــاه   سنـــن لاح بينهـــن ابتـــداع
مشرقـــات كأنهـــن حجاج   يقطع الخصم والظلام انقطاع[1]

أداة التشبيه

أداة التشبيه هى أية لفظة تشعر بالمشابهة والمماثلة .

من ذلك حرف الكاف :

وهى أم الباب لبساطتها وخفتها على اللسان والسمع ، ومن هنا كثر عقد التشبيه بها ، تقول :

المعلم كالأب ، والمعلمة كالأم ، والصديق كالأخ ، والصديقة كالأخت .

ويقول المعرى :

أنت كالشمس فى الضياء وإن جاوز   ت كيـوان فى علـــو المكـــان

ومن قصيدة (المفتسلة) لأبى نواس :

ومـــدت راحـــة كالمـــاء منـــها   إلى مـــاء معـــــد فى إنـــاء

ومن ذلك الحرف « كأن » .

قال الله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » .

وقال امرؤ القيس :

فيـــالك من ليل كأن نجومـــه   بكل مغـــار الفتل شدت بيذبل

وقال :

نظرت إليها والنجوم كأنها   مصابيح رهبان تُشَبّ لقفّال

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٠٧ – ٢١٦ .

وقالت الخنساء .

وإن صخراً لتأتم الهداة بــه　　كأنــه علــم فى رأســه نــار

وفي الحرف (كأن) يقول ابن جنى : « اعلم أن أصل هذا الكلام : زيد كعمرو ، ثم أرادوا توكيد الخبر فزادوا فيه (إن) فقالوا : إن زيداً كعمرو ، ثم إنهم بالغوا فى توكيد التشبيه فقدموا حرفه أول الكلام ؛ عناية به ، وإعلاماً أن عقد الكلام عليه ، فلما تقدمت الكاف وهى جارة لم يجز أن تباشر (إن) ؛ لأنها ينقطع عنها ماقبلها من العوامل ؛ فوجب لذلك فتحها فقالوا : كأن زيداً عمرو »[1] .

* * *

ومن أدوات التشبيه كل اسم أو فعل يدل على التشبيه أو ينبئ به كمثل وشبه ومحاك ومشابه ومضارع .

وكماثل وشابه وحاكى وضارع وحسب وظن وخال ورأى ووجد وعلم ، قال ولد القاضى عياض واصفاً تثنى الزرع بفعل الرياح :

انظر إلى الزرع وخاماتــه　　يحكى وقــد ولت أمام الرياح

كتيبــة خضراء مهزومــة　　شقائــق النعمان فيها جراح

وقال بشار :

وكأن تحت لســـانها　　هاروت ينفث فيــه سحرا

وتخال ما جمعت عليــ　　ــه ثيابها ذهباً وعطــرا

ومن قصيدة البحترى فى وصف بركة المتوكل :

إذا النجوم تراءت فى جوانبها　　ليلاً حسبت سماء ركبت فيها

محفوفــة برياض لا تزال ترى　　ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٢١٧ .

وينقسم التشبيه باعتبار الأداة إلى :

(أ) **مرسل** : وهو ما ذكرت فيه الأداة مثل محمد كحاتم .

(ب) **مؤكد** : وهو ما حذفت منه الأداة مثل محمد حاتم فى الكرم .

والمؤكد أبلغ من المرسل ، ففيه لاتفصل أداة التشبيه بين المشبه والمشبه به ، ذهاباً إلى أنهما شئ واحد أو ادعاء لذلك على سبيل المبالغة .

وجه الشبه : وجه الشبه هو المعنى المشترك بين الطرفين كالرقة في تشبيه الفتاة بالزهرة ، والجمال فى تشبيهها بالبدر ، والرشاقة في تشبيهها بالغزال .

أقسام التشبيه باعتبار وجه الشبه

(١)

التشبيه غير التمثيلي والتشبيه التمثيلي

ينقسم التشبيه من حيث وجه الشبه إلى هذين القسمين ، فقد يكون وجه الشبه مفرداً مثل:

خالد أسد شجاعة ، والأخ الأكبر أب رعاية ، والأخت الكبرى أم حناناً .

وقد يكون متعدداً ، لكنه لا يكوّن صورة مركبة من هذا التعدد ، كقولنا : الفتاة زهرة رقة وشذى ونضارة .

وكقول أبى بكر الخالدى :

يا شبيه البدر حسنا ... وضياءً ومنالا

وشبيه الغصن لينا ... وقواماً واعتدالا

أنت مثل الورد لونا ... ونسيماً ودلالا

زارنا حتى إذا ما ... سرنا بالقرب زالا

وإذا كان وجه الشبه فى التشبيه واحداً أو متعدداً لا يكوّن بتعدده صورة وهيئة ، نتج لنا ما يعرف بلاغياً بالتشبيه غير التمثيلى ، كالأمثلة السابقة .

أما إذا كان وجه الشبه صورة مركبة من أجزاء ، وهيئة حاصلة من أشياء ، فإن التشبيه حينئذ يسمى بالتشبيه التمثيلى .

وأمثلة التشبيه التمثيلى كثيرة . من ذلك قول شوقى :

أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

وقول ابن المعتز :

اصبر على كيد الحسو ... د فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل نفسها ... إن لم تجد ما تأكله

وقول أبى فراس :

والماء يفصل بين روض الـ ... ـزهر فى الشطين فصلا
كبساط وشى جردت ... أيدى القيون عليه نصلا

وقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا ... وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وقول المتنبى :

يهز الجيش حولك جانبيه ... كما نفضت جناحيها العقاب

وقول السرى الرفاء :

وكأن الهلال نون لجين ... غرقت فى صحيفة زرقاء

وقول صالح بن عبد القدوس :

وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضرا ... بعد الذى أبصرت من يبسه

وقول الله تعالى فى صفة المنافقين :

﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، ذهب الله بنورهم وتركهم فى
مات لا يبصرون ﴾ .

وقوله تعالى فى صفة الكافرين : ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه
لظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده ﴾ .

وقوله جل شأنه فى صفة اليهود : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل
حمار يحمل أسفاراً ﴾ .

وقوله سبحانه فيمن اتخذوا من دون الله أولياء : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء
ثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

(٢)
التشبيه التحقيقى والتشبيه التخييلى وتشبيه التضاد

وهو التقسيم الثانى للتشبيه باعتبار وجه الشبه

فالتحقيقى:

هو ما كان وجه الشبه فيه قائماً بالطرفين حقيقةً ، كتشبيه وجه الفتاة بالشمس ،
عرها بالليل .

وجه الشبه بين الطرفين إنما هو الإشراق ، والسواد على التوالى ، وهما موجودان فى
رفين حقيقة .

والتخييلى:

هو ما يكون وجه الشبه قائماً بأحد الطرفين تحقيقاً ، وبالآخر تخييلاً تقول : سيرة فلان
ح الطيب ، وأخلاقه كأريج المسك .

فالشذا تحقيقى فى المسك والطيب ، وتخييلى فى الأخلاق والسيرة .

* * *

وكالتشبيه التخييلى تشبيه التضاد .

ويسمى التشبيه تشبيه تضاد إذا كان وجه الشبه فى أحد الطرفين ادعائياً ، وفى الآخر حقيقياً .

نقول للجبان : أنت عنترة ، ، وللبخيل : أنت حاتم ، وللعييى : أنت سحبان وائل ، وللغبى : أنت إياس ، وللدميمة : أنت قمر .

وما راعيناه وتصرفنا بمقتضاه هو أننا أنزلنا التضاد بين الطرفين منزلة التناسب ، وأشركنا المشبه مع المشبه به فيه على سبيل التمليح أو التهكم (١) .

(٣)
التشبيه المفصل والتشبيه المجمل

وهو التقسيم الثالث للتشبيه من حيث وجه الشبه .

فالمفصل : هو ما ذكر فيه وجه الشبه مثل : محمد حاتم كرماً .

وكقول ابن الرومى :

يا شبيه البدر فى الحسـ ـــن وفى بعد المنال

جُدْ فقد تنفجر الصخـ ـــرة بالماء الزلال

والمجمل : هو ما حذف منه وجه الشبه مثل محمد كحاتم .

قالوا : ولا يضاد الإجمال أن يوصف المشبه أو المشبه به أو هما معاً بوصف يشعر بوجه الشبه .

فالأول : كقول الرسول ﷺ : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

وجه الشبه فى الحديث هو الهداية ، و« بأيهم اقتديتم اهتديتم » مشعر به ، بل نص عليه.

---

(١) انظر مفتاح العلوم ص ٢٦٨ الطبعة الأولى ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٧م القاهرة .

والثانى كقول من وصف بنى المهلب للحجاج لما سأله عنهم وعن أيهم أمجد ؟ « هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » .

فـ« لا يدرى أين طرفاها » وصف للمشبه به وهو مشعر بوجه الشبه الذى هو التناسب .

يقول القزوينى معلقاً على هذا المثال ، ومرجحاً نسبته إلى الأنمارية : « أى لتناسب أصولهم وفروعهم فى الشرف يمتنع تعيين بعضهم فاضلاً ، وبعضهم أفضل منه ، كما أن الحلقة المفرغة لتناسب أجزائها يمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً ، هكذا نسبه الشيخ عبد القاهر إلى من وصف بنى المهلب ، ونسبه الشيخ جار الله العلامة إلى الأنمارية ، قيل هى فاطمة بنت الخرشب ، سئلت عن بنيها : أيهم أفضل ؟ فقالت : عمارة ، لا بل فلان، لا بل فلان ثم قالت : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها » . ونحوه قول زياد الأعجم :

وإنا وما تلقى لنا إن هجوتنا لكالبحر مهما تلق فى البحر يغرق

وكذا قول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب [1]

والثالث وهو وصف كل من المشبه والمشبه به بوصف مشعر بوجه الشبه ، كقول أبى تمام يمدح :

صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عنى ، وعاوده ظنى فلم يخب
كالغيث إن جئته وافاك ريقه وإن ترحلت عنه لج فى الطلب

فقد وصف الشاعر المشبه وهو الممدوح بأنه يتفضل عليه حاضراً وغائباً مقبلاً ومعرضاً ، ووصف المشبه به وهو الغيث بأنه يساقط عليك طلبته أو لم تطلبه .

والوصفان مشعران بوجه الشبه ، وهو الإفاضة الجامعة بين الطرفين .

---

(١) بغية الإيضاح . عبد المتعال الصعيدى جـ ٣ ص ٥٣ - ٥٤ سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٤م القاهرة .

هذا ما قرره علماء البلاغة وعلى رأسهم القزوينى [1] .

والرأى عندى أن الوصف المشعر بوجه الشبه سواء كان وصفاً للمشبه أو للمشبه به أولهما معاً ، هذا الوصف فى رأيى مخرج للتشبيه من (المجمل) ومدخل له فى (المفصل)؛ فلا فرق بين الإشعار بوجه الشبه وذكر وجه الشبه صراحة ، والأمثلة المذكورة كلها قد دلت الصفة فيها على وجه الشبه ، بل إن هذه الصفة فى بعض الأمثلة كانت هى وجه الشبه .

وإذا كنا نرفض كلامهم وهم يقسمون الوصف إلى وصف خاص بالمشبه ، وإلى وصف خاص بالمشبه به ، فأولى أن نرفضه فى حالة شمول الوصف للمشبه والمشبه به .

ومهما يكن من أمر فإن التشبيه المجمل أبلغ من التشبيه المفصل ؛ لأن السكوت عن وجه الشبه يشعر بأن المشبه مشترك مع المشبه به فى كثير من صفاته ، بل يعطى الإيحاء بادعاء أنه هو .

أما التصريح بوجه الشبه ، فإنه نص على أن المشبه لا يشترك مع المشبه به إلا فيما ذكرناه .

ولا فرق من وجهة نظرى ـ كما أسلفت ـ بين التصريح بوجه الشبه والإيماء إليه أو ما سموه الإشعار به .

صور التشبيه

للتشبيه أربع صور هى :

١ – الطرفان والركنان مثل : محمد كالأسد فى الشجاعة .

٢ – الطرفان وركن واحد هو الأداة مثل : محمد كالأسد .

٣ – الطرفان وركن واحد هو وجه الشبه مثل : محمد أسد شجاعة .

٤ – الطرفان فقط مثل : محمد أسد ، ومن أمثلته فى القرآن الكريم : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباسا ﴾ .

---

(١) انظر بغية الإيضاح جـ ٣ ص ٥٣ – ٥٤ .

ومن أمثلته كذلك قول أبى فراس الحمدانى :

إذا نلت منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

مراتب التشبيه

للتشبيه ثلاث مراتب هى :

المرتبة الدنيا وهى الصورة رقم (١) .

المرتبة الوسطى ، وتتكون من الصورتين (٢) ، (٣) .

المرتبة العليا ، وهى الصورة رقم (٤) ويسميها البلاغيون (التشبيه البليغ) والتشبيه البليغ أعلى درجات التشبيه فى البلاغة الاصطلاحية .

أما فى الكلام البليغ ، فقد يأتى غيره قبله ، وهذا متوقف على القيمة الفنية للأداء الأدبى جملةً ، فلن يشفع التشبيه البليغ للكلام الردئ ، كما لن يحط التشبيه غير البليغ من شأن الكلام الجيد ، قال تعالى فى محمد ﷺ وأصحابه ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ﴾ .

وسنصادف فيما يأتى تشبيهات بلغت الذروة من الفنية ، ولم يقصر بها عنها وجود أداة فيها أو وجه شبه ، أو أداة ووجه شبه معاً ، كما ستصادفنا تشبيهات بليغة وهى من الركاكة والرتابة بحيث لا يؤبه بها ، بل لا يلتفت إليها ، وتأمل قول الشاعر :

العيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار

فستجد نفسك وكأنك فى « دلائل الخيرات » (١) .

---

(١) دلائل الخيرات منظومة كان المتكسبون بالإنشاد فى الموالد وغيرها من المناسبات الدينية ينشدونها مجتمعين وهم سائرون فى الطرقات ؛ قصداً إلى تذكير الناس بالمناسبة وتعبيراً عن فرحتهم بها .

وكانت تبدأ هكذا :

مولاى صل وسلم دائماً أبدا على حبيبك خير الخلق كلهم

ومن التشبيه البليغ إضافة المشبه به إلى المشبه كقول الشاعر :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى

ذهب الأصيل على لجين الماء

فالأصيل مشبه بالذهب ، والماء مشبه باللجين

ومنه أن يكون المشبه به حالاً من المشبه مثل : خاض خالد المعركة أسداً.. ومثل :

بدت قمراً ومالت خوط بان   وفاحت عنبراً ورنت غزالا (١)

ومنه المصدر المبين لنوع فعله بطريق الإضافة . تقول :

نهض الموظف بأعباء وظيفته نهوض الرجال. كما تقول : مكر مكر الثعلب. وسر بلاغة التشبيه البليغ ما فيه من إيجاز ومبالغة .

التشبيه المقلوب

هناك مقولة بلاغية مسلمة هى : إن وجه الشبه يجب أن يكون أظهر وأشهر فى المشبه به عنه فى المشبه ، وذلك كى يصح إلحاق المشبه بالمشبه به فى هذا الوجه .

قال المعرى :

ظلمناك فى تشبيه صدغيك بالمسك

وقاعدة التشبيه نقصان ما يحكى

من هنا جاء ما نراه من عكس بعض الشعراء الوضع فى التشبيه بجعل المشبه مشبهاً به ، والمشبه به مشبهاً ، إيهاماً بأن المشبه أقوى وأكمل فى وجه الشبه من المشبه به .

وقد سمى جمهور البلاغيين هذا النمط من التشبيه بالتشبيه المقلوب ، ومثلوا له بقول محمد بن وهب يمدح المأمون :

---

(١) الخُوط : الغصن الناعم يقولون : « كم وراء هذه الحيطان من قدود كالخيطان » وانظر أساس البلاغة ص ١٢٢ .

وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

ويقول الآخر :

والبدر فى أفق السماء كغادة ... بيضاء لاحت فى ثياب سواد

ويقول البحترى فى وصف سحابة :

كأن سناها بالعشى لصبحها ... تبسم عيسى حين يلفظ بالوعد

ويقوله فى وصف بركة المتوكل :

كأنها حين لجت فى تدفقها ... يد الخليفة لما سال واديها

ومن لطيف التشبيه المقلوب ما نراه عند مصطفى صادق الرافعى تحت عنوان « حيلة مرآتها » قال :

حسناء خالقها أتم جمالها ... سألته معجزة الهوى فأنالها
لما حباها الله جل جلاله ... بالحسن منفرداً أجل جلالها
طلبوا لها شبها يضئ ضياءها ... لهوى النواظر أو يدل دلالها
أما السما فجلت عليهم بدرها ... والأرض قد عرضت لذاك غزالها
لكنها نظرت فأخجلت الظبا ... وتلفتت للبدر فاستحيا لها
هم يطلبون مثالها فليرقبوا ... مرآتها يجدوا هناك مثالها

ولأن الأديب فى التشبيه المقلوب يجعل الفرع أصلاً ، والأصل فرعاً سماه ابن جنى « غلبة الفروع على الأصول » وقرظه بقوله :

« إنه فصل من فصول العربية طريف ، نجده فى معانى العرب ، كما نجده فى معانى الأعراب ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة » (١) .

أما ابن الأثير ، فقد سماه (الطرد والعكس) وجعل منه قول البحترى :

---

(١) الخصائص جـ ١ ص ٢٠٨ .

فى طلعة البدر شئ من محاسنها

وللقضيب نصيب من تثنيها

وقول ابن المعتز فى تشبيه الهلال :

ولاح ضوء قمير كاد يفضحنا   مثل القلامة قد قدت من الظفر [1]

والتشبيه المقلوب هو « التشبيه المنعكس » عند العلوى صاحب الطراز قال : « إن هذا النوع يرد على العكس والندور ، وباب التشبيه الواسع هو الاطراد ، وإنما لقب بالمنعكس ، لما كان جارياً على خلاف العادة والإلف فى مجارى التشبيه » [2] .

وأخيراً فإن ثمة احترازاً يجب الأخذ به ، وهو أن التشبيه المقلوب لا يرد ولا يحسن إلا فيما كان وجه الشبه فى المشبه به أظهر وأشهر ، فبهذا يعرف القلب ، وتظهر صورة الانعكاس .

التشبيه الضمنى

إذا جاء المشبه فى صورة غريبة تدعو إلى إنكاره ورفضه ، احتاج ـ فى قبوله وبيان إمكانه ـ إلى أن نقيسه بنظير له مسلم به ، وإذا تم ذلك تلميحاً لا تصريحاً ، وقفنا على ما يسمى فى الاصطلاح البلاغى بالتشبيه الضمنى .

قال المتنبى :

وإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

زعم الشاعر أن سيف الدولة قد فاق الأنام الذى هو واحد منهم وصار جنساً آخر .

ولما لم يكن ذلك مسلماً له لا عقلاً ولا عادة ، احتاج إلى أن يقويه ، فألحقه بما لا نزاع فيه وهو المسك ؛ فإنه قد خرج عن أصله ، وصار جنساً آخر حقيقة ، وقد وصل أبو الطيب بمنطق البلاغة ، أو ببلاغة المنطق إلى أن ما ادعاه لممدوحه أمر ممكن .

---

(١) المثل السائر جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) الطراز جـ ١ ص ٣٠٩ .

ومثل بيت المتنبى هذا البيت :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها

فإن فى الخمر معنى ليس فى العنب

قال : إذا كانت محبوبتى من قبيلة تغلب التى لا تغلب ، فإن لها عن رقتها وأنوثتها ، ومن حبها لى ما يجعلها مختلفة عن أهلها ، وبرهن على صحة كلامه بما ينشأ للخمر التى أصلها العنب من خواص ليست فى العنب .

وكالبيتين السابقين قول ابن الرومى :

قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يرى النور فى القضيب الرطيب

وقول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

* * *

ولا يقتصر التشبيه الضمنى على بيان إمكان المشبه ، بل يشمل كل تشبيه يتحرك فى أعماق النص الأدبى ولا يعوم على سطحه .

وإذا كان الأديب فيما مضى قد قصده إقامة للحجة ، فإنه هنا قد سلكه رغبة فى الطرافة والجدة .

وصف ابن نباتة فرسه الأغر المحجل فقال :

وأدهم يستمد الليل منه	وتطلع بين عينيه الثريا
سرى خلف الصباح يطير مشياً	ويطوى خلفه الأفلاك طيا
فلما خاف وشك الفوت منه	تشبث بالقوائم والمحيا

لما أراد الشاعر وصف فرسه بشدة السواد قال : « يستمد الليل منه » .

هكذا يقلب التشبيه ، فالأصل تشبيه الفرس بالليل ، ولكنه بالغ فعكس ، أى جعل المشبه مشبهاً به ، والمشبه به مشبهاً ؛ ثم بالغ مرة أخرى فجعل الليل يستمد سواده من الفرس ،

وقد جاء التشبيه لذلك مطوياً يحتاج فى فهمه إلى وقفة ، والشطرة الثانية متضمنة تشبيه جبهة الفرس بالثريا تشبيهاً ضمنياً ، وإذا كان الشاعر قد قصرها على غرة الفرس ، فإنه قد حكى قصة الغرة والتحجيل معاً بعد ذلك ، وهى قصة طريفة حقاً :

تحدى فرسه الصباح ، وخاف الصباح سبق الفرس له ، فتشبث بقوائمه ومحياه ؛ وهذا سبب بياضها .

ومثل هذا فى المعنى ولو أنه تشبيه صريح قوله :

فكأنما لطم الصباح جبينه   فاقتص منه وخاض فى أحشائه

الصراع مستمر بين الفرس والصبح ، لكنه أخذ صورة أخرى :

الصباح يلطم الفرس ، فيثور الفرس ، ويخوض فى أحشاء الصباح .

والصورة هنا أكثر إيجازاً وتركيزاً ومباشرة من الصورة السابقة ، ويمكن القول لهذا بأن ابن نباتة قد تفوق على نفسه .

والتشبيه الضمنى موجود فى أدبنا الحديث بكثرة ، وقد يأتى فى صورة حوار فيكسبه الحوار طرافة وحيوية وحركة .

من ذلك هذا الشعر لبشارة الخورى بعنوان (هند وأمها) :

أتت هند تشكو إلى أمها   فسبحان من جمع النيرين
فقالت لها إن هذا الضحى   أتانى وقبلنى قبلتين
وفر فلما رآنى الدجى   حبانى من شعره خصلتين
وما خاف يا أم بل ضمنى   وألقى على مبسمى نجمتين
وذوّب من لونه سائلا   وكحلنى منه فى المقلتين
وجئت إلى الروض عند الصباح   لأحجب نفسى عن كل عين
فنادانى الروض يا روضتى   وهم ليفعل كالأولين
فخبأت وجهى ولكنه   إلى الصدر يا أم مد اليدين
ويا دهشتى حين فتحت عينى   وشاهدت فى الصدر رمانتين
ومازال بى الغصن حتى انحنى   على قدمى ساجدا سجدتين
وكان على راسه وردتان   فقدم لى تينك الوردتين

وخفـت مـن الغـصن إذ تمتمـت · بأذنـي أوراقـه كلمتيـن
فرحت إلى البحـر للابتـراد · فحملنـي ويمـه موجتيـن
هـو البحـر يا أم كـم مـن فتـى · غريـق وكـم من فتـى بيـن بيـن
فهـا أنـا أشكـو إليك الجميـع · فبالله يـا أم مـاذا تريـن
فقالـت وقـد ضحكـت أمهـا · وماسـت مـن العجـب فى بردتين
عرفتهـم واحـداً واحـدا · وذقـت الـذى ذقته مرتيـن [1]

يقول المرحوم أنور المعداوى فى تعليقه على الأبيات السابقة :

وهو (بشارة الخورى) يستخدم الضحى والليل والروض والغصن والبحر ، يستخدمها كمجالات خلفية لصوره المرسومة .

ومن الملاحظ أنه لم يلجأ ـ كما هو الحال عند المدرسة الكلاسيكية ـ إلى التعبير المباشر فى التشبيه ، لم يلجأ إلى طريقة التجسيم التقليدى ليشبه بياض الوجه بنور الضحى ؛ وسواد الشعر بظلام الليل ، وبريق الأسنان بضوء النجم إلى آخر السلسلة من تلك القائمة الرتيبة والمكررة » [2] .

أغراض التشبيه

من المسلم به أن المستفيد من التشبيه إنما هو المشبه حتى لو تنكر فى صورة المشبه به كما فى التشبيه المقلوب ، وهذا هو المعقول ، فالتشبيه بمثابة القياس فى إلحاق شئ بشئ ، أو حمل شئ على شئ ، ولما كان المشبه هو المنزَّل منزلة المقيس عادت فائدة التشبيه عليه واختصت به .

وأغراض التشبيه كثيرة منها :

١- بيان حال المشبه :

وذلك إذا كنا نجهل حاله قبل إلحاقه بالمشبه به . نقـول : (الفتـاة قمـر) فنعلـم ـ بالتشبيه ـ أنها جميلة ، ولولا التشبيه ما علمنا ذلك ، فالتشبيه هو الذى بين حال الفتاة ؛ لأنه أظهرها لنا فى صورة قمر أى جميلة .

---

(١) عن ديوان « الهوى والشباب » للأخطل الصغير « بشارة الخورى » .

(٢) كلمات فى الأدب ص ٦٨ .

ويقول النابغة مادحاً النعمان بن المنذر :

فإنــك شمــــس والملوك كواكــب | إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكب

فنعلم حال النعمان وحال الملوك المعاصرين له ، أو حال النعمان مع الملوك المعاصرين له، وأنه كان إذا طلع عليهم أخفتهم وطمس معالمهم .

ويلزم ـ لنجاح التشبيه في تحقيق هذا الفرض ـ أن يكون المشبه به مشتهراً بوجه الشبه؛ لأن الباعث على التشبيه إنما هو تعريف المخاطب بحالة المشبه المجهولة له ، فلو لم تكن حالة المشبه به معروفة لديه من قبل ، لزم تعريف المجهول بالمجهول ، وكنا كمن يسكب الحليب في ماعون مثقوب .

٢- بيان مقدار حال المشبه .

مثل : الفتاة جميلة كالقمر . هنا نعرف حال المشبه قبل عقد التشبيه ، وأنه جميل . لكن إلى أى حد هو جميل ؟ لا ندرى ، ويأتى التشبيه فيفيد أن الفتاة غاية فى الجمال .

وبلغة المحكمين نقول : إن التشبيه قد أعطى للمشبه درجة عالية بينت مقدار جماله .

ويقول الشاعر :

إذا قامــــت لحاجتهـــا تثنــت | كأن عظامها من خيــــزران

أفادت (تثنت) الوصف المشترك بين المشبه والمشبه به وهو الليونة لكن بقى أن نعرف مقدار هذه الليونة ودرجتها ، وقد أسعفنا التشبيه بذلك .

وكالبيت السابق هذا البيت :

فيــها اثنتــان وأربعــون حلوبة | سوداً كخافية الغراب الأسحم (١)

٣- بيان إمكان المشبه :

ونحيل فى توضيح هذا الغرض على ما سبق فى التشبيه الضمنى ، ومن أمثلته فوق ما هناك قول المتنبى :

من يهــن يسهــل الهــوان عليه | مالجــــرح بميـــت إيـــلام

---

(١) الخافية : ريش فى الطائر يختفى إذا ضم جناحيه ، والأسحم : شديد السواد .

وقول أبى فراس :

سيذكرني قومى إذا جد جدهم   وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

وقول البحترى :

دان إلى أيدى العفـــاة وشاسع   عن كل ند فى الندى وضريب

كالبدر أفرط فى العلو وضـوءه   للعصبة السارين جـــد قريب

٤ - **تقرير حال المشبه** وتمكينها فى نفس متلقى الأدب سامعاً كان أو قارئاً :

ويظهر ذلك بوضوح حين نشبه أمراً معنوياً بأمر حسى مثل أن نشبه من لا يجنى ثمرة من عمله بمن يكتب على الماء أو فى الهواء ، وكأن نشبه التعليم فى الصغر بالنقش على الحجر ، ومن ذلك قول الشاعر :

إن القـــلوب إذا تنافـــر ودهـــا   مثل الزجاجة كسرها لا يشعب

إذ نجد فيه من تقرير المعنى وتثبيته فى النفس مالا نجده فيما لو شبهنا تنافر القلوب ـ وهو أمر معنوى ـ بأمر معنوى آخر ، كأن نقول :

إن تنافر القلوب كتنافر العقول أو كالخصام بين أولى الأرحام ؛ فمن المقطوع به أن الجزم بالأمور الحسية أقوى من الجزم بالأمور المعنوية ، إذ المدرك بالحس أقوى من المدرك بالذهن ، وتتفاوت المحسوسات فى درجة وضوحها على حسب التفرد أو التعدد فى الحواس المدركة بها : فالمدرك بحاستين أقوى وأوضح من المدرك بحاسة واحدة ، والمدرك بثلاث حواس أقوى وأوضح من المدرك بحاستين ، وهكذا ، وعلى هذا جاء قول أبى نواس :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر

ولا تسقـــنى ســـرا إذا أمكـــن الجهـــر

قالوا : قصد ـ إمعاناً منه فى التلذذ بالخمر ـ إلى أن يحسها بذوقه وشمه ولمسه وبصره ، وأخيراً بسمعه .

٥ - **تزيين المشبه وتحسينه** ، لتقتنع به العقول ، ولتعتنقه القلوب ، أو على الأقل ترضى عنه وتقبله .

ويتحقق ذلك إذا شبهنا شيئاً لا نرتاح إليه ، ولا نستشعر القبول له بشئ محبوب لنا

ومرضى عنه منا ، إننا فى هذه الحالة سنلحق ماليس بحسن ولا محبوب بما استقر فى النفوس حسنه وحبه .

والمحصلة أن مستقبل الأدب سيتلقى المشبه بالترحاب الذى هو دأبه مع المشبه به ؛ لما هو مركوز فى الطباع من أن المتماثلين حكمهما واحد .

قال الشاعر :

سـوداء واضحـة الجبيـن كمقلـة الظبـى الغريـر

فالوجه الأسود مما لا يستحسن عادة وبخاصة فى النساء ، ولأجل الترغيب فيه شبهه بشئ مستحسن ومحبوب هو مقلة الظبى الحسن الشكل .

وقال الشاعر :

تفاريق شيب فى الشباب لوامع

وما حسن ليل ليس فيه نجوم

شبه الشاعر ـ تشبيهاً ضمنياً ـ الشعر الأبيض بين الشعر الأسود بالنجوم تتألق فى الليل البهيم ، والغرض من التشبيه إنما هو تزيين الشيب فى العيون وتقريبه من العقول والقلوب .

ونحن نوظف التشبيه فى هذا الغرض حين نشبه صوت مغن ناشئ بصوت مغن مشهور ، وحين نشبه أمنا من خطبتها هى لنا بأختنا الحلوة .

ومن هذا الغرض قول أبى الحسن الأنبارى فى مصلوب :

مددت يديك نحوهم احتفاء كمدهما إليهم بالصلات

ومنه ـ إلى حد ما ـ هذا البيت:

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهي شم الرياحين

٦- تقبيح المشبه بإلحاقه بمشبه به قبيح ومكروه :

ونحن ضامنون أن المشبه به سيعدى المشبه بدمامته وكراهيته ، فتتقزز منه النفس ويمجه حبق تقريره وهو مركوز فى الطباع من أن المتماثلين حكمهما واحد

ونمثل لهذا الغرض بهذا البيت الذى اشتمل على تشبيه شئ واحد بشيئين اثنين :

وإذا أشــار محدثــاً فكأنــه　　　قـرد يقهقـه أو عجـوز تلطـم

ويقول الشاعر مقبحاً زوجته :

وتفتح – لا كانت – فماً لو رأيته　　　توهمتــه بابا من الشــر يفـتح

وبهذا البيت مع التحفظ فيه بما سبق في نظيره :

إن النســاء شيـاطين خلقــن لنـا　　　نعـوذ باللـه من شر الشـياطين

* * *

تلك كانت أغراض التشبيه ، ومازاد على ذلك مما قالوا : إن الغرض من التشبيه فيه يعود على المشبه به وهو التشبيه المقلوب فخطأ واضح ؛ لأن مرسل الأدب ومستقبله كليهما لم يغب عن بالهما أن المشبه به فى الحقيقة إنما هو المشبه ، عدل به عن مكانه إلى مكان المشبه به تجوزاً وصورة ، لا حقيقة ؛ خدمة له ، ومبالغة فى جعله أجمل وأكمل ، لا من المشبه به ، بل فى ذاته ونفسه ، وفى ذلك اعتراف ضمنى بتفوق المشبه به الحقيقى على المشبه فى وجه الشبه ، وبأن المستفيد من التشبيه إنما هو المشبه دائماً ، أى مهما تقلبت الأوضاع به واختلفت طرائق التعبير عنه .

* * *

وشئ آخر هو أن بعض البلاغيين قد جعلوا من أغراض التشبيه استطراف المشبه أى جعله طريفاً بإبرازه فى صورة ممتنعة الحصول فى الخارج أو نادرة الحضور فى الذهن .

وضربوا للأول مثلا ، تشبيه فحم سرت فيه النار ببحر من المسك موجه الذهب . وهو تشبيه سخيف ولو أنه صحيح .

أما الثانى ، فقد مثلوا له بقول عدى بن الرقاع واصفاً قرن الغزال :

تزجى أغـن كأن إبرة روقه　　　قلم أصاب من الدواة مدادها

ويقول آخر يصف أزهار البنفسج على سيقانها :

ولا زوردية تزهــو بزرقتهــا　　　بين الرياض على حمر اليواقيت

كأنها فوق قامات ضعفن بها　　　أوائل النار فى أطراف كبريت

ويقول الله تعالى مشبهاً الهلال بسباطة البلح اليابسة المتقوسة :

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ .

والحق أن الطرافة الموجودة فى هذه التشبيهات وأمثالها ليست غرضاً من أغراض التشبيه ، بل هى وصف له ، وهو وصف يطول أى تشبيه فى أى غرض ، وذلك إذا كان طريفاً حقاً .

الحقيقة والمجاز

الحقيقة والمجاز وصفان يتعاقبان على الكلمة والجملة .

فالمستعمل منهما طبق معناه فى المعجم يسمى حقيقة لغوية .

والمستعمل منهما خلاف معناه فى المعجم يسمى مجازاً لغوياً .

ولابد فى المجاز اللغوى من وجود علاقة بين المعنى الأصلى والمعنى الفرعى أى بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ، وهذه العلاقة قد تكون المشابهة وقد تكون غير المشابهة ، فإن كانت العلاقة المشابهة فالمجاز استعارة تصريحية أو مكنية فى المفرد ، وتمثيلية فى المركب ،

وإن كانت العلاقة غير المشابهة فالمجاز مجاز مرسل وعلاقاته متنوعة .

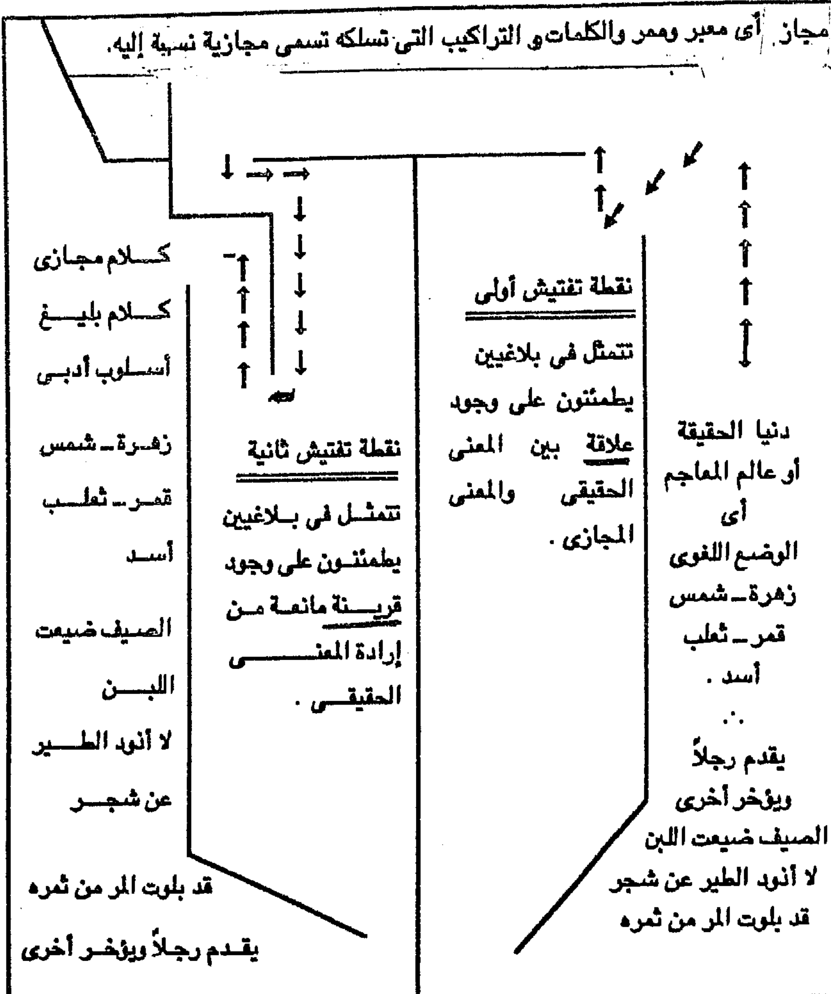
وأيضاً لابد فى المجاز اللغوى من وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى . وهذه القرينة قد تكون لفظية ، وقد تكون عقلية تفهم من السياق العام للكلام أو من ملابساته الخارجية .

هذا كان المجاز اللغوى أى الذى يجرى فى اللغة ، ويمكن تعريفه بأنه استعمال الكلمة أو الجملة فى غير معناها الحقيقى لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى .

وللمجاز اللغوى قسيم هو المجاز العقلى وهو إسناد الفعل أو ما فى معناه من المشتقات إلى ما ليس حقه أن يسند إليه لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقى .

والسبب فى تسميته بالمجاز العقلى أنه يتم فى الإسناد لا فى اللغة ، ولما كان الإسناد يدرك بالعقل لا الوضع سمى مجازه مجازاً عقلياً .

أما المجاز اللغوى فالمعول عليه فى إدراكه إنما هو العلم بالوضع اللغوى ، والوقوف على الدلالات الحقيقية للكلمات والجمل .


مجاز. أى معبر وممر والكلمات و التراكيب التى تسلكه تسمى مجازية نسبة إليه.
نقطة تفتيش أولى
تتمثل فى بلاغيين يطمئنون على وجود علاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى .
دنيا الحقيقة أو عالم المعاجم أى الوضع اللغوى
زهرة ـ شمس
قمر ـ ثعلب
أسد .
∴
يقدم رجلاً ويؤخر أخرى
الصيف ضيعت اللبن
لا أنود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره
نقطة تفتيش ثانية
تتمثل فى بلاغيين يطمئنون على وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى .
كلام مجازى
كلام بليغ
أسلوب أدبى
زهرة ـ شمس
قمر ـ ثعلب
أسد
الصيف ضيعت اللبن
لا أنود الطير عن شجر
قد بلوت المر من ثمره
يقدم رجلاً ويؤخر أخرى

الاستعارة التصريحية

الاستعارة التصريحية ضرب من المجاز اللغوى .

وهى كلمة أو جملة لم نستعملها فى معناها الحقيقى ، بل فى معنى مجازى لعلاقة هى المشابهة بين المعنيين الحقيقى والمجازى ، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى .

تقول : قابلنى صديقى خالد ومعه زهرة من زهرات المجتمع .

فـ (زهرة) استعارة تصريحية . وأصل الكلام تشبيه بليغ هو (خطيبة خالد زهرة) ، طورناه فحذفنا منه طرفه الأول وهو المشبه (خطيبة خالد) وصرحنا فى مكانه بالمشبه به وهو (زهرة) ، ثم شفعناه بما يدل على قصدنا منه أى بالقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقى (الزهرة) وهذه القرينة هى (من زهرات المجتمع) .

وليس بلازم أن تكون القرينة لفظية كما فى المثال السابق ، بل قد تكون عقلية تفهم من سياق الكلام أو من دلائل الأحوال .

فكلمة (البدر) فى النشيد المدنى :

(طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع)

استعارة تصريحية قرينتها عقلية أو كما يقول البلاغيون حالية .

* * *

والاستعارة التمثيلية ضرب من الاستعارة التصريحية ؛ ففيها نصرح بالمشبه به المذكور فى مكان المشبه ، ولا فرق بين الاستعارتين : (التصريحية والتمثيلية) إلا أن واحدة منهما تجرى فى المفرد والأخرى تجرى فى المركب .

نقول للقائد العائد منتصراً : (عاد السيف إلى جرابه) .

ونقول للطالب الذى أجهد نفسه فى المذاكرة قبيل الامتحان حتى اعتل ولم يمتحن :

« إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » .

وتنتهى المحاضرة ؛ لانتهاء وقتها وابتداء وقت غيرها فأقول :

« وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح »

وقديماً قال المتنبى لعائب شعره :

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض يجـــــد مراً به الماء الزلالا

ولما كانت الاستعارة التمثيلية تجرى أكثر ما تجرى فى الأمثال وبالأمثال ، لزم التنبيه على أن لكل مثل مورداً ومضرباً .

فمورد المثل هو أصله التاريخى أو الخرافى .

الأول مثل : « قطعت جهيزة قول كل خطيب » .

والثانى مثل : « كيف أعاودك وهذا أثر فأسك » .

أما مضرب المثل فهو ما نستعمله نحن فيه ونسوقه له .

وتطبيقاً على ما سبق نسوق هذا المثل : « أحشفاً وسوء كيلة » ؟!! مورده وهو أصله التاريخى أن رجلاً اشترى من آخر تمراً ، ولما عاد به إلى بيته ألفاه حشفاً وناقص الكيل ، فقال ما قال متعجباً وغاضباً وربما معاتباً .

ونوظف نحن مثله فنتمثل به أى نضربه لكل من يُظلم من وجهين سواء كان الظلم مادياً أو معنوياً ، وسواء كان المظلوم رجلاً أو امرأة .

والعملية البلاغية تتلخص فى أننا شبهنا حالة المظلوم من وجهين بحالة الرجل الذى اشترى تمراً فوجده حشفاً ناقص الكيل ، ووجه الشبه بين الطرفين هو هيئة التأثر الشديد بالظلم المزدوج ، ثم حذفنا التركيب الدال على المشبه وصرحنا فى مكانه بالتركيب الدال على المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية ، والقرينة حالية .

ولا تكون قرينة التمثيلية إلا حالية .

لماذا ؟

لأن الأمثال لا تُغير ، وبعبارة أخرى لأن نواتها مصونة لا تمس ، ولا نملك إزاءها إلا أن نقولها كما وصلت إلينا دون زيادة أو نقص ، بل دون أدنى تغيير أو تحوير فى النص .

وسر بلاغة الاستعارة التصريحية فى المفرد وفى المركب شدة الإيجاز وشدة المبالغة ، مع ما فى التمثيلية من حيوية التعبير بتوظيف التاريخ ، وبث شئ من التراث فى الأدب الحديث .

الاستعارة المكنية
أو
الاستعارة بالكناية

تسميتان لمسمى واحد .

وهى أن تحذف المشبه به بعد أن تستبقى شيئاً من لوازمه تكنى عنه به ثم تسنده إلى المشبه المذكور فى الكلام .

تقول : نستيقظ فى الصباح على زئير الأب ، فتكون قد شبهت الأب بالأسد ثم حذفت المشبه به وهو الأسد ، لكن بعد أن أخذت الزئير وهو من خواصه فكنيت عنه به ثم أسندته إلى المشبه وهو الأب .

وقال أبو ذؤيب الهذلى :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

معنى البيت : إذا جاء الأجل تعطلت الحيل ، والصورة البيانية استعارة مكنية ، فقد شبه الشاعر المنية بالحيوان المفترس ، ثم حذف المشبه به وهو الحيوان المفترس ، لكن بعد أن استبقى وسيلته فى الفتك وهى الأظفار التى أثبتها للمشبه المنصوص عليه فى البيت وهو المنية .

وقالت حمدونة الأندلسية تصف وادياً :

نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم

فى الشطرة الأولى شبهت حمدونة الأشجار بالأمهات ، ثم حذفت المشبه به وهو الأمهات ، لكن بعد أن رمزت إليهن وكنّت عنهن بأبرز خواصهن وهو الحنو ؛ ثم نسبت هذا الحنو إلى المشبه وهو الدوح .

أما (حنوّ المرضعات على الفطيم) فصورة بيانية أخرى هى التشبيه البليغ .

وقال زهير بن أبى سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله

وعري أفراس الصبا ورواحله

يخبر زهير أنه ثاب إلى رشده وأقلع عن حبه لسلمى .

وقد شبه الصبا ـ وهو مرحلة من مراحل العمر تغلب عليها الرعونة والطيش ـ بجهة من جهات المسير ، ثم حذف الجهة لكن بعد أن كنى عنها بما تستلزمه من أفراس ورواحل ، ثم أثبت هذا اللازم للمشبه وهو الصبا .

وقال تعالى على لسان زكريا :

﴿ ربِّ إنى وهن العظم منِّى واشتعل الرأس شيبا ﴾ .

شبه زكريا رأسه بالحطب ، ثم حذف المشبه به وهو الحطب ، بعد أن كنى عنه بأهم لوازمه وهو الاشتعال الذى أسنده إلى المشبه وهو الرأس .

قرينة المكنية استعارة تخييلية

تتحقق القرينة فى الاستعارة المكنية بإثبات لازم المشبه به المحذوف من الكلام للمشبه المذكور فى الكلام .

كإثبات الزئير للأب فى مثالنا .

وإثبات الأظفار للمنية فى بيت أبى ذؤيب .

وإثبات الحنو للدوح فى بيت حمدونة .

وإثبات الأفراس والرواحل للصبا فى بيت زهير .

وإثبات الاشتعال للرأس فى الآية الكريمة .

وهذا الإثبات يسميه البلاغيون (الاستعارة التخييلية) .

والبلاغيون محقون فى هذه التسمية .

أما أنه استعارة ، فلأن اللازم وهو الأمر المختص بالمشبه به المحذوف ، قد استعير للمشبه المذكور ، ودخل فى حوزته حتى كأنه له جبلة وخلقة .

ولما كان الأمر على خلاف ذلك حقيقة ، كان إسناده إلى المشبه من قبيل التخييل ، ووُصفت الاستعارة ـ لهذا ـ بأنها تخييلية .

وواقع الحال فى الاستعارة التخييلية يؤكد ما قلناه ويعمقه ؛ ذلك أن طرفيها مستعملان فيما وضعا له حقيقة :

فالأب والزئير فى المثال الأول .

والمنية والأظفار فى المثال الثانى .

والدوح والحنوّ فى المثال الثالث .

والصبا ، والأفراس والرواحل فى المثال الرابع .

والرأس والاشتعال فى المثال الخامس .

كلها مستعملة استعمالاً حقيقياً ، أما المجازى ، فهو إثبات بعضها لبعض ، إنه بكل تأكيد إثبات الشئ لما ليس له حقيقة ، هو أقرب إلى المجاز العقلى إذن .

وبناءً على ما سبق تكون قرينة الاستعارة المكنية استعارة تخييلية دائماً ، وبوسعنا أن نقول : إنهما متلازمتان ، فكما أن التخييلية لا توجد بدون المكنية ، لا تكون قرينة المكنية إلا تخييلية .

* * *

وسر بلاغة الاستعارة المكنية ما فيها من تشخيص وهبة حياة ، ذلك أن كمية الخيال فيها أكبر من كميته فى الاستعارة التصريحية ، من حيث إن المكنية صورة خيالية أصلية ملحقة بها صورة خيالية فرعية هى قرينتها التخييلية .

ويمكن القول لهذا بأن الخيال فى الاستعارة المكنية مركب ، أما فى الاستعارة التصريحية فبسيط ؛ هذه واحدة .

والأخرى أن الاستعارة المكنية فيها الكناية عن المشبه به المحذوف بما استبقيناه منه دلالةً عليه ؛ وهذا يعنى أنه قد اجتمع لنا فى صورة بيانية واحدة هى الاستعارة المكنية مجاز وكناية معاً .

وإذا كان جمهور البلاغيين يقررون أن الانتقال فى المجاز من اللازم إلى الملزوم ، وفى الكناية من الملزوم إلى اللازم ، فإن الأمرين هنا يكونان قد اجتمعا ، واجتماعهما مع اختلافهما طبيعةً وطريقةً يكسب النسيج الأدبى المكون منهما جمالاً وقوة ، لأنهما يكونان فيه كاللحمة والسدى ، أو كسلوك الطريق الواحد مرتين ذهاباً وجيئة .

وإذا كانت الاستعارة المكنية تدل على اقتدار الأديب ، وعلى روعة إبداعه ، فإن على متلقى الأدب أن يكون يقظاً وهو يستقبلها ؛ ليقدر على مواكبة الأديب ، وعلى التحليق معه فى أجوائه العبقة بأريج الفنية .

الاستعارة الأصلية والاستعارة التبعية

تنقسم الاستعارة ـ باعتبار المشبه به ـ إلى أصلية وتبعية .

وتكون الاستعارة أصلية إذا جرت فى اسم جامد يصدق على كثيرين حقيقة كأسد وثعلب ، أو تأويلاً كحاتم وعنترة .

ويستوى أن يكون الاسم الذى جرت فيه الاستعارة اسم ذات كما سبق أو اسم معنى كالحياة والموت .

تقول : يحضر المحاضرات معنا أسد أو حاتم ، ولأساتذتنا علينا فضل إحيائنا .

* * *

وقد صدر البلاغيون فى تسمية هذه الاستعارة بالاستعارة الأصلية عن أن الأصل فى الأشياء يعنى الكثير الغالب منها ؛ ومن المسلم به أن الاستعارة الأصلية أكثر من الاستعارة التبعية .

أو عن الأصل الذى يذكر فى مقابله الفرع ، وهذا حق ، فالاستعارة التبعية فرع عن الأصلية وتبع لها ، وسيأتى تفصيل ذلك .

* * *

أما الاستعارة التبعية فهى ما جرت فى اسم مشتق أو فى فعل أو فى حرف .

مثالها فى اسم مشتق وهو اسم فاعل : عملك ناطق بفضلك .

فـ (ناطق) استعارة تصريحية فى المشتق .

شبهنا (دلالة العمل على الفضل) بـ (دلالة النطق عليه) .

واستعرنا الثانى للأول ثم اشتققنا من النطق بمعنى الدلالة (ناطق) بمعنى (دال) .

ومثالها فى اسم مشتق وهو أفعل تفضيل قول الشاعر :

ولئن نطقت بشكر برك مفصحاً   فلسان حالى بالشكاية أنطق

شبه الشاعر (دلالة الحال) بـ (النطق) واستعار النطق لدلالة الحال ثم اشتق من النطق بمعنى الدلالة (أنطق) بمعنى (أدل) استعارة تصريحية تبعية فى المشتق .

* * *

ومثالها فى اسم مشتق وهو اسم مكان قول الله تعالى : ﴿ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ فالمرقد هنا هو القبر لاموضع رقاد النائم ، شبه الدفن بالرقاد ؛ واستعير الرقاد للدفن ، ثم اشتق من الرقاد بمعنى الدفن (مرقد) بمعنى (مدفن) أى مكان الدفن وهو القبر ، استعارة تصريحية تبعية فى المشتق .

* * *

والاستعارة التبعية فى الفعل تختلف فيما بينها ، لأنها إما أن تكون فى مادة الفعل الدالة على معناه ، وإما أن تكون فى صيغته الدالة على زمانه .

مثالها فى مادة الفعل قول الله تعالى : ﴿ يحيى الأرض بعد موتها ﴾ .

فالإحياء بمعنى بث الروح فى الجسد لا يناسب الأرض ، لكن يناسبها اهتزازها بالأشجار والزهور والثمار ، شبه ـ جل شأنه ـ إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، واستعار الإحياء لإخراج النبات ، ثم اشتق من الإحياء بمعنى إخراج النبات (يحيى) بمعنى (يخرج النبات) استعارة تصريحية تبعية فى مادة الفعل .

ومثالها فى صيغة الفعل قول الله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ .

أمر الله لم يأت بدليل « فلا تستعجلوه » فلماذا قال الله تعالى (أتى) بصيغة الماضى ولم يقل « يأتى أو سوف يأتى » ؟

الجواب أن فى الكلام استعارة تصريحية تبعية هى :

شبه الله الإتيان فى المستقبل بالإتيان فى الماضى ، ووجه الشبه بينهما هو تحقق وقوعهما ، وأن ما سيأتى فى التأكد من وقوعه كأنه أتى فعلا ، ثم استعار الإتيان فى الماضى للإتيان فى المستقبل ، واشتق من الإتيان فى الماضى بمعنى الإتيان فى المستقبل (أتى) بمعنى (يأتى) .

وكما استعملت صيغة الماضى للمضارع ؛ استعملت صيغة المضارع للماضى قال تعالى على لسان إبراهيم مخاطباً ولده إسماعيل عليهما السلام : ﴿ يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك ﴾ .

فرؤية إبراهيم قد حصلت له قبل أن يخبر بها ولده ، وكان المنتظر أن يقول ، (إنى رأيت) لكنه استبدل (أرى) بـ (رأيت) على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية هكذا :

شبه الرؤية فى الماضى بالرؤية فى الحاضر ، إشارة إلى أن ما رآه ـ وهو بالنسبة للأب أمر صعب ـ لا يزال ماثلاً له كأنه لم يفارقه ، ثم استعار الرؤية فى الحاضر للرؤية فى الماضى ؛ واشتق من الرؤية الحاضرة بمعنى الرؤية الماضية (أرى) بمعنى (رأيت) .

أما الإستعارة التبعية فى الحرف :

فمن أمثلتها قول الله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ﴾ .

وبيانها أن لام العلة فى الآية مستعملة استعمالاً مجازيا ، لأن ما بعدها ، وإن كان مترتباً على ما قبلها ، ليس العلة الباعثة عليه ، فآل فرعون لم يلتقطوا موسى ليكون لهم عدواً وحزنا، بل ليكون مصدر أنس وسعادة لهم. وتسجيلاً لهذه المفارقات شبه الله السعادة والأنس بالعداوة والحزن بجامع التضاد بين الطرفين تملحا وتهكما، أو بجامع الترتب على الالتقاط فى الطرفين، مطلق ترتب شئ على شئ؛ وقد سرى هذا التشبيه إلى تشبيه ترتب السعادة والأنس على الالتقاط بترتب العداوة والحزن عليه، ثم استعار اللام الدالة- حقيقة- على ترتب الأنس والسعادة على الالتقاط.

فاللام : استعارها لتدل ـ مجازاً هذه المرة ـ على ترتب الحزن والعداوة عليه ، استعارة تصريحية تبعية فى الحرف .

* * *

وكالآية السابقة قول الله تعالى : ﴿ لأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾ ، فالحرف (فى) موضوع لتلبس الظرف بالمظروف الحقيقيين ، وهذا يعنى أنه مستعمل فى الآية استعمالاً مجازياً ، لأن ما بعده لا يصلح ظرفاً لما قبله على الحقيقة ، لكن لما كانت الجذوع ، متمكنة من المصلوبين تمكن الظرف من المظروف ، شبهت الجذوع بالظرف الحقيقى فى هذا التمكن ثم استعير لها الحرف (فى) .

استعارة تصريحية تبعية فى الحرف

وقد سميت الاستعارة التى تجرى فى المشتق أو فى الفعل أو فى الحرف استعارة تبعية ، لأن الأديب لم يمارسها ابتداء ، ولم يقصد إليها رأساً ، بل مارسها انتهاء ، وكان وصوله إليها من خلال استعارة أخرى سبقتها هى الاستعارة التصريحية الأصلية .

ونوضح ذلك أكثر فنقول :

الاستعارة التبعية إن كانت فى المشتق أو فى الفعل ، يتم التشبيه فى المصدر أولا ، ثم ينقل المصدر إلى غير معناه الحقيقى ثانياً ، وبعد ذلك يشتق منه ما تمت الاستعارة فيه من وصف أو فعل ؛ وبهذا تكون الاستعارة فيهما تابعة للاستعارة فى المصدر .

وإن كانت الاستعارة التبعية فى الحرف ، فإن البلاغيين قد اختلفو فى تحليلها وتعليلها على الوجه الآتى :

(١) منهم من يجعل التشبيه فى المجرور بالحرف أصلا ، وفى معنى الحرف فرعاً ، وهو ما يسمونه التشبيه بالسراية ، ثم ينقل الحرف إلى المعنى المراد .

ففى المثال (محمد فى نعمة) نقول :

شبهوا النعمة على محمد بدار فيها محمد ، وقد جر التشبيه الأصلى إلى تشبيه فرعى ـ أو كما يقولون سرى إليه ـ هو تشبيه الحرف (على) بالحرف (فى) .

ثم استعاروا الحرف (فى) للحرف (على) وبدلاً من أن يقولوا (محمد منعم عليه) قالوا : (محمد فى نعمة) .

وبناءً على هذا الرأى تكون الاستعارة التبعية فى الحرف تابعة لتشبيه هو تشبيه السراية ، وليست تابعة لاستعارة أصلية .

(٢) ومنهم من يجعل التشبيه الأصلى فى متعلق معنى الحرف لافى المجرور بالحرف ، ويحلل أية ﴿ فالتقطه آل فرعون ﴾ هكذا .

شبه الله تعالى مطلق ترتب علة غائية كالمحبة والسرور على الالتقاط، بمطلق ترتب علة واقعية كالعداوة والحزن على الالتقاط بجامع ترتب شئ على شئ. وقد سرى التشبيه من هذين الكليين إلى جزئياتهما

وانطلاقاً من التشبيه الحاصل ،السراية استعيرت اللام الموضوعة لجزء من أجزاء المشبه به هو ترتب العداوة والحزن المتعلقين بموسى على التقاطه، لجزء من أجزاء المشبه هو ترتب المحبة والسرور المتعلقين بموسى على التقاطه. استعارة تصريحية تبعية فى الحرف.

والاستعارة التبعية هنا مازالت ـ كما كانت فى الرأى السابق ـ تابعة لتشبيه السراية وليست تابعة لاستعارة أصلية .

(٣) وفريق ثالث يجعل التشبيه فى متعلق معنى الحرف كسابقه ، ولكنه يزيد على سابقه باستعارة المشبه به الكلي للمشبه الكلي ، ثم يستغل التشبيه فى الأجزاء عن طريق السراية، فينقل الحرف المستعار من كلي المشبه به إلى كلى المشبه ، ففى آية الالتقاط لا أكثر من أن يقال بعد تقدير التشبيه فى الكليين :

ثم استعير اسم المشبه به الكلى للمشبه الكلى .

وبهذا تكون الاستعارة في الحرف هذه المرة تابعة للاستعارة الأصلية فى كلى المشبه به وهى الاستعارة التى سبقت تشبيه السراية فى الجزئيات (١) .

* * *

والرأى عندى أن الاستعارة التبعية ولاسيما الاستعارة فى الحرف ، لا تستحق كل هذا الدوران واللف .

فالحس الأدبى لمتلقى الأدب يدرك وحده ، وبعيداً عن هذه الأكاديمية المعقدة ، ما أراد مبدع الأدب أن يقوله بدقائقه ولطائفه ، بل بدوافعه التى هدت إليه وجلبته .

أما مرسل الأدب فلا شك فى أنه لم يتكلم أولاً بالمصدر ولا بمتعلق معنى الحرف ولم يقصد إلى استعارة شئ منهما أصلاً ليبنى عليه استعارة شئ آخر تبعاً ، ولعله لم يحس بما قاله البلاغيون من سريان التشبيه من الكليات إلى الجزئيات إلى آخر ما هنالك من تقديرات وتحليلات ، لا تمت إلى البلاغة الاصطلاحية ولا إلى البلاغة بمعنى الكلام البليغ بأية صلة .

* * *

ومهما يكن من أمر الاستعارة التبعية تفسيراً وشرحاً ، فقد لاحظت أنها ـ من حيث وجودها أو عدمها ـ أطوع للبليغ فى الاستعارة التصريحية الجارية فى المفرد منها فى الاستعارة المكنية ؛ وهذا معقول .

---

(١) الإيضاح جـ ٥ ص ١٠٨ – ١١٠ شرح وتعليق خفاجى ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠م ، والمنهاج الواضح لحامد عونى جـ ١ ص ٢٦٠ ط ٢ سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م القاهرة .

فهى تأتى بالتصرف فى المشبه به المصرح به فى الكلام فى الاستعارة التصريحية وهو محذوف فى الاستعارة المكنية .

وفى حدود اطلاعى لم أجد من القدماء من أثار هذه المسألة ، ومن المحدثين : رأى المرحومان على الجارم ومصطفى أمين أن التبعية تأتى فى المكنية كما تأتى فى التصريحية قالا فى الهامش رقم (١) ص ٨٤ من « البلاغة الواضحة » :

« وتقسيم الاستعارة إلى أصلية وتبعية عام فى الاستعارة سواء أكانت تصريحية أم مكنية ، ومثال الاستعارة المكنية التبعية (أعجبتنى إراقة الضارب دم الباغى) .

فقد شبه الضرب الشديد بالقتل بجامع الإيذاء فى كل ، واستعير القتل للضرب الشديد ، واشتق منه قاتل بمعنى ضارب ضرباً شديداً ، ثم حذف ورمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الإراقة على طريق الاستعارة المكنية التبعية » (١) .

* * *

ونلاحظ أن ما مثل به المؤلفان الفاضلان للاستعارة المكنية التبعية لم يزد على مثال واحد ، وقد جاء على هامش الموضوع لا فى صلبه ، ومع هذا فهو ـ كما نرى ـ بادى الاصطناع والتكلف ، ونضيف أن السكاكي نفسه غير مرتاح إلى الاستعارة التبعية فى التصريحية .

فهو بعد أن يوردها ويمثل لها ، يقترح إلغاءها وتحويل أمثلتها إلى الاستعارة المكنية ويزيد فيخرِّجها على أنها استعارات مكنية ؛ وهذا هو نص كلامه فى ختام ما جعل عنوانه :

(القسم السادس فى الاستعارة التبعية) : « واعلم أن مدار قرينة الاستعارة التبعية فى الأفعال وما يتصل بها على نسبتها إلى الفاعل كقولك (نطقت الحال) ، أو إلى المفعول الأول كقول ابن المعتز : (قتل البخل وأحيا السماحا) أو إلى الثانى المنصوب كقول الآخر : (نقريهم لهذميات) ، أو إلى المجرور كقوله علت كلمته : (فبشرهم بعذاب أليم) ، أو إلى الجميع كقوله :

تقرى الرياح رياض الحزن مزهرة
إذا سرى النوم فى الأجفان إيقاظا

---

(١) الطبعة السابعة . دار المعارف بمصر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ .

هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب فى هذا الفصل .

ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التبعية من قسم الاستعارة بالكناية ، بأن قلبوا فجعلوا فى قولهم : نطقت الحال بكذا ، الحال التى ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح ، استعارة بالكناية عن المتكلم بوساطة المبالغة فى التشبيه على مقتضى المقام ، وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة ، كما تراهم فى قوله (وإذا المنية أنشبت أظفارها) يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع ويجعلون الأظفار لها قرينة الاستعارة .

وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حى أبطلت حياته بسيف أو غير سيف فالتحق بالعدم ، وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة ، ولو جعلوا أيضاً اللهذميات استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهية على سبيل التهكم وجعلوا نسبة لفظ القرى إليها قرينة الاستعارة ، لكان أقرب إلى الضبط فتدبره » .

وفى مكان آخر قال : « وإذ قد عرفنا الحقيقة فى المفرد وفى الجملة ، وعرفنا تنوع المجاز إلى استعارة مصرح بها ومكنى عنها ، وعرفنا ما يتصل بذلك من التحقيقية والتخييلية والقطعية والاحتمالية ، ومن الأصلية والتبعية على رأى الأصحاب دون رأينا » (١) .

فإذا كان السكاكى أبو البلاغة الاصطلاحية لا يريد أن يثقل كاهلها بما جعله غيره استعارة تبعية ، وجعل أمثلتها كلها من المكنية ، فما بالنا نشق على أنفسنا وعلى بلاغتنا بتمحل التبعية فى المكنية أو من المكنية ، وهى غير متصورة فيها ولا منها نظرياً مثلما هى غير واردة فيها ولا منها عملياً ؟ !

ولقد وقف الشيخ ناصيف اليازجى اللبنانى موقفاً وسطاً بين السكاكى ومن كان السكاكى يسميهم الأصحاب قال : « اعلم أن بعض أمثلة الاستعارة التبعية يمكن اعتبارها استعارة بالكناية ، ومثل لذلك بواحد من أمثلة السكاكى هو : (نطقت الحال بكذا) (٢) .

وموقف اليازجى هو موقف الجارم ومصطفى أمين في هذه القضية ، فهما بعد أن مثلا للتبعية بمثالين وحللاهما على أنهما من الاستعارة التبعية ، عادا فحللاهما على أنهما من الاستعارة المكنية ـ مثلما فعل السكاكى ـ وخلصا إلى أن كل استعارة تبعية يصح أن يكون فى قرينتها استعارة مكنية ، غير أنه لا يجوز إجراء الاستعارة إلا فى واحدة منهما لا فى كلتيهما (٣) .

ولعل هذا أن يكون الحل الأمثل لهذه المسألة علمياً وعملياً .

(١) مفتاح العلوم ص ١٨١ ، ١٩٦ .

(٢) مجموع الأدب فى فنون العرب ص ١١٨ ط ١٢ بيروت سنة ١٩٤٨ م .

(٣) البلاغة الواضحة ص ٨٤ .

الاستعارات : المرشحة والمجردة والمطلقة

تقسم الاستعارة باعتبار ذكر الملائم لأحد طرفيها أو لكليهما إلى هذه الأقسام الثلاثة :

فالمرشحة : هى التى نأتى فيها مع القرينة بما يلائم المشبه به .

كقولك : قابلنى صديقى ومعه زهرة من زهرات المجتمع تملأ الأفق شذاً فـ (تملأ الأفق شذاً) يلائم المشبه به وهو الزهرة .

وكقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾. استعار سبحانه وتعالى الاشتراء للاختيار ، وقفاه بالربح والتجارة اللذين هما من متعلقات الاشتراء.

وكقول الشاعر :

ينازعنى ردائى عبد عمرو رويدك يا أخا عمرو بن بكر

لى الشطر الذى ملكت يمينى ودونك فاعتجر منه بشطر

استعار الرداء للسيف ، ثم وصف الرداء بما يلائمه من الاعتجار الذى هو لف الرأس برداء ونحوه .

والمجردة : هى التى نأتى فيها مع القرينة بما يلائم المشبه كقولك :

قابلنى صديقى ومعه زهرة من زهرات المجتمع تتحدث الإنجليزية بطلاقة فـ (تتحدث الإنجليزية بطلاقة) يلائم المشبه وهو الفتاة ولا يلائم المشبه به وهو الزهرة . وكقول كثير عزة:

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال [1]

استعار الرداء للمعروف ؛ لأنه يصون عرض صاحبه كما يصون الرداء ما يلقى عليه ، ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف لا الرداء .

وكقول البحترى :

يؤدون التحية من بعيد إلى أسد من الإيوان باد

---

(١) الغمر : الماء الكثير ، والمراد به هنا كثرة العطاء ، أما غلقت : فمن غلق الرهن فى يد المرتهن إذا لم يقدر الراهن على فكه لعجزه عن أداء الدين .

فـ (من الإيوان باد) تجريد ، لأنه مما يلائم المشبه وهو الإنسان الجميل .

أما الاستعارة المطلقة :

فهى مالم تقترن بشئ يلائم المشبه ، ولا بشئ يلائم المشبه به ، بل تقتصر على القرينة فتقول : قابلنى صديقى ومعه زهرة من زهرات المجتمع .

وكقوله تعالى ﴿ ينقضون عهد الله ﴾ .

* * *

ومن الاستعارة المطلقة ما جمعت بين ترشيح وتجريد معاً ؛ لأنهما باجتماعهما يتعارضان ويتعادلان .

قال الشاعر :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يضر ظواهر جلدى وهو للقلب جارح

فـ « فريشه » ترشيح ، لأنه من ملائمات المشبه به وهو السهم ، و (الكحل) تجريد ؛ لأنه من ملائمات المشبه وهو نظرة المرأة .

وكقول زهير بن أبى سلمى :

لدى أسد شاكى السلاح مقذف

له لبد أظفاره لم تقلم

فـ (شاكى السلاح) بمعنى تامه : تجريد ؛ لأنه من ملائمات المشبه وهو الرجل الشجاع ، و (له لبد) ترشيح ؛ لأنه من ملائمات المشبه به وهو الأسد ، أما (مقذف) فيحتمل الأمرين معاً ، لأنه يمكن أن يكون وصفاً حقيقياً الأسد ، ويمكن أن يكون كناية عن نفى الضعف عن الممدوح .

* * *

ويحسن التنبيه إلى أن الترشيح والتجريد إنما يكونان بعد استيفاء الاستعارة قرينتها لفظية كانت هذه القرينة أو حالية .

كما يحسن التنويه بأن عبد القاهر كان يسمى الترشيح تناسى التشبيه .

أما اصطلاح الترشيح فقد كان الزمخشرى أول من اهتدى إليه بقوله فى الكشاف ، ت نيباً على آية البقرة ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ﴾ : فإن قلت : هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً فى معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الربح والتجارة ، كأن ثم مبايعة على الحقيقة ؟ قلت :

هذا من الصنعة البديعية التى تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقفى بأشكال لها وأخوات ، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً وهو المجاز المرشح ، وذلك نحو قول العرب فى البليد : كأن أذنى قلبه خطلاوان ؛ جعلوه كالحمار ، ثم رشحوا ذلك ، روماً لتحقيق البلادة فادعوا لقلبه أذنين ، وادعوا لهما الخطل ـ وهو الاسترخاء ـ ليمثلوا البلادة تمثيلاً يلحقها ببلادة الحمار مشاهدة معاينة » [1].

وكذلك كان الزمخشرى هو الذى مهد لاصطلاح التجريد بكلام يدور حول معناه الاصطلاحى وإن لم يسمه باسمه كما فعل فى الترشيح [2] .

موازنة بين المرشحة والمجردة والمطلقة

الاستعارة أساسها التشبيه ، وهى ـ على وجه التحديد ـ تطوير للتشبيه البليغ بحذف أحد طرفيه إمعاناً من الأديب فى تناسى التشبيه ، ومبالغة منه فى ادعاء أن المشبه قد صار هو المشبه به ، وبناء عليه يكون الترشيح الذى هو ذكر ملائم المشبه به ، تقوية للاستعارة ، لأنه تصعيد لدعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، وكأنه ليس معنا تشبيه ولا استعارة بل حقيقة .

انظر إلى قول أبى تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول   بأن له حاجة فى السماء

إنه قد استعار الصعود الحسى لعلو المنزلة ، ثم لم يلبث أن نسى ذلك أو تناساه ، وها هو ذا يشنع على من يراه يصعد ويصعد فيظن أن له مأرباً فى السماء فلولا أن الصعود صعود حسى ما ظن الجهول هذا الظن .

ومثل بيت أبى تمام تماماً قول ابن الرومى فى مدح آل نوبخت ، وقد كانت لهم شهرة بالفلك والحكمة :

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ١٤٧ الطبعة الثانية ، طبعة المطبعة الأميرية ببولاق .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٧٧ .

إن صح علم النجوم كان لكم حقاً إذا ما سواكم انتحلا
كم عالم فيكم وليس بأن قاس ولكن بأن رقى فعلا
أعلاكم فى السماء مجدكم فلستم تجهلون ما جهلا
شافهتم البدر بالسؤال عن الـ أمر إلى أن بلغتم زحلا

ومثله تماماً أيضاً قول بشار :

أتتنى الشمس زائرة ولم تك تبرح الفلكا

وقول المتنبى :

كبرت حول ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

وقول ابن العميد :

قامت تظللنى من الشمس نفس أعز علىّ من نفسى
قامت تظللنى ومن عجب شمس تظللنى من الشمس

وقول ابن طباطبا :

لا تعجبوا من بلى غلالته قد زر أزراره على القمر

وقول أبى المطاع ذى القرنين بن ناصر الدولة الحمدانى :

ترى الثياب من الكتان يلمحها نور من البدر أحياناً فيبليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر فى كل وقت طالع فيها

فقد صنع هؤلاء الشعراء صنيع أبى تمام من تناسى التشبيه ، وإجراء الكلام على المشبه به الذى هو المستعار منه ، أما المشبه وهو المستعار له فقد نجحوا إلى حد كبير فى شغل متلقى الأدب عنه بنقلهم له من بؤرة الشعور إلى هامشه مؤقتاً .

ولما كان هذا هو أثر الترشيح كانت الاستعارة المرشحة هى الاستعارة الراجحة فى ميزان المفاضلة بينها وبين المطلقة والمجردة .

تليها الاستعارة المطلقة ؛ لأنها وإن خلت مما يلائم المشبه به ، قد خلت كذلك مما يلائم المشبه ، أى أنها تقع فى المنطقة الوسطى بين الترشيح والتجريد .

* * *

أما الاستعارة المجردة فتأتى ساقة للمرشحة والمطلقة · لأنها قد خلت مما يلائم المشبه به، وليس هذا فقط ، بل إنها بالإضافة إلى ذلك قد اشتملت على ما يلائم المشبه

* * *

والخلاصة أن المرشحة تمثل الإفراط فى المبالغة ، وأن المجردة تمثل التفريط فيها .

أما المطلقة فتمثل الحد الوسط بين الإفراط فى المبالغة ، والتفريط فيها ، أى بين المرشحة والمجردة .

* * *

ولا يفوتنا التنبيه على أن الاستعارة التصريحية التى يتأتى معها الترشيح والتجريد إنما هى الاستعارة التى تجرى فى المفرد

أما الاستعارة التصريحية التى تجرى فى المركب ، وهى ما تفرد بالدراسة فى كتب البلاغة تحت اسم الاستعارة التمثيلية ، فقد سبق القول بأن قرينتها لا تكون إلا حالية ، وهذا يعنى أنها لا تكون إلا مطلقة ؛ لأنها إما مثل ، وإما تركيب مجلوب جرى مجرى المثل ، ومعلوم أن الأمثال لا تغير ، فلا يغير ما جرى مجراها ولحق بها .

قال الخطيب القزوينى وهو يتكلم عن الاستعارة التمثيلية « فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه »[1] أى من غير تغيير أى تغيير وبلا زيادة أو نقص .

* * *

وتقف الاستعارة المكنية على قدم المساواة مع الاستعارة التصريحية فى التمرس بالترشيح والتجريد والإطلاق.

نقول فى الاستعارة المكنية المطلقة · « نستيقظ فى الصباح على زئير الأب » تجعلها مرشحة فنقول : « نستيقظ فى الصباح على زئير الأب الذى يفترسنا إذا لم ننهض من فراشنا بسرعة فائقة »

ونجعلها مجردة فنقول « نستيقظ فى الصباح على زئير الأب الذى يؤمنا فى صلاة الفجر »

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ١٣

المجاز المرسل

تتردد العلاقة فى المجاز اللغوى بين أن تكون المشابهة ، وأن تكون غير المشابهة ، فإن كانت العلاقة المشابهة كان المجاز استعارة وقد سبق القول فيها .

وإن كانت غير المشابهة كان ما يسمى (المجاز المرسل) .

وقد عرفنا القزوينى به فى قوله : « . الضرب الأول المرسل ، وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه ، وما وضع له ملابسة غير التشبيه ، كاليد إذا استعملت فى النعمة ، لأن من شأن النعمة أن تصدر عن الجارحة ، ومنها تصل إلى المقصود بها .

ويشترط أن يكون فى الكلام إشارة إلى المولى لها ، فلا يقال : اتسعت اليد فى البلد ، أو اقتنيت يدا ، كما يقال : اتسعت النعمة فى البلد ، أو اقتنيت نعمة ، وإنما يقال : جلَّتْ يده عندى وكثرت أياديه لدىَّ ، ونحو ذلك [1] » .

هذا كلام القزوينى ، وهو ليس على إطلاقه ؛ فقد ورد التعبير باليد والأيادى عن النعمة والنعم دون إشارة إلى المنعم كقولهم .

« إن الأيادى قروض » أى ديون لا ترتاح نفس الكريم إلا إذا سددها ، أو كما قالوا : إن عاراً ونقيصة على الكريم أن يموت وعليه دين من ديون المعروف [2] .

ولأن العلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى فى المجاز المرسل ليست المشابهة ، بل علاقات أخرى متنوعة سماه البلاغيون (المجاز المرسل) أى غير المقيد بأن علاقته المشابهة.

والعلاقات فى المجاز المرسل كثيرة .

ذكر الخطيب القزوينى منها ثمانى علاقات [3]

وذكر ابن الأثير عن أبى حامد الغزالى أربع عشرة علاقة [4] .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ٨٢ – ٨٤ .
(٢) خاص الخاص للثعالبى ص ٢٤ : بيروت ١٩٦٦م .
(٣) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ٨٢ وما بعدها .
(٤) المثل السائر جـ ٢ ص ٨٨ – ٩٥ .

وأوصلها الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي إلى ست وعشرين علاقة رئيسية ثم ألحق بالعلاقة الأخيرة خمس علاقات رأى أنها تشبهها ، فتصير جملة العلاقات عنده إحدى وثلاثين علاقة [1] ، ولعله هو ما عناه السبكي بقوله : إنها عند بعضهم تزيد على ثلاثين علاقة [2] .

ولأن أكثر هذه العلاقات يدخل بعضها في بعض كما لاحظ ابن الأثير بحق فإننا سنقتصر منها على أظهرها وأشهرها ، وهذه هي :

(١) السببية:

أي التعبير بالسبب عن المسبب ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقي للكلمة المذكورة في العبارة سبباً في المعنى المجازي لها .

قالوا : رعت الماشية الغيث ، يريدون رعت النبات .

فـ (الغيث) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن المعنى الحقيقي للغيث سبب في المعنى المجازي له وهو النبات .

والقرينة (رعت الماشية) ؛ فالماشية لا ترعى الغيث حقيقة .

وقال المتنبي :

له أياد على سابغة   أعد منها ولا أعددها

ففي (أياد) مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن الأيادي الحقيقية هي التي تمنح النعم ؛ فهي سبب فيها .

والقرينة : (عليَّ سابغة أعد منها ولا أعددها) .

وقال تعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أي فجازوه على اعتدائه ، ففي (فاعتدوا عليه) مجاز مرسل علاقته السببية بين الاعتداء وجزائه .

---

(١) البرهان في علوم القرآن جـ ٢ ص ٢٥٩ - ٢٩٨ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م القاهرة .

(٢) عروس الأفراح جـ ٤ ص ١٤٣

والقرينة مفهومة من سياق الآية ؛ فهو يدل على أن الاعتداء الثانى ليس اعتداء حقيقياً ، بل مجازيا .

وكالآية الكريمة قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لا يجهلــن أحــد علينـــا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

عبر الشاعر بقوله :

(فنجهل) عن جزاء الجهل على قومه ، لما كان الجهل الثانى مترتباً على الجهل الأول ، وبعبارة أخرى : لما كان الجهل الأول سبباً فى الجهل الثانى .

(٢) المسببية :

أى التعبير بالمسبب عن السبب . (عكس العلاقة السابقة) .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة مسبباً عن المعنى المجازى لها، كقولهم ، أمطرت السماء نباتاً ، يقصدون ماء ، فالنبات مجاز مرسل علاقته المسببية .

والقرينة : أمطرت السماء ؛ لأن النبات لا ينزل من السماء حقيقة .

وكقوله تعالى : ﴿ ينزل لكم من السماء رزقاً ﴾أى مطراً يتسبب عنه الرزق . وكقوله تعالى أيضاً : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ﴾ .

فالذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً لا يأكلون ناراً على الحقيقة ، بل يأكلون أموال اليتامى ، ولما كان دخولهم النار مسبباً عن ذلك ، ومترتباً عليه ، عبر سبحانه وتعالى بالنار عن أموال اليتامى أى بالمسبب عن السبب ، مجازاً مرسلاً علاقته المسببية ، وقرينته لفظية هي « يأكلون فى بطونهم » .

(٣) اللازمية :

أى التعبير باللازم عن الملزوم ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة لازماً للمعنى المجازى لها ، تقول : بزغ الضوء ، تريد الشمس ، فالضوء مجاز مرسل علاقته اللازمية ، لأن الضوء لازم للشمس ، والقرينة : بزغ ، فالبزوغ ليس وصفاً حقيقياً للضوء بل للشمس .

(٤) الملزومية:

أى التعبير بالملزوم عن اللازم (عكس العلاقة السابقة) .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة فى العبارة ملزوماً للمعنى المجازى لها . تقول : دخلت الشمس من النافذة ، وملأت الحجرة . تقصد ضوء الشمس لا جرمها .

فكلمة (الشمس) مجاز مرسل علاقته الملزومية ، لأن المعنى الحقيقى للشمس وهو جرمها ملزوم للمعنى المجازى لها وهو الضوء .

والقرينة (دخلت) و (ملأت) فجرم الشمس لا يدخل من النافذة ولا يملأ الحجرة حقيقة.

(٥) المحلية:

أى التعبير بالمحل عن الحالين فيه ، وذلك إذا كان المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة محلاً للمعنى المجازى لها .

قال تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى الموجودين فى النادى .

فكلمة (ناديه) مجاز مرسل علاقته المحلية ، والقرينة (فليدع) ، لأن النادى لا يدعى حقيقة .

وقال تعالى : ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ﴾ أى أهل القرية وأصحاب العير ، والقرينة هى (واسأل) ؛ إذ القرية لا تسأل حقيقة ، وكذلك العير .

وتقول : خرجت الكلية عن بكرة أبيها ، تقصد خرج طلابها كلهم ، عبرت بالكلية عن طلابها ، ففى الكلية مجاز مرسل علاقته المحلية والقرينة (خرجت) ؛ فالكلية بمعنى المحل لا تخرج حقيقة .

(٦) الحالية:

أى التعبير بالحالين فى المكان عن المكان نفسه (عكس العلاقة السابقة) وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة حالاً فى المعنى المجازى لها .

أقول : جئت الرياض ونزلت فيها بصديقى ناصر الرشيد ، أقصد بدار صديقى ناصر الرشيد فـ (بصديقى ناصر) مجاز مرسل علاقته الحالية لأن صديقى ناصر حال بداره ، وقد حللت فيها معه .

والقرينة كلمة (نزلت) ؛ لأن حقيقة النزول لا تتصور بالصديق بل بالدار .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ أى ففى جنة الله .

وقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ أى لفى المكان الذى فيه النعيم وهو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ أى خذوا ثيابكم الجميلة ، فـ (زينتكم) مجاز مرسل علاقته الحالية، لأن الزينة حالة فى الثياب وبادية من خلالها ، والقرينة (خذوا) ؛ فالزينة وهى أمر معنوى لا تؤخذ حقيقة .

وقول حمدونة الأندلسية :

نزلنا دوحه فحنــــا علينا   حنو المرضعات على الفطيم

فـ (الدوح) مجاز مرسل علاقته الحالية أطلقنا الحال وهو الدوح وأردنا المحل وهو الوادى الذى يتخلله الدوح فيظلله ويرطبه .

(٧) الكلية :

أى التعبير بالكل عن الجزء ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة كلا مشتملاً على المعنى المجازى لها كقوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم ﴾ يعنى أناملهم ، بل أطراف أناملهم فأصابعهم مجاز مرسل علاقته الكلية ، والقرينة استحالة وضع الأصابع كاملة فى الآذان ؛ وعليه قولهم « قطعت السارق » وإنما قطعت يده .

وقولهم : « انتشر الجيش فى شوارع المدينة للحفاظ على الأمن » فالمنتشرون بعض الجيش لا كله .

وقولهم : « تمكنت الشرطة من ضبط المسروقات » يقصدون بعض رجال الشرطة .

وقولى : أكلت خبز الرياض وشربت ماءها .

فأنا لم آكل كل خبز الرياض بل شيئاً منه ، كما لم أشرب كل ماء الرياض بل بعضه .

٨) الجزئية :

أى التعبير بالجزء عن الكل (عكس العلاقة السابقة) وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة جزءاً من المعنى المجازى لها ، قال الشاعر :

كم بعثنا الجيش جرا رأ وأرسلنا العيونا

أى وأرسلنا الجواسيس ، فـ (العيون) مجاز مرسل علاقته الجزئية والقرينة (أرسلنا)؛ إذ العيون وحدها لا ترسل .

وقال تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى عبد مؤمن ، والقرينة (فتحرير) : لأن التحرير لا يتصور فى الرقبة وحدها بل فى الذات كاملة .

ومن هذا قول معبد بن أوس المزنى فى ابن أخته :

أعلمــه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

وكم علمته نظم القوافى فلما قال قافيــة هجــانى

(القوافى) مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وأيضاً (قافية) ، والقرينة (علمته نظم) فى الشطرة الأولى ، و (قال) فى الشطرة الثانية ، لأن معبد بن أوس إنما علم ابن أخته نظم القصائد كلها لا القوافى وحدها ، ولأن ابن أخته قال على الأقل قصيدة كاملة لا قافية واحدة.

ذكر الشاعر الجزء وأراد الكل مجازاً مرسلاً علاقته الجزئية .

٩) البدلية :

أى التعبير بالبدل عن المبدل منه ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة بدلاً من المعنى المجازى لها .

كإطلاق القضاء على الأداء فى قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة ﴾ يريد فإذا أديتم الصلاة لكنه سبحانه وتعالى عبر بالقضاء عن الأداء ، أى عبر بالبدل عن المبدل منه ففى (قضيتم) مجاز مرسل علاقته البدلية .

والقرينة عقلية ، إذ الخطاب موجه إلى محمد ﷺ وأصحابه ، وكانوا رضوان الله أجمعين يؤدون الصلوات فى أوقاتها .

ومن ذلك قولك : قضيت الدين فى وقته المحدد ، أى أديته ، ففى (قضيت) مجاز مرسل علاقته البدلية ، والقرينة (فى وقته المحدد) .

وقولك لمن تزوج امرأة دميمة غنية : لقد تزوجت ثروة .

فـ (ثروة) مجاز مرسل علاقته البدلية ، والقرينة (تزوجت) لأن الإنسان لا يتزوج الثروة حقيقة .

(١٠) المبدلية :

أى التعبير بالمبدل منه عن البدل (عكس العلاقة السابقة) .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة مبدلاً منه للمعنى المجازى لها كالتعبير بالدم عن الدية فى قول الشاعر :

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة بعيدة مهوى القرط طيبة النشر

يقصد (أكلت دية) ، ففى (دماً) مجاز مرسل علاقته المبدلية لأن الدم مبدل منه الدية ، والدية بدل من الدم ، والقرينة (أكلت) ؛ فالدم بمعناه الحقيقى لا يؤكل .

(١١) اعتبار ما كان :

أى التعبير بما كان عما هو كائن .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة ماضياً بالنسبة للمعنى المجازى لها كقوله تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ﴾ يعنى الذين كانوا يتامى من قبل ، أما الآن فهم بالغون ، ففى (اليتامى) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان .

والقرينة : أمر الله تعالى بتسليمهم أموالهم ؛ إذ لا يكون ذلك إلا بعد بلوغهم .

ومن ذلك قولنا : نلبس فى الشتاء صوفاً وفى الصيف قطناً .

ففى (صوفاً) و (قطناً) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان .

والقرينة (نلبس) فالصوف الخام والقطن الخام لا يلبسان حقيقة .

(١٢) اعتبار ما سيكون أو التعبير بما سيكون عما هو كائن :

وذلك إذا كان المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة آنياً أى حاضراً : وكان المعنى المجازى لها هو المستقبل ، كقوله تعالى : ﴿ إنى أرانى أعصر خمراً ﴾ ، أى عنباً ، فـ (خمراً) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون .

والقرينة (أعصر) ، فالخمر لا تعصر ، لأنها معصورة فعلاً .

وكقوله تعالى : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾ أى أطفالاً يؤول أمرهم إلى أن يكونوا فاجرين كافرين .

والقرينة (ولا يلدوا) ، فالطفل حين يولد يكون طاهراً لا فاجراً ولا كافراً .

وكقوله تعالى : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ يعني إنك ستموت وإنهم سيموتون ، فكل من (ميت) و (ميتون) مجاز مرسل علاقته اعتبار ما سيكون ، والقرينة ماثلة فى خطاب الله تعالى لمن يخاطبهم ، إذ الميتون لا يخاطبون .

(١٣) الآلية :

أى التعبير بالآلة عن أثرها وما مورس بها .

وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة وسيلة وآلة للمعنى المجازى لها .

قال تعالى : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ أى ذكراً جميلاً وثناء حسنا ، ففى (لسان صدق) مجاز مرسل علاقته الآلية ، لأن اللسان بمعناه الحقيقى آلة ووسيلة للذكر الحسن الذى هو المعنى المجازى للسان فى الآية الكريمة .

هذا ما قاله البلاغيون .

وأرى أنه يمكن الاستغناء عن علاقة الآلية بعلاقة السببية ، فالآلية والسببية قريب من قريب حتى إنه ليمكن دمجهما فى بعضهما والاستغناء بواحدة منهما عن الأخرى .

(١٤) المجاورة :

أى التعبير بالمجاور عما جاوره ، وذلك حين يكون المعنى الحقيقى للكلمة المذكورة فى العبارة مجاوراً للمعنى المجازى لها .

وقد مثلوا لعلاقة المجاورة بقول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

أى فشككت بالرمح الأصم جسمه .

ففى (ثيابه) مجاز مرسل علاقته المجاورة .

والقرينة (فشككت) ، لأن الشك ـ وهو هنا الطعن ـ لا يكون فى الثياب بل فى الأجسام.

وأيضاً مثلوا لعلاقة المجاورة بالتعبير باللفظ عن المعنى ، وبالتعبير بالمعنى عن اللفظ : تقول : قرأت المعنى تريد اللفظ ، وفهمت اللفظ تريد المعنى .

وأرى أن علاقة المجاورة يمكن الاستغناء عنها إما بعلاقة المحلية ، وما أسهل القول بأن الثياب محل لجسم لابسها ، ذكر الشاعر المحل وهو الثياب وأراد الحال فيه وهو صاحبها .

وإما باللازمية والملزومية وهما واضحتان فى لازمية المعنى للفظ ، وفى ملزومية اللفظ للمعنى ، والله أعلم .

المجاز المرسل المركب

ما سبق من المجاز المرسل كان كلمة استعملت فى غير ما وضعت له لعلاقة غير المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقى لهذه الكلمة .

* * *

وقد ذهب بعض البلاغيين إلى أن المجاز المرسل يأتى أيضاً فى المركب ومثلوا له بالجمل الخبرية التى تخرج عن معناها الحقيقى إلى معان بلاغية كقول الله تعالى على لسان أم مريم :

﴿ رب إنى وضعتها أنثى ﴾ ، وقوله تعالى على لسان زكريا : ﴿ رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ﴾ .

فأم مريم لم ترد إخبار الله تعالى بأنها وضعت أنثى ، فالله أعلم بما وضعت ، وإنما أرادت إبداء حسرتها وإظهار حزنها لعدم تحقق ما كانت ترجوه وهو أن تلد ولداً .

وكذلك زكريا ، لم يرد إخبار ربه بأنه شاخ وضعف ، بل أراد إظهار ضعفه ، وأنه لم يعد قوياً جلداً .

والعلاقة فى الآيتين اللزوم ، إذ يلزم من إخبار أم مريم بأنها وضعت أنثى إظهار حسرتها وحزنها .

ويلزم من إخبار زكريا بأنه قد وهن عظمه وشاب شعره ، إظهار ضعفه ، وأنه قد صار مدعاة للشفقة والرحمة ، وقرينة هذا المجاز المرسل المركب فى الآيتين الكريمتين إنما هى مقام الخطاب ، فهو خطاب لله تعالى ، والله تعالى يعلم السر وأخفى .

ومن المجاز المرسل المركب الخبر المستعمل استعمالاً بلاغياً فى إبداء السرور وإظهار الفرح ، كقولك لمن عنده علم بنجاحك وأنت تعلم ذلك (أنا نجحت) تريد التعبير له عن فرحك بنجاحك ، لا إخباره به .

والعلاقة هى اللزوم ، أما القرينة فهى خطابك من عنده علم بنجاحك .

وأيضاً من المجاز المرسل المركب قول الشاعر :

خلقت من الحديد أشد قلباً

وقـــد بلى الحـــديد وما بليت

لأنه لم يستعمل فيما وضع له وهو الإخبار ، وإنما استعمل فى مقام العجب والفخر .

والعلاقة ــ للمرة الرابعة ــ هى اللزوم ، إذ إخبار الإنسان عن نفسه باتصافه بالقوة والجرأة يلزمه الفخر ، والقرينة هى الموقف الذى قيل فيه الكلام ، فهو موقف فخر لا موقف إخبار .

يقول الأستاذ حامد عونى بعد صفحتين من الكلام على المجاز المرسل المركب :

« غير أن العلماء أهملوا هذا القسم ولم يبحثوه ، ولم يظهر لإهمالهم له وجه ، واعتذر بعضهم عن هذا بقلة وروده ، وهو عذر واه لا يقره الواقع إذ هو كثير شائع » [1] .

والحق مع العلماء الذين أهملوا المجاز المرسل المركب لأمرين هما :

(١) أن ما مثلوا به محصور فى أن علاقته اللزوم ، وهى علاقة فضفاضة ، تتسع له ولغيره فلا تميزه عن غيره ، ولعل هذا هو السبب فى عدم ظهور سمات المجاز المرسل فى المفرد على أمثلة المجاز المرسل فى المركب .

وقفْ فى منطقة المجاز المرسل ثم تأمل قول أم مريم وقول زكريا السابقين تشعر بأنهما غريبان هنا ، وأن هذا الموطن ليس موطنهما ، ثم أمرر على لسانك أو استشعر بقلبك قول نوح عليه السلام :

---

(١) المنهاج الواضح جـ ١ ص ٣١٥

﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ﴾ ، وقوله : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .

تجد أن المجاز المرسل يتواثب إلى ذهنك بقوة دفع قوية هى علاقة الكلية فى الآية الأولى ، وعلاقة ما سيكون فى الآية الثانية ، وتحس أن الآيتين متمكنتان تمكناً أمكن فى المجاز المرسل :

(٢) خروج الخبر عن المعنى الحقيقى له إلى أغراض بلاغية مدروس بلاغياً فى علم المعانى تحت عنوان (أغراض الخبر) ، والانتقال بالخبر ثمة من مجرد الإخبار إلى دقائق فنية تسمى « الأغراض البلاغية » هذا الانتقال انتقال سهل وطبيعى ، وهو بعد منتظر ومتوقع ، ثم هو مقنع ومشبع ، ولا عجب ، فهو يبسط رقعة التعبير ـ والتعبير محدود ـ على أكبر مساحة ممكنة من المعنى ، والمعنى غير محدود .

وإذا استعلمنا حاستنا السادسة ، فإننا نجد الأساليب الخبرية ذات الأغراض البلاغية تركض وتتواثب فى مرح ونشوة فى بيئتها الطبيعية بيئة أغراض الخبر ، أما هنا تحت ما سموه المجاز المرسل المركب فهى حزينة كئيبة لا تبين بل لا تنطق .

وما قلناه فى الرد على فضيلة الشيخ عونى نقوله للعالمين الفاضلين مصطفى أمين وعلى الجارم ، فقد قالا فى كتابهما البلاغة الواضحة ص ١١٠ هامش رقم ٢ مايلى :

« ومن المجاز المرسل نوع يقال له المجاز المرسل المركب ، وهو كل تركيب استعمل فى غير ما وضع له لعلاقة غير المشابهة ، وذلك كالجمل الخبرية المستعملة فى الإنشاء للتحسر وإظهار الحزن كما فى قول ابن الرومى :

بان شبابى فعز مطلبه وانبت بينى وبينه نسبه

فهذا البيت مجاز مركب علاقته السببية ، والقرينة حالية ، فابن الرومى لا يريد الإخبار ، ولكنه يشير إلى ما استحوذ عليه من الهم والحزن بسبب فراق الشباب » .

انتهى كلام الشيخين ، وهو قد أثرى المجاز المرسل المركب بعلاقة ثانية هى السببية .

أما أن الجملة الخبرية هنا استعملت فى الإنشاء ، فإنى أختلف معهما فى ذلك وأقول : إن الغرض البلاغى للخبر لا يخرج به عن الخبرية إلى الإنشائية بأى حال .

وابن الرومي على حد قولهما « يشير إلى ما استحوذ عليه من الهم والحزن بسبب فراق الشباب » أى يخبر عن ذلك ، ولو كان فضيلة الشيخ حامد عونى مكانهما لقال : بان شباب ابن الرومي ، ولزم عن ذلك استحواذ الهم والحزن عليه ، أى لرد علاقة السببية إلى ما تعبد به من علاقة اللزوم . وهذا يعنى أن من قال بالمجاز المرسل المركب يتحرك فيه وبه فى حيز ضيق جداً .

فلنطلق سراحه من هنا ليعود وحده إلى مكانه الطبيعى فى الدرس البلاغي وهو علم المعانى .

* * *

وتتميماً للفائدة نقول : (المجاز المركب) أو (المجاز فى الجملة) قد جاء فى تراثنا البلاغي بمعنى واحد هو المجاز العقلى ، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر هذه النقول :

قال السكاكى : « اعلم أن المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان : لغوى ، ويسمى مجازاً فى المفرد ، وعقلى ، ويسمى مجازاً فى الجملة » [1] .

وقال النويرى : « . . . . . فمجاز المفرد لغوى : ويسمى مجازاً في المثبت ، ومجاز الجملة عقلى ويسمى مجازاً في الإثبات وحده ، وهو أن تضيف الفعل إلى غير الفاعل الحقيقى » [2] .

وقال الزركشى تحت عنوان (نوعا المجاز) :

« وله سببان ، أحدهما الشبه ويسمى المجاز اللغوى وهو الذى يتكلم فيه الأصولى ، والثانى الملابسة وهو الذى يتكلم فيه أهل اللسان ويسمى المجاز العقلى ، وهو أن تسند الكلمة إلى غير ما هى له أصالة بضرب من التأويل كسبٌ زيد أباه ، إذا كان سبباً فيه ، والأول مجاز فى المفرد ، وهذا مجاز فى المركب » [3] .

ونلتقط الخيط من أيدى هؤلاء العلماء ، لنقول : إذا أضفنا إلى (المجاز المركب) أو (المجاز فى الجملة) وهما ردفان للمجاز العقلى ، (الاستعارة التصريحية فى المركب) وهى المعروفة فى المصطلح البلاغي باسم (الاستعارة التمثيلية) كان عندنا فى بلاغتنا العربية مجازان فى المركب ليس غير .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٢

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ ٢ ص ٣٧ الطبعة الأولى ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م القاهرة

(٣) البرهان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٢٥٦

المجاز العقلى

سبق التعريف به قسيماً للمجاز اللغوى ؛ وهو ينحصر فى الإسناد ، أما المسند ، والمسند إليه ، فإن كلا منهما مستعمل استعمالاً حقيقياً .

ففى المثال : (بنى الملك المدينة) .

نجد أن المسند وهو الفعل (بنى) مستعمل استعمالاً حقيقياً وهو مزاولة البناء ، وأن المسند إليه وهو (الملك) مستعمل كذلك استعمالاً حقيقياً ، فنحن نعنى به هنا ذات الملك .

لكن إثبات البناء لذات الملك ، والحكم بأنه هو الذى بنى ، وبعبارة أخرى إسناد البناء إلى الملك ، هذا الإسناد هو الذى ليس بحقيقى بل مجازى فالملك لم يبن حقيقة ، وإنما المهندسون والعمال هم الذين خططوا ونفذوا أى بنوا .

لكن لما كان الملك هو الذى أمر بالبناء ، وكان أمره هذا هو السبب المباشر فى قيام المهندسين والعمال به ، سوغ لنا ذلك أن نسند الفعل (بنى) إليه فنقول : (بنى الملك المدينة) .

ولأن المعول عليه فى فهم هذا الإسناد ومعرفة طبيعته أحقيقى هو أم مجازى ، نقول : لأن المعول عليه فى ذلك إنما هو العقل ، سمى البلاغيون هذا النوع من الإسناد بالمجاز العقلى ، وهم محقون فى ذلك ، فالعقل ، والعقل وحده ، أى بلا توقف على معرفة مسبقة بالمعجم كما هو الحال فى المجاز اللغوى ، هذا العقل هو الذى اهتدى إلى أن الملك شخصياً لا يمكن أن يبنى المدينة ، لكن يمكن أن يفكر فيها ويأمر ببنائها .

وإذن فقد فهم العقل الموقف على حقيقته ، وفسر الكلام تفسيراً صحيحاً هكذا :

الملك لم يبن بل فكر وأمر .

ونفذ المهندسون والعمال أمره فبنوا .

وجاء البليغ فتجوز وأسند الفعل (بنى) إلى من لم يبن مجازاً عقلياً علاقته السببية .

ولا يقتصر الأمر فى الإسناد المجازى ، أى فى المجاز العقلى على إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى من كان سبباً فيه ، بل ثمة علاقات أخرى هى :

الظرفية : زمانية كانت أو مكانية .

و**المصدرية** : أى كون المسند إليه المجازى مصدراً للمسند ، وذلك طبعاً إذا كان المسند فعلا .

ثم تلبس الفعل أو ما فى معناه بكل من الفاعل والمفعول به فى إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، وإسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول به .

وفي إسناد الفعل المبنى للمفعول إلي الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

* * *

مثال الإسناد إلى الظرفية الزمانية قولنا : صام نهار المسلم ، وذاكر ليل الطالب . هنا أسندنا الصيام إلى النهار ، والمذاكرة إلى الليل ، إسناداً مجازياً ، ولو أسندنا إسناداً حقيقياً لقلنا : صام المسلم نهاراً ، وذاكر الطالب ليلاً . والذى سوغ لنا الإسناد المجازى إنما هو اشتراك المسند إليه الحقيقى (المسلم والطالب) والمسند إليه المجازى ، النهار والليل) فى تعلق المسند (صام وذاكر) بهما .

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقى فمن حيث حصوله منه ، وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى فمن حيث وقوعه فيه زماناً .

* * *

ومثال الإسناد إلى الظرفية المكانية : أضاءت الحجرة ، وازدحمت الشوارع ، فعلنا هنا ما فعلناه فى الظرفية الزمانية ، فأسندنا الفعلين :

(أضاءت) و (ازدحمت) إلى الحجرة والشوارع على التوالى ، وهو إسناد مجازي .

ولو أسندنا إسناداً حقيقياً لقلنا : أضاء محمد الحجرة ، وازدحم الناس فى الشوارع .

والذى سوغ الإسناد المجازى ، إنما هو اشتراك المسند إليه الحقيقى (محمد والناس) والمسند إليه المجازي (الحجرة والشوارع) في تعلق المسند (أضاءت وازدحمت) بكل منهما.

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقى فمن حيث وقوعه منه ، وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى فمن حيث وقوعه فيه مكاناً .

* * *

ومثال إسناد الفعل إلى مصدره :

اجتهد اجتهاد الطالب ، ونجح نجاح المجتهد .

هنا أسندنا المسند وهو الفعل (اجتهد) والفعل (نجح) إلى مصدريهما إسناداً مجازياً.

ولو أسندنا إسناداً حقيقياً لقلنا : اجتهد الطالب اجتهاداً ونجح المجتهد نجاحاً .

والذى سوغ إسناد المسند (اجتهد ونجح) إلى مصدره (اجتهاد ونجاح) اشتراك هذا المصدر مع المسند إليه الحقيقى (الطالب) و (المجتهد) فى تعلق الفعل بكل منهما .

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقي فلحصوله منه .

وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى وهو المصدر ؛ فلكون هذا المصدر جزءاً من مفهومه ؛ فالمصدر ـ كما نعلم ـ لا يدل إلا على الحدث ، أما الفعل فإنه يدل على الحدث وعلى زمنه معاً .

* * *

وعن إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، وإسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول به .

ثم عن إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل.

نقول : اعلم أن إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى الفاعل مثل نجح المجتهد إسناد حقيقى.

كما أن إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى المفعول مثل : أكرم الضيف ، إسناد حقيقى .

لكن إسناد الفعل المبنى للفاعل إلى المفعول به ، وإسناد اسم الفاعل إلى ضمير المفعول به . وأيضاً إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

هذا الإسناد المزدوج فى المرتين إسناد مجازى أى مجاز عقلى .

مثال الأول : رضيت عيشة الغريب .

بإسناد الفعل (رضى) إلى (عيشة) إسناداً مجازياً .

والإسناد الحقيقى : (رضي الغريب عيشته) .

حذفنا الفاعل وهو (الغريب) وأسندنا الفعل (رضى) - وهو مبنى للفاعل أى مبنى للمعلوم - إلى المفعول به وهو (عيشة) إسناداً مجازياً فقلنا [رضيت عيشة الغريب] .

والذى سوغ لنا هذا الإسناد إنما هو اشتراك المسند إليه الحقيقى وهو [الغريب] والمسند إليه المجازى وهو [عيشة] فى تعلق الفعل [رضى] بكل منهما .

أما تعلقه بالمسند إليه الحقيقى وهو (الغريب) فلوقوعه منه .

وأما تعلقه بالمسند إليه المجازى وهو عيشة فلوقوعه عليه .

* * *

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ .

أسند سبحانه وتعالى اسم الفاعل من الفعل (رضى) - بفتح الراء - إلى الضمير المستتر العائد على المفعول به وهو (عيشة) .

من إسناد اسم الفاعل إلى غير ما هو له وهو ضمير المفعول به .

ولو جاء الإسناد على حقيقته لقيل : فهو فى عيشة مرضية . فأصل الكلام (رضي الرجل العيشة) .

حذف الفاعل وأقيم المفعول به مقامه ، وأسند الفعل (رضى) بضم الراء إليه ، فصار الكلام رضيت العيشة وهو إسناد حقيقى .

لكنا بعد ذلك تجوزنا فاشتققنا من الفعل رضى المبنى للمعلوم اسم فاعل هو راض وأسندناه إلى ضمير المفعول به وهو العيشة ، ومن هنا جاء قول الله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ بدلاً من مرضية .

ومثال إسناد الفعل المبنى للمفعول إلى الفاعل ، وإسناد اسم المفعول إلى ضمير الفاعل (عكس السابق) .

أُفعِم السيلُ ، بدلاً من أُفعِم الوادى .

فأصل الكلام . (أفعم السيلُ الوادىَ) .

بنى الفعل (أفعم) للمفعول ، فضم أوله ، وكسر ما قبل آخره ، وكان المنتظر أن يسند حينئذ إلى المفعول به وهو الوادى إسناداً حقيقياً ، لكنه - وهو مبنى للمفعول - أسند إلى الفاعل الحقيقى وهو السيل إسناداً مجازياً .

والذى سوغ ذلك اشتراك كل من المسند إليه الحقيقى (الوادى) والمسند إليه المجازى (السيل) فى تعلق الفعل بهما ، أما تعلقه بالسيل فلصدوره منه وأما تعلقه بالوادي فلوقوعه عليه .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ إنه كان وعده مأتيا .. ﴾ أى آتياً ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ أى ساتراً .

جاء اسم المفعول فى الآيتين مكان اسم الفاعل ، وبعبارة أخرى ؛ أسند اسم المفعول إلى ضمير الفاعل .

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن بعض البلاغيين يسمون العلاقة فى المجاز العقلى الملابسة .

يعنون : المناسبة التى سوغت إسناد الفعل أو مافى معناه إلى غير ماهو له حقيقة .

والملابسة ـ كما رأينا ـ متنوعة ، فهى السببية أو الظرفية أو المصدرية أو اشتراك الفاعل والمفعول به فى تعلق الفعل بهما اشتراكاً جعل إحلال أحدهما محل الآخر أمراً مقبولاً ، بل أمراً مرغوباً فيه بلاغة .

* * *

أما القرينة فهى إما لفظية وإما معنوية .

وتكون القرينة لفظية إذا جاء في الكلام ما يدل بمنطوقه على أن الإسناد الذى نحن بصدده إسناد مجازى ، وذلك كقول أبى النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعى

على ذنبا كله لم أصنع

من أن رأت رأسى كرأس الأصلع

ميز عنه قنزعا عن قنزع

جذب الليالى أبطئ أو اسرعى

يقول : ذهب توالى الليالى بشعر رأسى خصلة بعد خصلة .

وهو إسناد مجازي علاقته الزمنية أو السببية .

أما قرينته فلفظية هى قوله بعد ذلك :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى حتى إذا واراك أفق فارجعى

فهو نص على أن أبا النجم من المؤمنين الذين يسندون الأمور إلى فاعلها الحقيقى وهو الله - سبحانه وتعالى ، وهو لذلك قرينة على أن ما سبق من إسناده (ميز) إلى (جذب الليالى) إسناد مجازى .

وتكون القرينة معنوية إذا خلا النص الذى معنا من كلمة أو عبارة تدل على أن الإسناد الذى فيه إسناد مجازى ؛ اتكالاً من الأديب على ذكائنا الذى يلقى فى روعنا أن صدور المسند عن المسند إليه أو قيامه به مستحيل عقلاً مثل : محبتك جاءت بى إليك . أو عادة مثل : بنى الملك المدينة .

* * *

وينبغى الإلمام بما قاله البلاغيون وهم يبحثون عن أصل المجاز العقلى وينقبون عن جذوره ، فى محاولة مخلصة للإجابة عن السؤال الآتى :

هل يلزم أن يكون لكل إسناد مجازي إسناد حقيقى فى مقابلته ؟

وقد اختلفت إجاباتهم :

أما الخطيب القزوينى فقد قال : نعم ، وهذا هو نص كلامه :

« واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير إذا أسند إليه صار الإسناد حقيقة لما يشعر بذلك تعريفه ، وذلك قد يكون ظاهراً كما فى قوله تعالى : « فما ربحت تجارتهم » أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وقد يكون خفياً لا يظهر إلا بعد نظر وتأمل كما فى قولك « سرتنى رؤيتك » أى سرنى الله وقت رؤيتك ، وكما فى قولك « أقدمنى بلدك حق لى على فلان » أى أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان ، وكما فى قول أبى نواس :

يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نظرا

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت [1] » .

وأما عبد القاهر فقد نسب إليه الشيخان حامد عونى وعبد المتعال الصعيدى رأياً فحواه أنه ليس بواجب فى المجاز العقلى أن يكون للمسند فاعل حقيقى أسند إليه أولا إسناداً معتداً به فى العرف والاستعمال إليه قبل إسناده إلى الفاعل المجازى ، بل تارة يكون له

---

(١) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٥٧ - ٥٨ .

مسند إليه حقيقي أسند إليه أولاً إسناداً معتداً به عرفاً واستعمالاً ، ثم نقل إلى المسند إليه المجازى مثل شفى الطبيب المريض ، وقول الله تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ ، وتارة لا يكون له مسند إليه حقيقي جرى العرف والاستعمال بإسناده إليه ، فيسند من أول الأمر إلى الفاعل المجازى كقولهم « سرتنى رؤيتك » ، و« يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً » و« أقدمنى بلدك حق لى عليك » .

فهذه الأسانيد ونحوها بمثابة المجاز الذى لا حقيقة له (١) .

وما نسبه الشيخان الفاضلان إلى عبد القاهر مستنبط من كلامه عما دخل المجاز فى مثبته دون إثباته ، وفى إثباته دون مثبته ، وفيهما معاً (٢) .

والحق أن كلام عبد القاهر لا يعطى ما استنبطه الشيخان بل يعطى ما قاله القزوينى الذى لم يزد على أن وضح كلام عبد القاهر.

وإذا كان لى أن أبدى رأيى ، فإنى أقول : إن الإسناد المجازى فرع عن الإسناد الحقيقى ، وهذا يعنى أن الإسناد المجازى لابد أن يسبقه إسناد حقيقى ، ولو لم يكن الأمر كذلك ما أوجبوا العلاقة والقرينة فى كل مجاز .

فالعلاقة إنما تكون بين المعنيين الحقيقى والمجازى .

والقرينة واجبة احترازاً من أن يسبق المعنى الحقيقى أخاه المجازى إلى ذهن متلقى الأدب .

والدراسة التطبيقية تؤيد وجهة نظرنا ، فقد عدلنا فى كل أمثلة المجاز العقلى عن الإسناد الحقيقي إلى الإسناد المجازى .

* * *

وقبل أن نغادر المجاز العقلى ننبه إلى أن السكاكى له منه موقف شبيه بموقفه من الاستعارة التبعية ، بل إن الموقف واحد هناك وهنا ، وهو موقف يدل على ذكائه ، وقوة لمحه، وعلى حبه للتجميع البلاغى ما أمكن ذلك .

ها هو ذا يعقد فصلاً له هو (الفصل الخامس فى المجاز العقلى ص ١٨٢ وما بعدها) يوفيه فيه حقه من البحث والدراسة ، ومن التقرير والشرح ، ولكنا ـ وبالدهشتنا وتقديرنا ـ نجده يختمه بقوله :

---

(١) انظر بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى جـ ١ ص ٥٧ هامش رقم ٣ والمنهاج الواضح للشيخ حامد عونى جـ ٣ ص ٥٩ .

(٢) انظر أسرار البلاغة ص ٣٤٢ – ٣٤٤ .

« هذا كله تقرير الكلام في هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لغوى وعقلى ، وإلا فالذى عندى هو نظم هذا النوع (المجاز العقلى) فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى بوساطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة ، وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم إليه قرينة للاستعارة .

وإننى بناءً على قولى هذا ها هنا ، وقولى ذلك فى فصل الاستعارة التبعية ، وقولى فى المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم للكلمة – على ما سبق – أجعل المجاز كله لغوياً ..... وإذ قد عرفت ما ذكرت وما ذكروا فاختر أيهما شئت » [١] .

انتهى كلام السكاكى ، وهو واضح لا يحتاج إلى شرح ، باستثناء عبارة : « قولى في المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم للكلمة على ما سبق » .

فهو يشير بها إلى المجاز اللغوى الراجع إلى الحكم الإعرابى الكلمة فى الكلام قال : «هو عند السلف رحمهم الله أن تكون الكلمة منقولة عن حكم لها أصلى إلى غيره كما فى قوله تعالى : (وجاء ربك) ، فالأصل : وجاء أمر ربك ، فالحكم الأصلى فى الكلام لقوله « ربك » هو الجر ، وأما الرفع فمجاز ، وفى قوله :

« واسأل القرية » ، والأصل : واسأل أهل القرية ، فالحكم الأصلى للقرية فى الكلام هو الجر ، والنصب مجاز ... » إلى آخر ما مثل به [٢].

ومن الأصحاب أو من السلف الذين ترحم عليهم السكاكى عبد القاهر الجرجانى ، فقد جاء على لسانه فى الموضوع نفسه قوله :

« واعلم أن الكلمة كما توصف بالمجاز لنقلك لها عن معناها ، فقد توصف به لنقلها عن حكم كان لها إلى حكم ليس هو بحقيقة فيها ، ومثال ذلك أن المضاف إليه يكتسى إعراب المضاف فى نحو « واسأل القرية » والأصل : واسأل أهل القرية ، فالحكم الذى يجب للقرية فى الأصل وعلى الحقيقة هو الجر والنصب فيها مجاز ، وهكذا قولهم « بنو فلان تطؤهم الطريق » يريدون أهل الطريق ، الرفع فى الطريق مجاز ؛ لأنه منقول إليه عن المضاف المحذوف الذى هو الأهل ، والذى يستحقه فى أصله هو الجر » [٣] .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٩ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٥ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٣٨٣ . تحقيق هـ . ريتر .

وبعد هذا التوضيح لفقرة من كلام السكاكي نقول :

إنه بإدخاله كلاً من الاستعارة التبعية ، ومن المجاز العقلى فى الاستعارة المكنية ، وجعل ثلاثتها شيئاً واحداً .

السكاكى بموقفه هذا مع البلاغة العربية لا عليها .

إنه يرى تسهيلها وتيسيرها على طلابها بتقليل أقسامها ، وخلخلة تفريعاتها ، وما كان أحبَّ إلىَّ من أن تسود رؤيته الساحة البلاغية كلها فى مختلف عصورها ، لكنه ـ للأسف خولف فيما دعا إليه ، بل أُخذ ذلك عليه . وانظر حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون للشيخ أحمد الدمنهورى ص ٤٥ الطبعة الثانية ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م القاهرة ، وشرح عقود الجمان فى علمىْ المعانى والبيان للسيوطى ص ١٤ طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر د.ت.

الكناية

الكناية ـ كما عرفها القزوينى ـ لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ ، كقولك طويل النجاد أى طويل القامة ، وفلانة نئوم الضحا أى مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعى بنفسها فى إصلاح المهمات ، وذلك أن وقت الضحا وقت سعى النساء العرب فى أمر المعاش ، وكفاية أسبابه ، فلا تنام فيه من نسائهم إلا من تكون لها خدم ينوبون عنها فى السعى لذلك .

ولا يمتنع أن يراد مع ذلك طول النجاد ، والنوم فى الضحا من غير تأويل (من غير صرف اللفظ عن معناه الأصلى) ، فالفرق بينها وبين المجاز من هذا الوجه ، أى من جهة إرادة المعنى مع إرادة لازمه ، فإن المجاز ينافى ذلك ، فلا يصح فى نحو قولك (فى الحمام أسد) أن تريد معنى الأسد من غير تأويل (يقصد القزوينى امتناع أن تقصد أسداً حقيقياً بل لابد أن يكون المقصود أنَّ فى الحمام رجلاً شجاعاً استعرت له كلمة أسد) »[1] .

* * *

ولتوضيح كلام القزوينى فى الفرق بين الكناية والمجاز نقول :

إنهما يشتركان فى ضرورة وجود قرينة تدل على المعنى المقصود من كل منهما ، أى على المعنى الكنائى فى الكناية ، وعلى المعنى المجازى فى المجاز ، لكن ثمة فرقاً جوهرياً بين القرينتين ، وفى هذا الفرق الجوهرى بين القرينتين يكمن الفرق بين الكناية والمجاز .

فالقرينة فى الكناية لا تمنع من إرادة المعنى الأصلى وهو المعنى المباشر للعبارتين (طويل النجاد) و (نئوم الضحا) ولأمثالهما من الأساليب الكنائية .

أجل إن مراد المتكلم ابتداءً إنما هو المعنى الكنائى للعبارة ، أى المعنى الثانى لها وهو المعنى اللازم عن معناها الأصلى ، لكن ليس ما يمنع من إرادة المعنى الأصلى مع المعنى الكنائى .

وبعبارة أخرى نقول : إن قرينة الكناية سهلة ومتسامحة ومرنة ، وهى لذلك توافق على ازدواجية الأداء وثنائية المعنى .

ففى المثال : هند نئوم الضحا .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ١٥٥

المعنى المباشر أنها تنام وقت الضحا أى إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ، وهذا المعنى المباشر وهو المعنى الأصلى للعبارة غير مقصود لذاته بل لما يلزمه ويترتب عليه من معنى كنائى هو أنها مترفة ومخدومة ، وهذا المعنى الكنائى هو المقصود لذاته من أول الأمر ، لكن لا بأس مع قصد المعنى الكنائى ابتداء من قصد المعنى المباشر معه .

وتجدر الإشارة إلى أن الكناية تصح ولو لم يكن المعنى الأصلى للفظ المكنى به ذا وجود خارجى .

نتحدث عن المضياف الذى لا يطبخ لضيوفه ، وإنما يشترى لهم الطعام من المطابخ الخارجية فنقول : (فلان كثير الرماد) كناية عن كرمه ، ولارماد هناك كما نقول لطويل القامة الذى لا نجاد له ؛ لأنه لا سيف عنده (طويل النجاد) .

وكذلك تصح الكناية فى حالة استحالة المعنى الأصلى ، وكل أمثلة الكناية عن نسبة من هذا النوع ، نقول : المجد ملء ثيابه ، كناية عن نسبة المجد إليه ، والمعنى الأصلى هنا مستحيل ، لاستحالة حلول المجد وهو أمر معنوى فى الثياب بمعناها الحقيقى .

أما القرينة فى المجاز ـ أى مجاز ـ فإنها تمنع منعاً باتاً إرادة المعنى الحقيقى وإلا اختلط الكلام وتداخل وانبهم مقصود قائله منه فلم نتبينه ، ويكون التعبير قد فقد خاصة التواصل وهى وظيفته .

تقول : (معنا فى العمل عين وثعلب) ؛ وفى قولك هذا مجازان : علاقة الأول الجزئية ، أطلقت العين وأردت الجاسوس ، مجازاً مرسلاً .

وعلاقة الثانى المشابهة ، صرحت بالثعلب فى مكان زميلك المكار . استعارة تصريحية أصلية مطلقة .

والقرينة فى هذين المجازين هى (معنا فى العمل) ، وهى مانعة منعاً قاطعاً من إرادة المعنى الحقيقى للعين ، ومن إرادة المعنى الحقيقى للثعلب .

أقسام الكناية

والكناية ثلاثة أقسام :

١ - كناية عن صفة أى عن معنى .

٢ - كناية عن موصوف أى عن ذات .

٣ - كناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف أى عن نسبة المعنى إلى الذات .

الكناية عن صفة

وفيها نصرح بالموصوف وبالنسبة إليه ، لكن لا نصرح بالصفة المكنى عنها ؛ بل بصفة أو بصفات أخرى تستلزمها .

عاد ذو الرمة من سفره ، ونزل بدار صاحبته ، فصدم بخلوها منها ، ولم يجد من يدله عليها ، وقد عبر عن اكتئابه وخيبة أمله بقوله :

عشية مالى حيلة غير أننى بلقط الحصى والخط فى الترب مولع

أخط وأمحو الخط ثم أعيده بكفى والغربان فى الدار وقع

فى هذين البيتين نرى الشاعر ذاهلاً عن نفسه ، ها هو ذا منهمك فى لقط الحصى والكتابة فى التراب ، ومحو ما كتب ، ثم كتابة ما محا ثانية ، وهو لم يعطنا هذه الصورة الخارجية له لنقف عندها ، بل لننفذ من خلالها إلى ما وراءها من قلقه ويأسه ، ومن غلبة الهم على نفسه .

وكبيتى ذى الرمة فى الكناية عن الغم والهم وعن الحزن والألم قول امرئ القيس :

ظللت ردائى فوق رأسى قاعداً أعد الحصى ما تنقضى عبراتى

وفى ضوء قول الله تعالى فى سورة الكهف « وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها » .

نرى صاحب الحديقة وهو يقلب كفيه ، وتقليب الكفين صورة خارجية كنى بها الله سبحانه وتعالى عن حالة نفسية هى شدة الألم . وعظم الشعور بالندم .

وقول عمر بن أبى ربيعة :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل

أبوها ، وإما عبد شمس وهاشم

فيه الموصوف وهو صاحبة القرط ، وفيه نسبة بعد مهوى القرط إليها ، وليس بعد مهوى القرط مقصوداً لذاته ، بل لما يلزمه من طول عنقها وهو مظهر من مظاهر الجمال فى النساء ، كنى عنه ببعد مهوى القرط ، وقول امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فيه كناية عن التبكير بالجملة الحالية فى الشطرة الأولى .

وكناية عن سرعة الفرس بأنه قيد الأوابد فى الشطرة الثانية .

* * *

ومن الكنايات عن صفات :

الطلاب يتثاءبون ، كناية عن الكسل .

السامعون يديمون النظر إلى ساعاتهم ، كناية عن الملل .

الناس كأن على رؤوسهم الطير ، كناية عن الهدوء وعمق الإصغاء .

فلان لا يدخل من هذا الباب ، كناية عن ضخامته .

صارت نهلة عروساً ، كناية عن أنها كبرت .

ومن الكنايات المستطرفة قول الله تعالى :

« وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم » .

كناية عن عنادهم وكفرهم .

وقوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ، ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان » .

كناية عن البخل فى مقولة اليهود : « يد الله مغلولة » وعن الكرم فى « يداه مبسوطتان » .

* * *

والكناية عن صفة ضربان : قريبة وبعيدة .

فالقريبة : هى التى ينتقل فيها الذهن من المعنى الأصلى إلى المعنى الكنائى بلا واسطة بين المعنيين ، كخرساء الأساور ، كناية عن السمنة ، فليس بين صمت الأساور والسمنة واسطة ما . وهذه الكناية القريبة نوعان : واضحة وخفية .

فالواضحة هى ما يفهم المعنى الكنائى من المعنى الأصلى فيها بداهة لوضوح اللزوم بينهما كقول امرئ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها نئوم الضحا لم تنتطق عن تفضل

كناية عن ترفها وغناها فى الشطرة الأولى ، وعن أنها مدللة مخدومة في الشطرة الثانية.

وكقول الحماسى :

أبتْ الروادف والثُّدىُّ لقمصها مس البطون وأن تمسَّ ظهورا

فقد كنى عن ضخامة عجيزة المرأة ، وعن نهود ثدييها بارتفاع قمصها عن ظهرها وبطنها حتى أنها لا تمسهما .

والكنايات فى بيتى امرئ القيس والحماسى واضحة لا تحتاج إلى جهد ذهني فى إدراكها .

أما الخفية فهى التى تحوج فى فهم المقصود منها إلى شئ من الأناة والتأمل لخفاء اللزوم فيها – نوعاً ما – بين المعنى الأصلى والمعنى الكنائى كقول الفرزدق :

إذا مالك ألقى العمامة فاحذروا بوادر كفَّىْ مالك حين يغضب

فقد كنى بإلقاء مالك عمامته عن ضيق صدره ، ونفاد صبره ، وحدة غضبه ، وأيضاً عن جسارته وشجاعته ، بدليل أنه لم يبال ما يتعرض له المحارب الذى يعرى رأسه من رشقة رمح ، أو من ضربة سيف ، ثقةً بقدرته على حماية نفسه .

وفهم هذا كله من عبارة (ألقى العمامة) محتاج إلى بصيرة نيرة ، وعقل فطن .

* * *

ومن الكناية القريبة الخفية قول الشاعر :

عريض القفـــا ميزانه في شماله   قد انحصّ من حسب القراريط شاربه

ففي هذا البيت ثلاث كنايات هي :

(عريض القفا) كناية عن غبائه وبلهه .

و (ميزانه فى شماله) كناية عن اهتزاز شخصيته ، وقلة كفاءته .

و (قد انحص من حسب القراريط شاربه) كناية عن إشغاله نفسه بالتوافه ، وانصرافه عن الأمور العظيمة .

وأحسب أن فى الكنايات الثلاث شيئاً من الخفاء ، لكن بدرجة متفاوتة ، ولعله فى الكناية الأولى أقل منه فى الكنايتين الثانية والثالثة ، وانحص شاربه أى نحل وسقط .

* * *

ونصل إلى الكناية البعيدة ، وهى ما كثرت فيها الوسائط بين المعنيين الأصلى والكنائى ككثير الرماد ، كناية عن الكرم .

فبين كثرة الرماد والكرم وسائط جمة ؛ إذ ينتقل الذهن من كثرة الرماد إلى كثرة الحرق ، ومن كثرة الحرق إلى كثرة الطبخ ، ومن كثرة الطبخ إلى كثرة الأكلة ومن كثرة الأكلة إلى كثرة الضيوف ، ومن كثرة الضيوف إلى عظم الكرم .

ومن الكناية البعيدة قول الشاعر :

وما يك فىَّ من عيب فإنى   جبان الكلب مهزول الفصيل

ففى الشطرة الثانية كنايتان بعيدتان :

«جبان الكلب» كناية عن الرئاسة وعظم الجاه

و «مهزول الفصيل» كناية عن الكرم.

الكناية عن موصوف

وفيها نصرح بالصفة ، ونصرح بالنسبة ، لكن لا نصرح بالموصوف صاحب النسبة ، بل نكني عنه بما يدل عليه ويستلزمه .

هذا امرؤ القيس يكني عن صاحبته التي كان من أمره معها ما ذكره في قوله :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها   تمتعت من لهو بها غير معجل

فـ (بيضة خدر) كناية عن موصوف هو المرأة صاحبة الخدر .

وهذا الشنفرى يكني عن الحرب بأم قسطل في قوله : .

فإن تبتئس بالشنفرى أم قسطل   لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول

القسطل : الغبار ، وأم قسطل هي الحرب . يقول :

إن لم ترض الحرب عني شيخاً ، فلطالما رضيت عني شاباً .

ولقد كانت العرب تكني بالقلائص ـ وهي النوق الفتية ـ عن النساء .

كتب أبو المنهال بقيلة الأكبر الأشجعي إلي عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شأن النساء اللائي كان المجاهدون يخلونهن وراءهم وهم يغزون :

ألا أبلـغ أبا حفص رسولا   فـدى لك مـن أخـي ثقة إزاري

قلائصـنا هـداك الله إنـا   شغلنـا عنكم زمن الحصـار (1)

ولما حظر بعض الخلفاء على الشعراء ذكر النساء قال حميد بن ثور :

تجـرم أهلوهـا لأن كنت مشعرا   جنوناً بها يـا طـول هذا التجـرم

ومالـي من ذنـب إليهـم علمتـه   سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي

بلى اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي   ثـلاث تحـيات وإن لم تكلـم

فكنى عمن تغزل فيها بالسرحة ، وقد كانوا يقولون لزوجة الرجل سرحته . وكما كنوا عن

(1) التصوير البياني د. محمد أبو موسى ص ٤١٠ .

المرأة بالسرحة كنوا عنها بالنخلة ، قال شاعرهم :

ألا يا نخلة من ذات عرق   عليك ورحمة الله السلام

وكنوا عنها بالنعجة قال تعالى : « إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة » .

وكنوا عنها بالوديعة فى رسالة كتبها أبو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة على لسان المعتضد بالله العباسى إلى أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، يطمئنه فيها على كريمته قطر الندى قال :

« وأما الوديعة فهي بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك عناية لها وحياطة بها » .

وكان ابن ثوابة فرحاً بوقوعه على هذه الكناية حتى لقد قال للوزير أبي القاسم عبيد الله ابن سليمان بن وهب « والله إن تسميتى إياها بالوديعة نصف البلاغة » .

وقد استحسنت هذه الكناية حتى صار الكتاب يعتمدونها [1] .

* * *

والكناية عن موصوف هى أيضاً نوعان :

نوع يكنى فيه عن الموصوف بمعنى واحد كما فى الأمثلة السابقة . وكما فى قول الشاعر :

الضاربين بكل أبيض مخذم   والطاعنين مجامع الأضغان

فقد كنىَّ بمعنى واحد هو (مجامع الأضغان) عن موصوف هو القلوب .

والمقصود بوحدة المعنى هنا إنما هى وحدة النوع أو الجنس . وإن كان مثنى أو جمعاً ، فمجامع الأضغان ، وإن كان جمعاً إلا أنه معنى واحد من حيث إنه جنس واحد هو القلوب ، وليس أجناساً متعددة ، وسيتضح ذلك أكثر بذكر :

النوع الثانى : وهو ما يكنى فيه عن الموصوف بمجموعة معان تتضافر مع بعضها حتى تشكل الموصوف المكنى عنه بها وتحضره فى ذهن القارئ أو السامع .

---

(١) سر الفصاحة ١٥٦ .

مثال ذلك قوله تعالى كناية عن البنات : « أو من يُنشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين » .

لم يعبر الله سبحانه وتعالى عن البنات بمعنى واحد بل بمعنيين اثنين هما التنشئة فى الحلية ، والعجز عن الإبانة فى اللدد والخصومة .

وهذان المعنيان مختلفان ، لكنهما متكاملان وهما لذلك يؤديان إلى المكنى عنه بهما فى الآية الكريمة ، وهو الإناث فى مقابلة الذكور .

ومثاله أيضاً قوله تعالى فى قصة نوح عليه السلام : « وحملناه على ذات ألواح ودسر » .

فقد كنى – سبحانه – بمعنيين من جنسين مختلفين عن الموصوف وهو السفينة المكونة من الألواح والدسر ، والدسر : جمع دسار وهو المسمار ، وقيل خيط من الليف تشد به الألواح (١) .

ومن الأمثلة التى اصطنعها البلاغيون ليوضحوا بها ما نحن بصدده ، وهو الكناية عن الموصوف بأكثر من معنى قولهم فيما يشبه الإلغاز :

« حى مستوى القامة عريض الأظفار »

ويكدهم أن تتآزر الصفات الثلاث لتنهض مجتمعة كناية عن موصوف هو الإنسان ، قالوا :

« لأن الحياة وحدها لا تكفى فى الدلالة عليه ، وكذلك الحياة واستواء القامة ، لأن التمساح يشارك الإنسان فى ذلك ، فإنه حى مستوى القامة ، ولو قيل : حى عريض الأظفار – بإسقاط مستوى القامة – لساواه الجمل » (٢) .

ذكر القزوينى هذا المثال ، وهو يشبه أن يكون حداً للإنسان لا كناية عنه ، ولو حجبنا كلمة الإنسان عنه لكان – كما قلنا قبلاً – لغزاً ، وقد رده السبكى لأنه من وجهة نظره حد ، والحد تصريح لا كناية (٣) .

---

(١) أساس البلاغة ص ١٣٠ .
(٢) التصوير البيانى ص ٤١٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٣٠ .

الكناية عن نسبة الصفة إلى الموصوف

وفيها نصرح بالصفة ونصرح بالموصوف ، لكنا لا نصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف بل نكنى عن هذه النسبة بنسبة أخرى تستلزمها .

نقول : يحل الأدب حيث يحل محمد .

وننظر فنجد أننا قد صرحنا بالصفة وهى الأدب ، وبالموصوف وهو محمد ، لكنا لم نصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف أى بنسبة الأدب إلى محمد ، وإنما كنينا عن ذلك بأن نسبنا الأدب إلى حيث يحل محمد أى إلى المكان الذى يحل فيه محمد ، ونسبة الأدب إلى المكان الذى يحل فيه محمد تستلزم ، أو هى كناية عن نسبة الأدب إلى محمد ؛ لاستحالة قيام الأدب بمكان وضرورة قيامه بإنسان هو فى مثالنا محمد .

ويقول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى — فى قبة ضربت على ابن الحشرج

فيسوقه القزوينى مثالاً للكناية عن نسبة ويعلق عليه بقوله :

« إنه حين أراد ألا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشرج جمعها فى قبة تنبيها بذلك على أن محلها (ابن الحشرج) ذو قبة ، وجعلها مضروبة عليه لوجود ذوى قباب فى الدنيا كثيرين ، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية .

ونظيره قولهم : « المجد بين ثوبيه والكرم بين برديه » (1) .

وكبيت زياد قول حسان يفتخر :

فنحن الذرا من نسل آدم والعرا

تربع فينا المجد حتى تأثلا

بنى المجد بيتاً فاستقرت عماده

علينا فأعيا الناس أن يتحولا

---

(1) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ١٦٣ .

وقول زهير بن أبى سلمى يمدح هرم بن سنان :

هناك ربك ما أعطاك من حسن

وحيثما يك أمر صالح تكن

وقول الكميت يمدح أبان بن الوليد :

يصير أبان قرين السما ح والمكرمات معاً حيث صارا

وقول يزيد بن الحكم يمدح يزيد بن المهلب لما كان فى حبس الحجاج :

أصبح فى قيدك السماحة والمجـ ـد وفضل الصلاح والحسب

وقول أبى نواس فى مدح الخصيب :

فما جازه جود ولا حلَّ دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

وقد جمع الشنفرى بين سالبة وموجبة من الكناية عن نسبة فى بيته المشهور :

يبيت بمنجاة من اللوم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حلت

فى الشطرة الأولى ، نسب إلى بيتها النجاة من اللوم (نَفْى اللوم عنه) وقصده نسبة النجاة من اللوم إليها (نَفْى اللوم عنها) .

كنىٌ بالنسبة الأولى عن النسبة الثانية .

والشئ نفسه فعله فى الشطرة الثانية ، لكن بطريقة موجبة .

(نَسَبَ اللوم إلى البيوت الأخرى) وقصده (نسبة اللوم إلى سكان هذه البيوت) .

ومرة أخرى نقول : كنىٌ بالنسبة الأولى عن النسبة الثانية .

وهذا هو مفهوم الكناية عن نسبة .

* * *

ويحسن التنبيه إلى أننى قد امتحت أمثلة الكناية عن نسبة من كتاب (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجانى طبعة دار المعرفة فى بيروت ١٣٩٨هـ / ١٩٣٨ م بتحقيق محمد رشيد رضا ص ٢٣٦ وما بعدها .

أقول ذلك لأدفع به ما ذهب إليه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف من أن عبد القاهر قد جعل فن الكناية نوعاً يدخل فى المجاز العقلى وهو الذى يأتى من إسناد شئ لشئ والمراد إسناده لغيره كقول زياد الأعجم : إن السماحة والمروءة والندي ..

وكقول الشنفرى : يبيت بمنجاة من اللوم بيتها (١) .

وما ذهب إليه الأستاذ الدكتور شوقى ضيف اجتهاد غير صائب .

فكلام عبد القاهر صريح فى أن هذين المثالين وأمثالهما كناية عن نسبة بالمعنى المصطلح عليه قديماً وحديثاً فى كناية النسبة .

ولنستأنس لما نحن فيه بفقرات من كلام عبد القاهر عن هذا النوع من الكناية ، قال تعليقاً على بيت زياد :

« أراد - كما لا يخفى - أن يثبت هذه المعانى خلالا للممدوح وضرائب فيه فترك أن يصرح ويقول : إن السماحة والمروءة والندى لمجموعة فى ابن الحشرج ، أو مقصورة عليه أو مختصة به وما شاكل ذلك مما هو صريح فى إثبات الأوصاف للمذكورين بها ، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح فجعل كونها فى القبة المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه وإشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة ، وظهر فيه ما أنت ترى من الفخامة .

وقال تعليقاً على بيت يزيد بن الحكم فى مدح يزيد بن المهلب :

تنظر فتراه نظيراً لبيت زياد وتعلم أن مكان القيد هنا هو مكان القبة هناك ؛ ثم يضيف : ومما هو إثبات للصفة على طريق الكناية والتعريض قولهم : المجد بين ثوبيه والكرم فى برديه ؛ وذلك أن قائل هذا يتوصل إلى إثبات المجد والكرم للممدوح بأن يجعلهما فى ثوبه الذى يلبسه كما توصل زياد إلى إثبات السماحة والمروءة والندى لابن الحشرج بأن جعلها فى القبة التى هو جالس فيها ، ومن ذلك قول زهير (وحيثما يك أمر صالح تكن) وما جاء فى معناه من قول الكميت : يصير أبان ..

وقول أبى نواس : فما جازه جود ..

فى كل ذلك تمَّ التوصل إلى إثبات الصفة فى الممدوح بإثباتها فى المكان الذى يكون فيه

(١) انظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٥ و ص ٣٥٧ .

وإلى لزومها له بلزومها الموضع الذى يحله ، وهكذا إن اعتبرت بيت الشنفرى : يبيت بمنجاة من اللوم بيتها .

وجدته يدخل فى معنى بيت زياد ، وذلك أنه توصل إلى نفى اللوم عنها وإبعادها عنه بأن نفاه عن بيتها ، وباعد بينه وبينه ، وكان مذهبه في ذلك مذهب زياد فى التوصل إلى جعل السماحة والمروءة والندى فى ابن الحشرج بأن جعلها فى القبة المضروبة عليه ، وإنما الفرق أن هذا ينفى وذاك يثبت [1] .

* * *

بقى أن السكاكى أعطي بعض أمثلة الكناية على إطلاقها أى بأقسامها الثلاثة أسماء جديدة قال :

« الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة ، فإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضاً ، وإلا فإن كان بينها وبين المكنى عنه مسافة متباعدة ... إلى آخر ما ذكره ، وسنذكره بل سنفصله » .

لكن أبادر فأقرر – بعد أن قرأت ما قاله وما مثل به لما قاله – [2] أنه لم يأت بجديد يستحق أسماء جديدة .

فالتلويح : عنده : كناية كثرت وسائطها ككثير الرماد وجبان الكلب ومهزول الفصيل .

والرمز عنده : كناية عدمت فيها الوسائط أو قلت مع خفاء اللزوم . كمفتول الذراعين وعريض الوسادة .

والإيماء : ويسميه أيضاً الإشارة – كناية عدمت فيها الوسائط أو قلت لكن مع وضوح اللزوم كقول أبى تمام يصف إبلا :

أبين فما يزرن سوى كريم   وحسبك أن يزرن أبا سعيد

فإنه فى إفادة أن أبا سعيد كريم غير خاف .

---

(1) دلائل الإعجاز ص ٢٣٧ – ٢٤٠ .

(2) مفتاح العلوم ص ١٩٤ وبغية الإيضاح ص ١٦٧ – ١٦٨ .

وكقول البحترى :

أوما رأيت المجد ألقـى رحلـه   فى آل طلحـة ثـم لـم يتحـول

فإنه فى إفادة أن آل طلحة أماجد ظاهر .

وكقول الآخر :

متـى تخلو تميم من كريـم   ومسلمـة بـن عمـرو مـن تميـم

والأمثلة السابقة كلها كناية : ومن السهل توزيعها على ما سبق من أقسامها .

* * *

أما التعريض :

فإنى أرى أن ما مثل به السكاكى له ليس كناية ، ولندعه هو يتكلم قال :

« والتعريض كما يكون كناية يكون مجازاً كقولك : آذيتنى فستعرف ، وأنت لا تريد المخاطب ، بل تريد إنساناً معه ، وإن أردتهما جميعاً كان كناية » .

وأقول : أما كونه مجازاً فنعم ، وهو مجاز مرسل علاقته اللزوم ، لأنه يلزم من تهديد المخاطب الذى اتخذه المتكلم ذريعة لتهديد المؤذى ، تهديد المؤذى نفسه من باب (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

لكن لابد في هذه الحالة من قرينة مانعة من فهم أن التهديد موجه حقيقة إلى المخاطب .

والعبارة بعد تعريض « وأنت لا تريد المخاطب بل تريد إنساناً معه » فهذا هو التعريض نصاً . وأما كونه كناية إذا أرادهما جميعاً .

فإنى أسأل : على أى أساس يريدهما المتكلم جميعاً ؟ علماً بأن المقصود بالتهديد إنما هو المؤذى فعلاً لا المخاطب .

ولنفرض ـ جدلاً ـ أن المتكلم أرادهما معاً بتهديده .

إن الكلام فى هذه الحالة يكون حقيقة لا مجازاً ولا كناية .

بقي احتمال أخير هو أن يكون المتكلم قد استعمل العبارة المذكورة استعمالين مختلفين ، حقيقياً ومجازياً معاً أى بنطق واحد فقط .

وهذا مستحيل عقلاً فضلاً عن أنه مرفوض بلاغة ، لأنه لا ترد عليه ولا يمكن أن ترد د/ به فى هذا الاستعمال المزدوج علاقة جامعة ولا قرينة مانعة .

* * *

ولنصل فى إقناع القارئ إلى أبعد من ذلك نقرر أن التعريض دلالة بالمفهوم لا بالمنطوق ، لأنه ـ لغة ـ خلاف التصريح ، واصطلاحاً : إمالة الكلام إلى عرض يدل على المعنى المقصود ، أى إلى جانب نفهم منه ما يريده المعرض ، تقول عرضت بفلان إذا قلت قولاً لغيره ، وأنت تعنيه به [1] .

ويقول القاضي لأحد المتهمين : أنت برئ . ويسكت عن الآخر ، وسكوته عنه تعريض به ، ومن حقه أن يفهم أنه وحده المتهم ، ولو لم يقل القاضى ذلك صراحة .

ويدق بابى زائر فى منتصف الليل فأفتح له وأبادره قائلاً :

كم الساعة الآن ؟

وسؤالى هذا تعريض بأنه زارنى فى وقت غير مناسب .

ومن طريف التعريض ما حكاه الرواة ـ وأنا أشك فى صحته ـ قالوا : دخل الفرزدق البصرة ودلف إلى سوق باديتها المعروف باسم المربد فألفى غلاماً ينشد شعراً جزلاً يشبه شعره ، فسأله : هل كانت أمك تأتى إلى دمشق ، وفهم الغلام تعريض الفرزدق بأمه فرد معرضاً بأم الفرزدق : بل أبى .

فهل هذا الحوار كناية ؟ بل هل فيما سبق من أمثلة التعريض كناية ؟ ! ونجيب ـ مطمئنين ـ : لا ومعذرة لشيخنا السكاكى .

لكن لماذا الكناية ؟

والإجابة مجموعة اعتبارات منها :

١ – **أن الكناية أبلغ من التصريح؛** لأنها فى كثير من صورها تعطي الدعوى ودليلها، والقضية وبرهانها ، والكلام المقرون بدليله أقوى من الكلام العارى عن الدليل والبرهان . يقول عبد القاهر :

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ ص ٣١١ .

« أما الكناية فإن السبب فى أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم - إذا رجع إلى نفسه - أن إثبات الصفة بإثبات دليلها وإيجابها بما هو شاهد فى وجودها ، آكد وأبلغ فى الدعوى من أن تجئ إليها فتثبتها هكذا ساذجاً غفلا ، وذلك أنك لا تدعى شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف ، وبحيث لا يشك فيه ، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط »[1] .

أوقع سيف الدولة ببنى كلاب فقال المتنبى :

فمساهم وبسطهم حرير ... وصبحهم وبسطهم تراب

وفى بيته هذا كنايتان :

الأولى (فمساهم وبسطهم حرير) كناية عن أنهم سادة أعزة منعمون بدليل أن بسطهم حرير .

والثانية « وصبحهم وبسطهم تراب » كناية عن أنه أذلهم وأفقرهم بدليل ما هم عليه الآن من افتراش التراب .

وقال آخر :

تجول خلاخيل النساء ولا أرى ... لرملة خلخالاً يجول ولا قلبا

فكنى عن سمنة رملة ، وامتلائها بتوقف خلاخيلها وأساورها عن الجولان ، لكأنه قال : إنها ممتلئة الأطراف بدليل ثبات خلاخيلها وأساورها فى أماكنها من ساقيها ومعصميها .

٢ - أن الكناية أسلوب حضارى مهذب .

تقول لوالد فتاتك جئتك طالباً القرب منك ، فتكون أكثر رقة وحشمة مما لو صرحت فقلت: جئتك طالباً الزواج من ابنتك أو نحو ذلك .

وقريب من هذا قول الفتاة التى سئلت عن أمها ؟

فكنت بقولها : ذهبت تشق النفس نفسين . فهو أجمل وأدخل فى باب الأدب بمعنى يه

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٧ - ٥٨ .

الاجتماعى والفنى مما لو قالت : ذهبت تولد فلانة زوجة فلان ، بل أكثر من ذلك تمكن الكناية صاحبها من أن يقول المستهجن من المعانى بالمهذب من الألفاظ .

يقول ابن سنان : ومما يستحسن من الكناية قول امرئ القيس :

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى إذلال

لأنه كنى عن المباضعة بأحسن ما يكون من العبارة [1] .

* * *

والقرآن الكريم فيما نحن بصدده وفى غيره المثل الأعلى ، فمن كناياته المعجبة قول الله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » .

فهو كناية بل دعوة إلى الوسط الذهبى فى الاقتصاد والمال وهو الاعتدال .

وقوله تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام » [2] .

كناية عما لابد منه لمن يأكل ويشرب

هذا هو المشهور فى تفسير الآية الكريمة . لكن نقل ابن سنان وبدر الدين الزركشى عن الجاحظ إنكاره ذلك وقوله : بل الكلام على ظاهره ، ويكفى فى الدلالة على عدم الألوهية نفس أكل الطعام ؛ لأن الإله هو الذى لا يحتاج إلى شئ يأكله ، ولأنه كما لايجوز أن يكون المعبود محدثاً كذلك لا يجوز أن يكون طاعماً .

أما ابن سنان فقد وافق الجاحظ بقوله تعليقاً على رأيه : « وهذا صحيح » وأما الزركشى فقد خالفهما بقوله :

« ويقال لهما : الكناية عن الغائط فيه تشنيع وبشاعة على من اتخذهما آلهة » [3] .

أما قوله تعالى : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٥٦

(٢) سورة المائدة ٧٥

(٣) انظر سر الفصاحة ص ١٥٨ والبرهان فى علوم القرآن جـ ٣ ص ٤٠٤ - ٤٠٥

وقوله تعالى « أو لامستم النساء »

وقوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ».

وقوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم » .

فهذه كلها كنايات بارزة تطرح مضامينها طرحاً فذا فيه الفنية والجمالية ، وفيه الطرافة والحشمة .

وتستشرف الآية الأخيرة التداعى الطبيعى بين الحرث والإنبات فى التربة الطبيعية ، والحرث والإنجاب فى التربة الإنسانية مع الإشارة اللطيفة إلى ما يستتبعه هذا ، ويستتبعه ذاك من زينة الحياة التى هى المال والبنون .

والحق أن الكنايات القرآنية تأتى في المقدمة إذا عددنا الدقائق الفنية التى أهلت القران الكريم لأن يكون معجزاً بنظمه .

فمن الفصاحة والبلاغة أن تضع الألفاظ موضعها الذى لا يحسن فيه غيرها . ومن وضع الألفاظ موضعها الذى لا يحسن فيه غيرها أن تكنى بها عما لا ينبغى التصريح به من قول أو فعل .

٢ – فى الكناية وبالكناية يقول الإنسان ما يريد أن يقول ، دون أن يكون لأحد عليه سبيل .

يقول مدير المدرسة للمدرس الذى يضرب تلاميذه : « يدك طويلة يا فلان » . وهى كناية عن أشياء :

منها ما قصده مدير المدرسة .

ومنها ما هو أفظع وأوجع .

ثم منها ما هو مدح يعتصم به مدير المدرسة لو انفتح عليه الباب لعتاب أو عقاب .

ومن الطرائف التى سمعتها ما عقب به سائق حافلة على قول أم لصغيرتها « اطلعى يا روحى » .

قال : « اطلعى يا أختى وبعد طلوعك تطلع روحك » .

والتحليل البلاغى لمقولته يقف بكلمة (روحك) فيها عند الكناية أو التورية .

وبين قوسين أقول : إنهما قريب من قريب ، فنحن فى الكناية نورى بالمعنى الأصلى عن المعنى الكنائى ، وفى التورية نكنى بالمعنى القريب عن المعنى البعيد .

ولست فى هذا وحدى بل معى ابن رشيق والعلوى والسكاكى يقول الأول : « وأما التورية فى أشعار العرب فإنما هى كناية بشجرة أو شاة أو بيضة أو ناقة أو مهرة أو ما شاكل ذلك »[1] .

ويقول الثانى : « وريت عن كذا إذا سترته ، وفي الحديث : كان ﷺ إذا أراد سفراً ورى عنه بغيره أى ستره وأوهم أنه يريد غيره ، وهذا نحو الكناية والتعريض والمغالطة والأحاجى والألغاز ، فهذه الألوان والصور كلها مشتركة فى كونها دالة على أمور بظاهرها ، ويفهم عند ذكرها أمور أخرى غير ما تعطيه بظواهرها[2] ..

وقال السكاكى : « أكثر متشابهات القرآن من التورية »[3] .

وسواء كانت كلمة (روحك) فى مقولة السائق كناية أو تورية أو حتى استعارة تصريحية فقد أدت جملة (وبعد طلوعك تطلع روحك) ـ وهى خبرية لفظاً إنشائية معنى ـ ما أراده قائلها منها وهو التشاؤم للأم بل الدعاء عليها بطلوع روحها أى بموتها ، ولولا كلامها قبلاً لساءت عاقبته فعلاً ، لكنه تحصن بما قالت فقال ما قال .

٤ - فى الكناية تقوية للجانب الإدراكى فى الأدب .

بالربط بين المعنوى والحسى ، قصداً إلى شد أزر المعنوى بالحسى .

أو بتكبير الصغير والتخويف من مغبته .

قال المتنبى يكذب صاحبته :

تشتكى ما اشتكيت من ألم الشو ق إليها والشوق حيث النحول

---

(١) العمدة جـ ١ جـ ٢ ٢١٣ .

(٢) الطراز جـ ٢ ص ٦٢ .

(٣) مفتاح العلوم ص ٢٠٢ والإيضاح جـ ٦ ص ٤٢ .

وقد علق ابن سنان على هذا البيت بقوله :

« كنى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية »[1] .

وإنما كانت أحسن كناية ، لأنها أثبتت بالدليل المادى كذب المرأة .

وهو ليس دليلاً مادياً فقط ، بل منطقياً أيضاً ، هو دليل مزدوج إذن ، وقد أفادت هذه الازدواجية الجانب الإدراكى فى الأدب ، بل أفادت الأداء الأدبى جملة .

وقال نصر بن سيار محذراً ومنذراً :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام

وفى قول نصر كناية بوميض النار التى يوشك أن يكون لها ضرام عما رآه واستشعره من ثورات فردية جسمية ونفسية توشك أن تتجمع وتستعلن فى ثورة عامة عارمة تقتلع الأمويين وتديل منهم .

---

(1) سر الفصاحة ص ١٥٧ .

— ٢ —

علم المعانى

علم المعانى

عرف السكاكى علم المعانى بأنه « تتبع خواص تراكيب الكلام فى الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره » (١) .

وهو يعنى بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عمن له فضل تمييز ومعرفة ، وهى تراكيب البلغاء لا الصادرة عمن سواهم .

* * *

ولم يرتض القزوينى تعريف السكاكي فعرفه بقوله : « هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربى التى يطابق بها مقتضى الحال » (٢).

وأحوال اللفظ فى تعريف القزوينى تشمل أحوال الجملة كالقصر والفصل والوصل والمساواة والإيجاز والإطناب ، كما تشمل أحوال أجزائها كأحوال الإسناد وأحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل .

وتقييد أحوال اللفظ بما يطابق مقتضى الحال للاحتراز عن الأحوال التى ليست كذلك مما يدرس فى علمى النحو والصرف بل مما يدرس فى العلمين الآخرين للبلاغة وهما علم البيان وعلم البديع ؛ لأن مباحثهما لا ينظر فيها إلى ناحية المطابقة أو عدمها .

وإذا كان لنا أن نفاضل بين تعريفى السكاكى والقزوينى ، فإننا نفضل تعريف القزوينى لأنه موجز وواضح .

ومع هذا فإن تعريف السعد فى المختصر لعلم المعانى أوجز وأوضح ثم إنه أدق . قال : «هو علم يعرف به كيفية تطبيق الكلام العربى لمقتضى الحال » (٣) .

ووجه الدقة فى تعريف السعد أنه قال (تطبيق الكلام) ولم يقل (أحوال اللفظ) فلم يضطرنا إلى ما اضطرنا إليه تعريف القزوينى من توضيح المراد بأحوال اللفظ .

(١) مفتاح العلوم ص ٧٧ .

(٢) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٢٧ .

(٣) مختصر سعد الدين التفتازانى على تلخيص المفتاح جـ ١ ص ٤٧ الطبعة الأولى ـ القاهرة سنة ١٣٤٠هـ . وانظر هامش رقم ٦ فى الإيضاح جـ ١ ص ٧٥ - ٧٦ بتحقيق محمد عبد المنعم خفاجى .

فلنقنع بتعريف السعد ولنشرع فى تحديد مباحث علم المعانى .

وقد حصرها القزوينى فى ثمانية أبواب . أولها أحوال الإسناد الخبرى ، وثانيها أحوال المسند إليه ، وثالثها أحوال المسند ، ورابعها أحوال متعلقات الفعل ، وخامسها القصر ، وسادسها الإنشاء ، وسابعها الفصل والوصل ، وثامنها الإيجاز والإطناب والمساواة [1] .

وأبادر فأنبه إلى أننى لن ألتزم فى دراسة مباحث علم المعانى بترتيب القزوينى لكن مخالفتى له لن تكون كبيرة .

كل ما هنالك أننى سأدرس الباب السادس وهو الإنشاء بعد الباب الأول وهو الإسناد الخبرى ؛ حيث إن الكلام ـ كما قال القزوينى نفسه ـ إما خبر أو إنشاء ، لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه ، أو لا يكون لها خارج .

الأول الخبر والثانى الإنشاء [2].

الإسناد الخبرى

مدخل :

الجملة هى النواة الأولى للكلام مهما كان طوله ونوعه ؛ ومهماكانت لغته ، ولا تُتصور الجملة . بغير نسبة شئ لشئ أى بغير الحكم على شئ بشئ ، وبعبارة بلاغية بغير إسناد شئ إلى شئ .

وهذان الشيئان متلازمان وهما ينحلان فى العربية إلى فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر نحوياً ، وإلى موضوع ومحمول منطقياً ، أما فى البلاغة ـ ولنتخلص بسرعة من النحو والمنطق ـ فيسمى أحدهما المسند إليه ويسمى الآخر المسند ، والمسند والمسند إليه هما الركنان الرئيسيان فى الجملة ، وهما عنصراها الأساسيان وجمل كثيرة تكتفى بهما وتقتصر عليهما .

نقول فى الجملة الفعلية : نجح الطلاب ، وتفوق المجتهدون : نجح : مسند والطلاب : مسند إليه ، وتفوق مسند ، والمجتهدون مسند إليه .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٢٨ – ٢٩ .
(٢) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٢٩ .

ونقول فى الجملة الاسمية : الطلاب ناجحون والمجتهدون متفوقون .

فلا يختلف الأمر فى شئ عما سبق فى الجملة الفعلية سوى أننا بدأنا فى الفعلية بالمسند وفى الاسمية بالمسند إليه .

كما أن جملاً كثيرة تنداح فتطول بما سماه البلاغيون (متعلقات المسند) وذلك إذا كان المسند فعلاً أو مافى معنى الفعل من الاسم المشتق والمصدر نقول : نجاح الطلاب فى الامتحان هذه السنة راجع إلى اجتهادهم ، ونجاح الطالبات فى المقررات هذا الفصل مشرف لهن وللقائمات والقائمين على شئونهن .

وبتحليل الجمل السابقة نجد أنها تتكون من المسند إليه والمسند أصلاً ؛ ومن متعلقات المسند فرعاً .

ومع أن هذه المتعلقات تؤدى وظائف شعورية وفكرية ، وتقوم بدور كبير فى تمديد الجملة ، وإقدارها على تعميق مضمونها ، إلا أن البلاغيين – وهم محقون – لم يجعلوها عناصر أساسية فى تكوين الجملة لا عن عدم تقدير منهم لها بل عن فهم صحيح لطبيعتها ، فهى توجد فى جملة دون جملة وتختلف فى جملة عنها فى جملة ، والبلاغيون مشكورون لأنهم أفردوها بمبحث خاص من مباحث علم المعانى لمحوا فيه وبه دلالاتها ، ثابتة ومتحركة فى أماكنها الأصلية ومتقدمة أو متأخرة عن أماكنها الأصلية .

* * *

ونعود إلى عنصرى الجملة لنقول : إن ما بينهما من إسناد أمر معهود فى كل جملة لا من حيث إنها اسمية أو فعلية بل من حيث إنها خبرية أو إنشائية .

ففى المثال : ذاكر الطالب دروسه نجد المسند هو (ذاكر) والمسند إليه هو (الطالب) ، ونجد متعلقاً واحداً هو (دروسه) .

ولو صرفنا الجملة عن الخبرية إلى الإنشائية فقلنا للطالب (ذاكر دروسك) لما اختلف الأمر من حيث الإسناد فى شئ عن الجملة الخبرية ، فالمسند هو فعل الأمر (ذاكر) والمسند إليه هو الضمير المستتر (أنت) والمتعلق هو (دروسك) .

الإسناد إذاً قاسم مشترك بين الجملتين : الخبرية والإنشائية ، وما سماه البلاغيون بالإسناد الخبرى وجعلوه مفتتح مباحث علم المعانى ، إنما هو وصف تقريرى لما هم بإزاء

دراسته ، قالوا (أحوال الإسناد الخبرى) وذكروا أضرب الخبر ومقاصده الحقيقية والبلاغية ، ثم استطرودا من الإسناد الخبرى إلى مكوناته الأصلية والفرعية وحين وصلوا إلى الإسناد الإنشائى سموه (الإنشاء) فقط ولم يسموه ـ كسابقه ـ الإسناد الإنشائى ، وهو كذلك نظرياً وعملياً ؛ لأنه القسيم الوحيد للإسناد الخبرى هكذا :



وإذا كانوا قد درسوا بمناسبة الإسناد الخبرى أحوال المسند إليه وأحوال المسند ومتعلقات الفعل ، بل زادوا فقالوا « والإسناد إما بقصر أو بغير قصر » .

فإنهم قد شُغلوا فى الإسناد الإنشائى لا بأجزائه كما فعلوا فى الإسناد الخبرى بل بأنواعه وأساليبه المختلفة من أمر ونهى واستفهام وتمن ونداء .

* * *

كفتا الميزان متعادلتان إذن ، والدراسة فى علم المعانى موزعة على الإسنادين الخبرى والإنشائى ، ثم تأتى الجملة ـ خبرية أو إنشائية ـ بعد جملة ـ خبرية كانت أو إنشائيا معطوفة على الأولى بالواو فيعطون لذلك مصطلح (الوصل) أو تأتى الجملة الثانية بعد الأولى غير معطوفة بالواو فيعطون لذلك مصطلح (الفصل) وتتوالى الجمل مكونةً كلاماً قل أو كثر فيصطلحون على أن الكلام إذا كان بحجم معانيه سمِّى (مساواة) ، وإذا زاد على معانيه سمى (إطناباً) وإذا قل عن معانيه سمى (إيجازاً) ، بهذا ينتهى علم المعانى بشطريه المتعادلين ، ويمكن أن نقول المتساويين .

الجملة الخبرية

الجملة الخبرية هى الجملة التى تحتمل الصدق والكذب لذاتها أى بصرف النظر عن قائلها ، وأيضاً بصرف النظر عن الواقع الذى يقابلها ، إذ لو نظرنا إلى قائلها أو إلى النسبة الخارجية التى قد توافقها وقد تخالفها ، لوجدنا جملاً خبرية كثيرة لا تحتمل صدقا ولا كذباً إما لأن قائليها منزهون عن الكذب وأخبارهم ـ لهذا ـ صادقة حتماً كأخبار الكتب المقدسة والأحاديث النبوية الشريفة ، وإما لأن قائليها كاذبون أصلاً كأخبار مدعى النبوة

فيما يحدثون به من نزول الوحى عليهم بأنهم أنبياء ورسل ، وأيضاً لوجدنا أخباراً كثيرة لا تحتمل صدقاً ولا كذباً لأنها توافق أو تخالف الحقائق الثابتة وهى لذلك بديهيات مسلمة كقولنا مما لا يحتمل ـ باعتبار الواقع ـ الكذب : الأب أكبر من الابن والشمس تطلع نهاراً والقمر يطلع ليلاً والسماء فوق والأرض تحت ، وكقولنا مما لا يحتمل ـ باعتبار الواقع ـ الصدق : الابن أكبر من الأب والشمس تطلع ليلاً والقمر يطلع نهاراً والسماء تحت والأرض فوق ، لكن الأخبار السابقة كلها وما هو على شاكلتها تحتمل الصدق والكذب لذاتها أى بالنظر إلى مضامينها المجردة وبصرف النظر عن قائليها وعن الواقع الخارجى الذى يسامتها .

ويكون الخبر صادقاً إذا وافقت النسبة الكلامية النسبة الخارجية ، وكاذباً إذا خالفت النسبة الكلامية النسبة الخارجية .

أقول : نجح محمد ، هذه نسبة كلامية ، فإذا كان محمد قد نجح فعلاً تكون النسبة الكلامية قد طابقت النسبة الخارجية ويكون إخبارى بنجاح محمد صدقاً وإذا كان لم ينجح بل رسب يكون إخبارى بنجاحه كذباً .

وأقول : رسب فلان ، فإذا كان قد رسب فعلاً يكون إخبارى برسوبه صدقاً وإذا كان لم يرسب بل نجح يكون إخبارى برسوبه كذباً .

هذا فقط هو المقياس الصحيح والوحيد لصدق الخبر أو كذبه : « صدقه هو مطابقة حكمه للواقع ، وكذبه هو عدم مطابقة حكمه له » .

يقول القزوينى وهو صاحب الجملتين الأخيرتين « هذا هو المشهور وعليه التعويل » ، لكن ذهب إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام وهو أستاذ الجاحظ إلى أن صدق الخبر إنما هو مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ ، وكذبه إنما هو عدم مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صواباً كان أو خطأ .

وبناءً على هذا الرأى للنظام يكون قول القائل : السماء تحتنا معتقداً ذلك صدقاً وقول القائل : الأرض تحتنا غير معتقد ذلك كذباً .

وقد بَهَتَ النظام على تلميذه الجاحظ فأنكر انحصار الخبر فى الصدق والكذب ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق وكاذب وغير صادق ولا كاذب .

فالخبر الصادق عند الجاحظ هو المطابق للواقع مع الاعتقاد بأنه مطابق للواقع والخبر الكاذب عنده هو الذى لا يطابق الواقع مع الاعتقاد بأنه غير مطابق للواقع أما الخبر الذى ليس بصادق ولا كاذب فله أربع صور هى :

(أ) الخبر المطابق للواقع مع اعتقاد قائله بأنه غير مطابق للواقع .

(ب) الخبر المطابق للواقع دون اعتقاد ما .

(جـ) الخبر غير المطابق للواقع مع اعتقاد قائله بأنه مطابق للواقع .

(د) الخبر غير المطابق للواقع دون اعتقاد [1] .

وإنى ليأخذنى العجب من تعكير صفو البلاغة العربية بهذا الكلام للنظام والجاحظ وهو من علم الكلام فى الصميم ، وليس من علم البلاغة فى شئ قل أو كثر ، لكنها الغفلة الغليظة ممن تعبد به من البلاغيين قدماء ومحدثين وهم والحمد لله قلة ، ومع أنهم قلة فإنى أسأل : أين كانت هذه القلة من قيد (لذاته) فى تعريف الخبر ؟ !!!

وإذا كان هذا القيد قد قطع الصلة بين الخبر وقائله كائناً من كان هذا القائل كما قطع الصلة بين الخبر والواقع القاطع بصدقه أو كذبه ، أفلا يقطع الصلة بين الخبر ومعتقد قائليه ولو كانوا إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان ، وإلى الجنون أقرب منهم إلى العقل ، وإلى الغباء المطبق أقرب منهم إلى الذكاء الكاشف ؟!!!

لكنه الخبط العشوائى فى التأليف البلاغى ، ولكنه الترديد الببغائى لبعض ما يقال أو يكتب .

أضرب الخبر

أضرب الخبر إما أن تأتى على حسب ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب ، وإما أن تأتى على خلاف ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب . هى قسمان إذنْ ، والقسمان متعاقبان حتماً أى يأتى أولهما قبل ثانيهما ضرورة ، ومن البلاغيين من فضَّل القسم الثانى على القسم الأول .

---

(١) انظر بغية الإيضاح جـ ١ ص ٣٠ – ٣٢ وعلم المعانى لعبد العزيز عتيق ص ٤٤ طبعة دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤ م .

قالوا : لدقة مسلكه وحسن موقعه في النفس ، وقد بلغ من حماس بعضهم له أن جعله من باب الكناية مرة ، ومن باب الاستعارة مرة [1] .

والحق أنه من مستتبعات الكلام ، ومستتبعات الكلام لا تأخذ تسمية أصلية بل فرعية كما فعل من قبلنا ، وكما سنفعل نحن هنا . والله الموفق .

القسم الأول : الخبر الجاري على مقتضى ظاهر حال المخاطب :

للخبر الجاري على مقتضى ظاهر حال المخاطب ثلاثة أضرب هي :

الابتدائي والطلبي والإنكاري ، وأساس هذا التقسيم إنما هو الحالة الذهنية للمخاطب .

فإن كان خالي الذهن مما ستقوله له ألقينا عليه الخبر غير مؤكد ، وهذا هو الضرب الابتدائي ومن أمثلته قول أبي تمام :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ... ويكدى الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الأرزاق تجرى على الحجا ... هلكن إذنْ من جهلهن البهائم

وقول أبي بكر الأرجاني :

ذهب التكرم والوفاء عن الورى ... وتصرّما إلا من الأشعار

وفشت خيانات الثقات وغيرهم ... حتى اتهمنا رؤية الأبصار

وقول المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ... وأسمعت كلماتى من به صمم

أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جرّاها ويختصموا

وقوله :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم [2] ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

---

(١) انظر هامش رقم ٢ ص ٢٩ جـ ١ بغية الإيضاح .

(٢) هذه الشطرة ضربها طلبى ؛ لأنها أسلوب قصر .

وإن كان المخاطب متصوراً طرفى الخبر ولكنه شاك فى ثبوت أحدهما للآخر ، حسن تقويته له بمؤكد واحد ؛ فمن بلاغة الكلام الاقتصار منه على قدر الحاجة فقط وهذا هو الضرب الطلبى ، وقد سمى طلبياً لأن المخاطب به متردد فى تصديق مضمونه وطالب بلسان حاله معرفة حقيقته ، ومن أمثلته قول لبيد :

إن المنايا لا تطيش سهامها

وقول النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمه — على شعث أى الرجال المهذب

وقول الشريف الرضى :

قد يبلغ الرجل الجبان بماله — ماليس يبلغه الشجاع المعدم

وقول أبى العلاء فى الرثاء :

إن الذى الوحشة فى داره — تؤنسه الرحمة فى لحده

وقوله فى الحكمة :

إذا ما الأصل أُلفِى غير زاك — فلا تزكو مدى الدهر الفروع

وقول أبى نواس :

عليك باليأس من الناس — إن غنى نفسك فى الياس

وإن كان المخاطب منكراً مضمون الخبر ومعتقداً خلافه ، وجب توكيده بمؤكدين أو أكثر ليزايله إنكاره ويصبح اعتقاده وهذا هو الضرب الإنكارى وواضح أن هذا الضرب قد سمى إنكارياً لأن المخاطب به منكر له ومعتقد خلافه .

مثاله من القرآن الكريم قول الله تعالى : « قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » .

ومن الشعر قول حسان بن ثابت رضى الله عنه :

وإنى لحلو تعترينى مرارة   وإنى لتراك لما لم أعود

وقول المعرى :

ألا إن أخلاق الفتى كزمانه   فمنهن بيض فى العيون وسود

وقوله :

لقد نفق الردئ ورب مر   من الأقوات يجعل فى الصحاف

وقول الأرجانى :

إنا لفى زمن ملآن من فتن   فلا يُعاب به ملآن من فرق

وقول الآخر :

والله إنى لأخو همة   تسمو إلى المجد ولا تفتر

القسم الثانى :

الخبر الجارى على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب

والصور الممكنة لخروج الخبر على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب كثيرة منها:

١ - تنزيل العالم بمضمون الخبر منزلة الجاهل به لعدم عمله بعلمه :

كقولنا للمسلم الذى لا يصوم رمضان وهو قادر على صومه « صوم رمضان أوجبه الإسلام » الأصل ألا نقول له ذلك ؛ لأنه يعلمه ، لكنه لمّا لم يعمل بما يعلم نُزِّل منزلة الجاهل بما قلناه له .

٢ - تنزيل خالى الذهن منزلة المتردد :

وذلك إذا قدم له ما يلوِّح بحكم الخبر فيستشرف له استشراف السائل عنه ومن أمثلة ذلك الآيات والأبيات الآتية :

قول الله تعالى لنوح عليه السلام : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » .

قول الله تعالى للناس كافة : « يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم » .

قول الله تعالى لمحمد ﷺ : « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » .

وقول بشار :

بكرا صاحبىّ قبل الهجير ... إن ذاك النجاح فى التبكير

والمتنبى :

ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجانى عتاب

ولبعض العرب :

فغنها وهى لك الفداء ... إن غناء الإبل الحداء

٢- تنزيل خالى الذهن منزلة المنكر:

وذلك إذا كان مضمون الخبر شيئاً معنوياً يحتاج فى إدراكه والاقتناع به إلى تأمل وتدبر مثل : إن الاستغراق فى أحلام اليقظة لمضيعة للوقت ، وإن الفراغ لمفسدة .

أو كان بشارة عظيمة تكاد من عظمتها لا تصدق كقول الله تعالى :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أو كان رداً على تصرف خاطئ من خالى الذهن ، كقول حجلة بن نضلة القيسى [1] .

جاء شقيق عارضاً رمحه ... إن بنى عمك فيهم رماح

فمجئ شقيق هكذا مدلاً بشجاعته ، قد وضع رمحه عرضاً دليل على اعتداد شديد منه بنفسه واعتقاد أنه لا يقوم له من بنى عمه أحد كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح وقد اقتضى حاله هذا توكيد الخبر له بمؤكدين اثنين هما « إن » والجملة الاسمية المؤداة بطريق القصر « فيهم رماح » .

---

(١) حجلة ـ بفتح الحاء والجيم ـ لقبه ، ونضلة : أمه ، واسمه أحمد بن عمرو بن عبد القيس .

وعلى هذا جاء قول الله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » فالمخاطبون بالآية الكريمة لا ينكرون أنهم سيموتون لكنهم برغم ذلك يتصرفون وكأنهم مخلدون .

٤ - تنزيل المتردد منزلة خالي الذهن :

وذلك إذا لم يكن هناك داع لتردده ، فلا نؤكد له الخبر بأى مؤكد .

نقول للطالب المتفوق دائماً لكنه برغم تفوقه الدائم متخوف من نتيجة الامتحان نقول له : أنت من الناجحين أى ستكون من الناجحين،

هكذا دون تأكيد.

٥ - تنزيل المتردد منزلة المنكر :

وذلك إذا كانت درجة تردده عالية فنؤكد له الخبر بأكثر من مؤكد .

نقول للطالب الذى لم يرض عن إجابته وتصور أنها لا تنجحه ، نقول له وقد نجح « إنك قد نجحت » .

٦ - تنزيل المنكر منزلة خالي الذهن :

وذلك إذا كان لديه ما إن تأمله ارتدع عن إنكاره ، فإننا والحالة هذه لا نؤكد له الخبر بأي مؤكد كقولنا لمنكر الإسلام «الإسلام من عند الله» ولمنكر فضل العلم «العلم ينفع العباد والبلاد»، ومن ذلك قول الله تعالي لمنكرى وحدانيته: «وإلهكم إله واحد».

٧ - تنزيل المنكر منزلة المتردد إذا كانت درجة إنكاره غير عالية :

وفائدة تنزيل المنكر منزلة المتردد تقليل التوكيد له كقولنا للمنكرة حب زوجها لها « إن زوجك يحبك » وقولنا للمنكر فضل الاجتهاد «إن الاجتهاد يحقق للمرء ذاته»

هكذا بمؤكد واحد مع أن المخاطب منكر .

ومن ذلك قول الله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

أدوات توكيد الخبر

اللغة العربية غنية بالأدوات التى تزيد من فاعلية الجملة وتؤكدها ، وهذه إلمامة موجزة ببعض هذه الأدوات وبيان وجه كونها مؤكدة .

١ - اسمية الجملة :

وهى لا تكون مؤكدة على سبيل الاستقلال بل بالتبعية ، فإن كان هناك مؤكد آخر جعلت اسمية الجملة من المؤكدات وإلا فلا .

هذا ما قالوه ، ولا أقرهم عليه بل هى عندى تفيد التوكيد وحدها مثلما تفيده ومعها غيرها ؛ فاسمية الجملة أمر متحقق لها فى ذاتها وما يترتبْ عَلى هذه الاسمية من التوكيد إنما هو لاسميتها هى نفسها وليس لمساعدة غيرها لها ، وإذا كان ذلك كذلك فلا يستقيم أن تكون مؤكدة مرة وغير مؤكدة أخرى .

حكى الله تعالى عن رسل عيسى عليه السلام حين أرسلهم إلى أهل أنطاكية قال : « واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ، قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شئ ، إن أنتم إلا تكذبون قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » .

حين كذب الرسل فى المرة الأولى قالوا : « إنا إليكم مرسلون » وفى قولهم هذا ثلاثة مؤكدات هى « إن » و« اسمية الجملة » والقصر بتقديم (إليكم) على (مرسلون) .

وحين كذبوا فى المرة الثانية قالوا : « ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » وفى قولهم هذا توكيد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة والقصر .

وإنما كانت الجملة الاسمية مؤكدة لأنها تفيد بأصل وضعها ثبوت شئ لشئ وتفيد بالقرائن الدوام والاستمرار ، وهاتان الإفادتان مشروطتان بأن يكون خبرها مفرداً أو جملة اسمية ، فإذا كان خبرها جملة فعلية أو شبه جملة أفادت التجدد ، وهذا يعنى أن الجملة الاسمية فى جميع حالاتها أفضل من الجملة الفعلية التى تقتصر بأصل وضعها على إفادة حدوث شئ ما فى زمن معين .

***

ويحسن التنبيه إلى أن الجملة الاسمية لا تخرج بالضرب الطلبى إلى الضرب الإنكارى إذا صحبها مؤكد آخر كما فى رقم (٢) من الخبر الجارى على خلاف مقتضى ظاهر حال المخاطب صـ١٣١، ١٣٢.

لكن إذا اقتصرت الجملة على الاسمية جاز التمثيل بها للضرب الطلبى مثل العلم نور والزواج عصمة والقناعة كنز لا يفنى.

وجاز التمثيل بها للضرب الابتدائى؛ فاسمية الجملة- لإفادتها الثبوت- لاتضارع أدوات التوكيد المتمحضة لذلك كقد وإنَّ والقسم ولام القسم ونونى التوكيد... إلى آخره.

٢ - إنَّ:

فهى فضلاً عن أنها تنصب المبتدأ وترفع الخبر تؤكد مضمون الجملة ، تقول : إن النجاح مفرح ، فكأنك كررت الجملة ، والتكرار توكيد لفظى كما نعلم .

٣ - أما الشرطية:

فهى حرف شرط وتفصيل وتوكيد قال تعالى : « إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً » .

وقال الشاعر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه فحلـو وأما وجهـه فجميل

ووجه إفادة « أما » التوكيد أنها تفيد الخبر قوة ، تقول : محمد ناجح . فإذا أردت توكيده قلت : أما محمد فناجح .

٤ - لام الابتداء:

فهى تؤكد مضمون الخبر ، ومن يتتبعها يجد أنها تدخل على المبتدأ مثل لأنت أول الناجحين ، وعلى خبرإنَّ اسماً كان مثل « إن ربى لسميع الدعاء » .

وفعلاً مضارعاً مثل « إن ربك ليحكم بينهم » كما تدخل على شبه الجملة قال تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » .

٥ - السين :

فهى إذا دخلت على فعل محبوب أو فعل مكروه أفادت أنه واقع حتماً .

وسبب ذلك أنها تفيد الوعد أو الوعيد بمادخلت عليه ودخولها عليه مفيد توكيده . ومن مجيئها فى الوعد قول الله تعالى : « أولئك سيرحمهم الله » . ومن مجيئها فى الوعيد قوله عزّ وجل : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ».

٦ - القسم :

وأحرف القسم هى الباء والواو والتاء .

ولأن الباء هى الأصل فى حروف القسم نجدها تدخل على كل مقسم به اسماً ظاهراً مثل : أقسم بالله ما نسيتك ، وضميراً مثل : أقسم به فى علاه إنى لبرئ .

أما الواو فلا تدخل إلا على الاسم الظاهر مثل : والله إنى لصادق ، ولعمرى إنى لأحب عملى .

والتاء كالواو فى أنها لا تدخل إلا على الاسم الظاهر ، لكن هذا الاسم الظاهر يجب أن يكون لفظ الجلالة (الله) مثل « تالله لأكيدن أصنامكم » .

وإنما كان القسم توكيداً لدلالته على شدة ثقة المقسم بأن ما أقسم عليه حق ، وفى هذا إقناع للمخاطب بأن الملقى عليه لا ريب فيه .

٧ - قد التى تفيد التحقيق :

مثل : « قد أفلح المؤمنون » ، « قد أفلح من تزكى » ، « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » ، « قد جاءكم الحق من ربكم » ، « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك » ، « قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل » .

وواضح أن « قد » فى الآيات السابقة قد قوت مضامينها وأكدتها .

٨ - نونا التوكيد :

وقد اجتمعتا فى قوله تعالى على لسان امرأة العزيز « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » .

٩ - ضمير الفصل (هو) :

وهو ضمير يؤتى به لتمييز الخبر عن الصفة فى مثل « محمد هو الرسول » فلو حذفت (هو) وقلت « محمد الرسول » لوقع متلقي خبرك فى حيرة ولم يعرف : هل الرسول صفة لمحمد أو خبر له ، فإذا أعدت الضمير إلى مكانه تعين أن الرسول خبر لا صفة .

ولأن ضمير الفصل يزيل إبهام الجملة التى يتخللها وفى هذا تقوية لها ، كان من أدوات توكيد الخبر .

١٠ - حروف التنبيه :

وأشهرها (أما) و (ألا) بتخفيف (ما) ، و (لا) وفتح الهمزة فيهما .

ويكثر مجئ (أما) قبل القسم لتنبيه المخاطب على الإصغاء للقسم وعلي أن المقسم عليه أمر مؤكد ؛ قال أبو صخر الهذلي :

أما والذى أبكى وأضحك والذى .٠.أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى .٠.أليفين منها لا يروعهما النفر

و (ألا) مثل (أما) في إفادة التنبيه وفى الدلالة على تحقق ما بعدها قال تعالى : « ألا إلى الله تصير الأمور » وقال سبحانه « ألا له الخلق والأمر » .

١١ - الحروف الزائدة وهى كثيرة منها :

(أ) «أنْ» المفتوحة الهمزة الساكنة النون ، وهى تزاد بعد لمّا لتأكيد الخبر الذى وردت فيه مثل « فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا » .

(ب) «إنْ» المكسورة الهمزة الساكنة النون مثل : ما إن ذاكرت ، أصلها ما ذاكرت ، وقد اكدتها «إنْ» .

(جـ) « ما » وهى لا تزاد إلا للتوكيد .

من سينية البحترى :

وإذا ما جفيت كنت حريا أن أرى غير مصبح حيث أمسى

ومن وصف البارودى لبعض مظاهر شيخوخته :

لا أرى الشئ حين يسنح إلا كخيال كأنني فى ضباب

وإذا ما دعيت حرت كأنى أسمع الصوت من وراء حجاب

وتقول ، جئتك من غير ما ضغط ؛ أى من غير ضغط أى ضغط .

(د) « لا » :

كقوله تعالى « لئلا يعلم أهل الكتاب » ، « فلا أقسم بمواقع النجوم » .

(لا) زائدة فى الآيتين لتأكيد المعنيين ، والأصل ، ليعلم أهل الكتاب فى الأولى ، وأقسم بمواقع النجوم فى الثانية .

(هـ) ـ « مِنْ » وهى تزاد تأكيداً لعموم ما دخلت عليه إذا سبقها نفى مثل « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ، « وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » ، « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » .

(و) « الباء » فمن استعمالاتها أنها تزاد لتأكيد ما بعدها وهى تزاد كثيراً فى الخبر المنفى بليس وبما .

قال معن بن أوس :

ولست بماش ما حييت لمنكر من الأمر لا يمشى إلى مثله مثلى

وقال تعالى : « لست عليهم بمسيطر » .

وقال سبحانه : « وما الله بغافل عما يعمل الظالمون » صدق الله العظيم (١) .

(١٢) ـ أسلوب القصر ، لأن جملة القصر بمثابة جملتين ولأنها كذلك تفيد التوكيد وانظر باب القصر .

---

(١) انظر (علم المعانى) للدكتور درويش الجندى ص ٢٧ – ٢٨ ، الطبعة الثانية ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م ـ القاهرة . و (علم المعانى) للدكتور عبد العزيز عتيق ص ٥٨ – ٦٤ .

أغراض الخبر

للخبر غرضان رئيسيان حقيقيان هما :

١ - **فائدة الخبر** : وهو غرض مباشر ، وذلك إذا كان المخاطب به يجهل مضمونه قبل أن نقوله له أو قبل أن يقرأه ؛ كأن أقول أو أكتب لمن يجهل ما سأقول أو أكتب : جامعة القاهرة كان اسمها جامعة الملك فؤاد ، وجامعة عين شمس كان اسمها جامعة إبراهيم وجامعة الإسكندرية كان اسمها جامعة فاروق .

وكأن أقول فى التعريف بنفسى ، اسمى كذا وسنى كذا وجنسيتى كذا وحصلت من الشهادات على كذا وكذا وكذا .

٢ - **لازم فائدة الخبر** وهو غرض غير مباشر ، وذلك إذا كان المخاطب بالخبر يعلم مضمونه ، ولكنه يجهل أن المتكلم يعلمه ، فقد استفاد المخاطب حينئذ لا الخبر بل ما اقتضاه ولزمه وترتب عليه وهو علم المتكلم به ، كأن أقول لمن رأيته يسقى حديقته ولم يرنى : كنت تسقى حديقتك أمس . ولمن سمعت حديثه الإذاعى : سمعتك وأنت تتحدث فى الإذاعة ، ولمن رأيته فى المطار ولم يرنى : كنت فى المطار صباح اليوم .

هنا لم أفد المخاطبين مضامين الأخبار التى قلتها لهم فهم لاشك يعلمونها لأنهم أصحابها ، وإنما أفدتهم ما ترتب عليها وهو رؤيتى لهم ومعرفتى بما كان منهم .

* * *

هذان هما الغرضان الحقيقيان للخبر ..

ولا تقتصر وظيفة الخبر على هذين الغرضين الحقيقيين . بل تتجاوزهما إلى أغراض أخرى تسمى الأغراض البلاغية ، وأغراض الخبر البلاغية كثيرة منها :

١ - الإسترحام والإستعطاف :

كأن يقول الطالب المحروم من الامتحان بسبب الغياب لعميد كليته :

هذا آخر فصل لى ، وأبي ينتظر تخرجى لأنه فقير وسأكون عائل الأسرة بعد التخرج، كان تغيبى لظروف قاهرة . وكقول المؤمن : إنى فقير إلى عفو الله .

ومن ذلك قول الشاعر يناجى ربه :

فمالى حيلة إلا رجائى ... لعفوك إن عفوت وحسن ظنى

يظن الناس بى خيراً وإنى ... لشر الناس إن لم تعف عنى

وقول المتنبى مستعطفاً من حبسه :

دعوتك عند انقطاع الرجا ... ء والموت منى كحبل الوريد

دعوتك لما برانى البلاء ... وأوهن رجلى ثقل الحديد

وقول إبراهيم بن المهدى يستعطف الخليفة المأمون ويسترحمه :

اتيت جرماً شنيعاً ... وأنت للعفو أهل

فإن عفوت فمنٌّ ... وإن قتلت فعدل

وقول يحيى البرمكى مستعطفاً هارون الرشيد :

إن البرامكة الذيـ ... ن رُموا لديك بداهيه

صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه

٢ - إظهار الضعف :

كقول الأب المسن لابنه الذى يساعده على ركوب فرسه : لقد كبرت ، وكقول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام « إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » وكقول الشاعر :

إن الثمانين وبلغتها ... قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وكقول أبى نواس :

دبَّ فىَّ السقام سفلا وعلوا ... وأرانى أموت عضوا فعضوا

٣ - التحسر على شيء محبوب :

كقول الله تعالى حكاية عن أم مريم : « إنى وضعتها أنثى » وكقول الأب الثاكل : « مات وحيدى وتركنى أصحب الدنيا بلا أمل » .

وكقول ابن العم : « رفضتنى ابنة عمى وارتضت غيرى » .

وكقول من لم يوفق فى الامتحان : رسبت .

ومن ذلك قول المتنبى

أقمت بأرض مصر فلا ورائى ... تخب بى الركاب ولا أمامى

٤ - تحريك الهمة والحث على العمل :

كقول الله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » .

وقوله سبحانه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

وقوله عز وجل « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل امرئ بما كسب رهين » .

ومن ذلك قول شوقى :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

وقول الآخر :

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيت على وجل

وهذه الأقوال الحكيمة :

فليس سواء عالم وجهول .

ومن طلب العلا سهر الليالى .

من عرف قدر ما يطلب ، هان عليه ما يبذل .

٥ - التهديد :

كقول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

وكقول على بن المقرب :

لأقيمن لأبناء الوغى سوق إقدام وطعن وجلاد

إن يكن عز وإلا فردى لست من دون شبيب ومعاد

وقوله :

سأطلب حق آبائى وحقى ولو من بين أنياب الأفاعى

٦ - التحذير:

كقولي على مسمع ممن ضرب ابني : سأرد الصاع صاعين لمن يعتدى على ولدى بعد اليوم ؛ وكقول النبي ﷺ « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وكهذين القولين الحكيمين :

أصحاب البيوت الزجاجية لا يقذفون بيوت الآخرين بالحجارة .

من نخل الناس غربلوه .

وكقول على بن المقرب :

إن ترى شخصى لأمر ساكناً　　فلعمرى إن قلبى فى طراد

رُبَّ ذى هم تراه مطرقاً　　وهو فى إطراقه حية واد

٧ - النصح:

مثل : التاجر الأمين يقبل الناس على الشراء منه .

وكقول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه　　لا يذهب العرف بين الله والناس

وكهذه الأقوال الحكيمة :

« ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك ، » ، « من نصحك أمام الناس فقد شتمك » ، « العاقل من لا يؤخر عمل اليوم إلى الغد » « أن ترد الماء بماء أوفق » .

٨ - التوبيخ المحض:

كقولك لمسلم مكلف لا يصلى « الصلاة فريضة على كل مسلم ومسلمة » ولشخص لا يهتم بنظافة جسمه وملابسه : « النظافة من الإيمان » ، ولمن يصطدم بك نهاراً : « الشمس طالعة » ومن ذلك قول الحماسية :

وأنت الذى أخلفتنى ما وعدتنى　　وأشمت بى من كان فيك يلوم

وكالتوبيخ المحض ، التوبيخ المبطن بالتهكم كقولى لمن خان عهدى :

« أنت وفى جداً يا صديقى » ، ولابنى الذى لا يراسلنى : « رسائلك كالمطر » .

٩ - الفخر:

كقول عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا

وقول الفرزدق :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وقول جرير :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضابا

وقول أبى فراس الحمدانى :

إنا إذا اشتد الزمان وناب خطب وادلهم
ألفيتَ حول بيوتنا عُدَدَ الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض السيوف وللندى حمر النعم
هذا وهذا دأبنا يودى دم ويراق دم

وقول حافظ إبراهيم على لسان مصر :

أنا إن قدر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

وعلى لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آى به وعظات

١٠ - المدح:

كقول النابغة :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول زهير بن أبى سلمى :

وأبيض فياض يداه غمامة على معتفيه ما تغب فواضله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وقول المتنبى :

أرى كل ذى ملك إليك مصيره كأنك بحر والملوك جداول
إذا مطرت منهم ومنك سحائب فوابلهم طل وطلك وابل

١١ - الهجاء:

كقولنا : فلان انحط فى سلوكه إلى درجة يخجل منها ذووه .

وكقول الشاعر :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصـــــوّت إنســـــان فكـدت أطـــــير

وقول على بن المقرب فى هجاء بطانة الحكام العيونيين :

ومــا منهــم إلا مهين رمــــت بــه
أبــوة ســـوء مـــن إمـــاء جــلائب
أخو مومس أو صنوها أو حليلهـا
فقد حُفَّ بالسوءات من كل جانب
ومـا زال نتن الخيم والأصل مولعاً
ببغضـــاء أربــاب العــلا والمناقـب

١٢ - الرثاء:

كقول ابن المقرب أيضاً :

رزئــــت ملوكـــاً لو بكيت لفقدهم دماً ما كفانـــى عمر نـــوح ولقـمـان
بهم كنت أرمى من رمانى وأتقى بهم نائبات الدهر من حيث تلقـانى

وكقولنا : كان فلان رحمه الله براً بأهله وأقاربه عطوفاً على الفقراء والمساكين .

١٣ - التحسين:

وهو ضرب من المدح كقولك لحائك ثيابك :

من يرى الثياب التى تخيطها يخالها مستوردة ، أو من أرقى بيوت الأزياء .

١٤ - التقبيح:

وهو ضرب من الهجاء كقول الشاعر :

وإذا أشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

وكقولي لجارى الذى لامنى لأن رأيت زوجته : لقد رأيت خنفساءك عرضاً لا قصداً .

١٥ - إظهار الفرح:

كقول الشاعر :

هناء محا ذاك العزاء المقدما

فما عبس المحزون حتى تبسما

وكقول الطالب الناجح : نجحتُ .

* * *

انتهت أغراض الخبر بنوعيها الحقيقى والبلاغى .

ويحسن التنبيه إلى أن الغرض الأول من النوع الأول وهو فائدة الخبر يستفاد من ذات الخبر .

أما الغرض الثانى من النوع الأول ، وأغراض النوع الثانى كلها فإن دلالة الخبر عليها تبعية لا أصلية .

* * *

كما يحسن التنبيه إلى أن الجملة من وجهة نظر علم المعانى تنقسم إلى جملة رئيسية وهى الجملة المستقلة التى لا تكون قيداً فى غيرها ، وإلى جملة غير رئيسية (فرعية) وهى التى تكون قيداً فى غيرها وليست مستقلة بنفسها .

ففى المثال : جاء محمد يضحك أو وهو يضحك .

جملة جاء محمد هى الجملة الرئيسية ؛ لأنها مقصودة لذاتها ، وهى لهذا ليست قيداً فى غيرها ، أما جملة (يضحك) أو (وهو يضحك) فهى الجملة غير الرئيسية ، لأنها ليست مقصودة لذاتها ، بل لتبين حال محمد وقت مجيئه وهى بهذا أو لهذا قيد فى الجملة الرئيسية.

وفى المثال : إمام المسجد شيخ تقدمت به السن .

(جملة « إمام المسجد شيخ » هى الجملة الرئيسية ؛ لأنها مقصودة لذاتها وليست قيداً فى غيرها ، وجملة « تقدمت به السن » هى الجملة غير الرئيسية لأنها غير مقصودة لذاتها بل لتبين صفة الشيخ ، وهى بهذا أو لهذا قيد فى الجملة الرئيسية .

* * *

والأهمية أو عدم الأهمية ، هذه أو تلك غير مرتبطة بكون الجملة أصلية أو فرعية ، فقد تكون الجملة فرعية وهى فى غاية الأهمية وقد تكون الجملة أصلية وهى أقل أهمية .

* * *

الإسناد الإنشائى

مدخل

سبق القول بأن الكلام إما خبر وإما إنشاء ، وقد فرغنا من الكلام على القسم الأول وهو الخبر ، ونحن الآن مع القسم الثانى ، وقد سماه السكاكى الطلب أما القزوينى فسماه الإنشاء ، ولا خلاف بين التسميتين ، فالسكاكى يقول : « والطلب إذا تأملت نوعان : نوع لا يستدعى فى مطلوبه إمكان الحصول ، ونوع يستدعى فيه إمكان الحصول »[1] .

والقزوينى يقول : « الإنشاء ضربان : طلب وغير طلب ، والطلب يستدعى مطلوباً غير حاصل وقت الطلب لامتناع تحصيل الحاصل ، وهو المقصود بالنظر هنا »[2] .

ونفهم من عبارة « وهو المقصود بالنظر هنا » أن غير الطلب غير مقصود بالنظر فى علم المعانى ، ولأنه كذلك أهمله القزوينى فلم يعرِّف به ولم يمثل له ، قالوا : لقلة المباحث البلاغية المتعلقة به ، ولأن أكثر أنواعه فى الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء[3] .

وإذا كان القزوينى لم يتطرق إلى غير الطلب فإن أكثر البلاغيين بعده قد تطرقوا إليه ولعلهم فعلوا ذلك تمييزاً له عن الإنشاء الطلبى ، أو تمييزاً للإنشاء الطلبى عنه وسنسلك هنا مسلكهم . والله الموفق .

الإنشاء:

الإنشاء ـ طلباً أو غير طلب ـ هو الكلام الذى لا يحتمل صدقاً ولا كذباً ، لأنه لا يخبر بحصول شئ أو عدم حصوله فيكون له واقع خارجى يطابقه أو لا يطابقه وإنما هو طلب على سبيل الإيجاب مثل : اجتهد ، أو على سبيل السلب مثل : لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد .

وعدم احتمال الجملة الإنشائية للصدق والكذب إنما هو بالنظر إلى ذات الجملة الإنشائية ، وليس بالنظر إلى ما تستلزمه من خبر ، ذلك أن كل أنواع الإنشاء تستلزم أخباراً تحتمل الصدق والكذب ، فقولى لابنى (ذاكر) يستلزم خبراً هو (إنى أطلب منك أن تذاكر) وقولى لابنى (لا تصاحب الأشرار) يستلزم خبراً هو (إنى أنهاك عن مصاحبة

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٥ .

(٢) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٣ .

(٣) بغية الإيضاح جـ ٢ هامش رقم / ٢ .

الأشرار) وقولى لابنى (هل أنجزت واجباتك المدرسية ؟) يستلزم خبراً هو (إنى أسألك عن موقفك من واجباتك المدرسية) .

وقولى لابنى (لعلك تنجح وليتك تتفوق) يستلزم خبرين اثنين هما (إنى أرجو نجاحك وأتمنى تفوقك) .

وندائى ابنى بقولى (يا محمد) يستلزم خبراً هو (أطلب مجيئك) .

وقولى (ما أجمل الحديقة) يستلزم خبراً هو (إنى معجب بجمال الحديقة) .

وقولى (نعم الابن محمد) يستلزم خبراً هو (أنا أمدح ابنى محمداً) الخ .

والأخبار المنبثقة عن أنواع الإنشاء السابقة تحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه الأخبار غير مقصودة للمتكلم ، ومقصود المتكلم إنما هو أنواع الإنشاء مجردة عما تستلزمه من أخبار ، وهذا هو معنى (لذاته) فى قولنا : « إن الإنشاء هو الكلام الذى لا يحتمل الصدق والكذب لذاته » أى : لذات الكلام الإنشائى نفسه بصرف النظر عما يستتبعه من جمل خبرية لا يصح – ونحن ندرس الإنشاء – أن نلتفت إليها .

* * *

والإنشاء – كما سبق القول – نوعان طلبى وغير طلبي .

فالطلبى هو ما يطلب به حصول شئ لم يكن موجوداً عند الطلب وهو الأمر والنهى والاستفهام والرجاء والتمنى والنداء .

وإذا استعمل الإنشاء الطلبى فى طلب شئ حاصل قبل طلبه وجب تأويله وجعله غير حقيقى ؛ لامتناع تحصيل الحاصل كما قال القزوينى :

ففى قوله تعالى : « يأيها النبى اتق الله » وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله » يؤول الأمر فى الآيتين الكريمتين إلى طلب دوام التقوى حتى يصل النبى ﷺ إلى الدرجة القصوى من التقوى ، وإلى طلب دوام الإيمان حتى يصل المؤمنون إلى درجة عالية من الإيمان .

أما غير الطلبى فهو مالا يطلب به حصول شئ أو عدم حصوله .

وأساليب الإنشاء غير الطلبى كثيرة منها :

١ - صيغ المدح والذم :

وهى نعم وبئس وحبذا ولا حبذا ، قال زهير بن أبى سلمى :

نعم امرؤ هرم لم تعر نائبة   إلا وكان لمرتاع لها وزراً

وقال تعالى : « بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان » ، وقال الشاعر :

ألا حبذا عاذرى في الهوى   ولا حبذا العاذل الجاهل

وقد قيل إن صيغ المدح والذم أخبار تحتمل الصدق والكذب بدليل ما رووه من أن أعرابياً بشر ببنت فقيل له : « نعمت المولودة » فقال : « والله ما هى بنعمت المولودة » .

وأجدنى ميالاً إلى هذا الرأى ولا عجب ؛ فالحس الأدبى يشهد له .

٢ - القسم :

وقد سبق حصر حروفه فى الباء والواو والتاء .

فالباء مثل : أقسم بالله إنى مخلص لك .

والواو مثل « والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

والتاء مثل : « تالله لقد آثرك الله علينا » .

ومن القسم صيغة (لعمر) مضافة إلى الاسم الظاهر أو إلى الضمير .

مثل : لعمر الله أو لعمرك إنى أحبك .

٣ - التعجب :

بصيغتيه القياسيتين (ما أفعله وأفعل به) أو بصيغه السماعية .

مثال الصيغة القياسية الأولى قول شقران الهزيمى :

أولئك قوم بارك الله فيهم   على كل حال ما أعف وأكرما

ومثال الصيغة القياسية الثانية قول الله تعالى : « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا » .

ومن الصيغ التعجبية السماعية : ليت شعرى ، ولله درك ، والله أكبر وسبحان الله .

٤ - صيغ العقود :

مثل : أجّرت واستأجرت وبعت واشتريت ووهبت ورهنت .

٥ - الجمل المصدرة بربَّ أو بكم الخبرية :

لدلالة (رُبَّ) و (كم) الخبرية على إنشاء التقليل أو التكثير . قالت العرب : « رب عجلة تهب ريثاً ، ورب ضارة نافعة ، ورب أخ لك لم تلده أمك » ، وتقول أنت لزميلك : كم زرتك ولم تزرني

ويقول المتنبي :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

وقد قيل في هذه الجمل ما قيل في صيغ المدح والذم من أنها أخبار تحتمل الصدق والكذب وأقول هنا ما قلته هناك من أنني ميال إلى هذا الرأي بل متحمس له، ولا عجب فالخبرية فيه واضحة كالشمس.

والفرق بين الإنشاءين الطلبي وغير الطلبي : أن الإنشاء الطلبي يتأخر وجود معناه قليلاً أو كثيراً عن وجود لفظه ، وبعبارة مختصرة : يسبق التلفظ به الامتثال له .

فقولي لابني (ذاكر) منفصل زماناً عن تنفيذه لهذا الأمر .

فالأمر الآن ، والمذاكرة في الزمن الذي يلي ذلك قريباً أو بعيداً .

أما الإنشاء غير الطلبي فيتحقق مدلوله بمجرد النطق به ، فإذا قلت : بعت .

يتحقق البيع بلا فارق زمني بين التلفظ ووقوع البيع ، وإذا قلت لشخص : زوجتك ابنتي أكون قد زوجتها له ولم يبق إلا أن يقول هو « قبلت » فإذا قالها تكون ابنتي قد صارت زوجته .

* * *

وأنبه إلى أنني قد ذكرت الترجي في الإنشاء الطلبي ، ولم أذكره في الإنشاء غير الطلبي وهذا هو رأيي ، فلا فرق عندي بين التمني والترجي من حيث أن كلا منهما إنشاء طلبي ، وإذا كان ثمة فرق فهو لمصلحة الترجي ؛ ذلك أن التمني : طلب المستحيل أو الممكن البعيد .

الأول مثل : ليت الشباب يعود ، والثاني مثل « يا ليت لنا مثلما أوتي قارون » .

أما الترجي : فطلب الممكن القريب مثل : لعلي أنجح .

وإذا كان التمني والترجي يشتركان في أنهما طلب فلا وجه لفصل أحدهما عن الآخر

بجعل التمنى إنشاء طلبياً والترجى إنشاء غير طلبى ، علماً بأن مفهوم كل منهما يجعل الترجى أدخل فى الإنشاء الطلبى من التمنى ، لأنه أقرب إلى التحقق من التمنى ، وبناء عليه يكون الطلب به طلباً لمأمول لا طلبا لمستحيل أو لممكن غير مأمول .

ولست فى هذا الرأى وحدى بل معى كثير من البلاغيين قدماء ومحدثين .

* * *

ومن طريف ما قرأت فى تبرير جعل الترجى من الإنشاء غير الطلبى قول الشيخ عبد المتعال الصعيدي : « ومن الإنشاء غير الطلبى الترجى ، ويرى كثير من العلماء أنه من الإنشاء الطلبى ، والحق أنه لا طلب فيه بدليل أنه يأتى فى المكروه نحو لعل الحبيب مريض ولا طلب فى المكروه »[1] .

أما أنه لا طلب فيه ، فالمعنى اللغوى للرجاء ينفيه ، جاء فى أساس البلاغة مادة (رجو) : « أرجو من الله المغفرة ، ورجوت فى ولدى الرشد ، وأتيته رجاء أن يحسن إلىَّ » .

ومن الدليل على أن الرجاء كالتمنى فى أن كلاً منهما طلبى قول الزمخشري عاطفاً على ما سبق : « ورَجَّيتنى حتى ترجيت كقولك : منيتنى حتى تمنيت » .

أما (لعل الحبيب مريض) .

فالرجاء هنا بلاغى بمعنى الخشية والخوف ، لكأنه قال : أخشى أو أخاف أن يكون الحبيب مريضاً ، وها هو ذا الزمخشرى يعطف ثانية بقوله :

« ومن المجاز استعمال الرجاء فى معنى الخوف »[2].

* * *

والآن مع دراسة مفصلة لأنواع الإنشاء الطلبى .

١ - الأمر

الأمر : هو طلب حصول الفعل .

لا أقول : على جهة الاستعلاء كما قال السكاكى والقزوينى وسائر البلاغيين قدماء ومحدثين [3] بل أقتصر على قولى إن الأمر هو طلب حصول الفعل ، ذلك أننا ندرسه من

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٣ هامش رقم / ٢ .

(٢) أساس البلاغة ص ١٧٥ .

(٣) المفتاح ص ١٥٢ وبغية الإيضاح جـ ٢ ص ٧٤ .

وجهة نظر البلاغة والأمر البلاغي أكثر من الأمر الحقيقي كما سنرى ، ثم إنني لن أقصر في حق الأمر على سبيل الاستعلاء بل سأبدأ به ؛ لأنه الأمر الحقيقي ، وأن يكون على سبيل الاستعلاء فقط ، بل على سبيل الاستعلاء والإلزام ، فإذا تحقق هذان الشرطان كان الأمر حقيقياً ، أما إذا تخلفا كلاهما أو أحدهما فإن الأمر حينئذ يخرج عن معناه الحقيقي ويكون أمراً بلاغياً .

وقبل أن نشرح ذلك نذكر :

صيغ الأمر
وهي

١ - فعل الأمر:

كقولي لابني : ذاكر دروسك وحافظ على تفوقك ، وكقول الله تعالى لمريم : « فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولي : إني نذرت للرحمٰن صوماً » .

٢ - المضارع المقترن بلام الأمر:

كقول الله تعالى: « فليعبدوا رب هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف »، وقوله تعالى : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » .

٣ - المصدر النائب عن فعل الأمر:

كقول الله تعالى : « وبالوالدين إحساناً » وقوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » وكقول قطري بن الفجاءة :

فصبرا في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع

٤ - اسم فعل الأمر:

كقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم » فـ (عليكم) اسم فعل أمر بمعنى (الزموا) وكقولك لزميلك (صه) بمعنى اسكت و (مه) بمعنى اكفف ، و (بله) بمعنى دع و (دونك) بمعنى خذ ، و (رويد) بمعنى أمهل . قال الشاعر :

رويد الذي محضته الود صافياً ... إذا ما هفا حتى يظل أخاً لكا

الأمر الحقيقى

سبقت الإشارة إلى أن الأمر الحقيقى هو طلب الفعل على سبيل الاستعلاء والإلزام .

كقول الضابط لجنوده فى ساحة القتال : تقدموا واضربوا .

وكقول الله تعالى مخاطباً محمداً ﷺ « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم » وقوله تعالى مخاطباً المؤمنين « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، فقد جاءت أفعال الأمر فى الأمثلة السابقة على سبيل الاستعلاء أولاً ، وعلى سبيل الإلزام ثانياً ، وهى لذلك من نوع الأمر الحقيقى الذى يمكن أن نعرفه بأنه طلب الفعل على وجه الاستعلاء وعلى وجه الإلزام .

الأمر البلاغى

فإذا اختل الشرطان السابقان كلاهما أو أحدهما لم تدل صيغ الأمر على معانيها الحقيقية وإنما تدل على معان بلاغية نهتدى إليها بذوقنا وبسياق الكلام وقرائن الأحوال .
والمعانى البلاغية للأمر كثيرة منها :

١ - الدعاء :

وهو يتحقق إذا كان الأمر من أدنى إلى أعلى كقول العبد مخاطباً ربه : افتح لى أبواب الرزق واجعلنى من المقبولين ، ومنه : « اهدنا الصراط المستقيم » ، « ربِّ اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى » .

وقول المتنبى مخاطباً سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم … فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

ودع كل صوت غير صوتى فإنما … أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

٢ - النصح :

وهو يتحقق إذا كان الأمر من أعلى إلى أدنى لكن لا على سبيل الإلزام ، أو كان من كلام الحكماء .

الأول : كقولى لابنى « نم مبكراً لتستيقظ مبكراً » وكقول خالد بن صفوان لابنه : « دع أعمال السر مالا يصلح لك فى العلانية » .

والثانى ، كهذا البيت :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم　　　فطالما استعبد الإنسان إحسان

وكهذين البيتين :

شاور سواك إذا نابتك نائبة　　　يوماً وإن كنت من أهل المشورات

واخفض جناحك إن منحت إمارة　　　وارغب بنفسك عن ردى اللذات

٣ - الالتماس :

وذلك إذا كان الأمر موجهاً إلى مساوٍ كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وكقول محمود سامى البارودى :

يا نديمىَّ من سرنديب كفا　　　عن ملامى وخليانى ومابى

وكقول شاعر لصاحبته :

شجعينى على الجهاد تريني　　　أنطق الصخر أرتقى للسماء

علمينى معنى الطلاقة والخلـ　　　ـد مقيما يا ربة الإيحاء

طهرينى بفيض قدسك ما اسطعـ　　　ـت وألقى علىَّ ثوب الرضاء

وارفعينى إلى سمائك أنشد　　　لك شعراً يموج موج الضياء

وأفيضى على بالوحى أبدع　　　كل لحن معبر عن وفائى

٤ - التمنى :

وهو يتحقق إذا كان الأمر موجهاً إلى مالا يعقل ، كقول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى　　　بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وكقول عنترة :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى　　　وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى

وكقول أبى العلاء :

فياموت زر إن الحياة ذميمـــة ويا نفـس جدى إن دهرك هـازل

وكقول ابن زيدون :

ويا نسيم الصـبا بلغ تحيـتنا من لو على البعد حيًّ كـان يحـيينا

وكقول البهاء زهير :

يا ليـل طـل يـا شـوق دم إنــى علــى الحــالين صــابر

٥ - التعجيز :

وهو أمر المخاطب بما يعجز عنه إظهاراً لضعفه عن القيام به كقولك لمن يدعى أمراً تعتقد أنه ليس فى وسعه (افعله) ، وكقول الله تعالى : « فأتوا بسورة من مثله » وقوله تعالى: « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

وكقول الشاعر :

أرونى بخـيلاً طال عمراً ببخله وهـاتوا كريماً مات من كثرة البذل

٦ - التهديد :

وذلك إذا كان الأمر قد أمر بما هو غير راض عنه كقولى لابنى : تزوجها وسأحرمك من الميراث ، أو : سافر ولست ابنى ، وكقول الله تعالى : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » وقوله تعالى « فتمتعوا فسوف تعلمون » وقوله تعالى : « قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار » .

٧ - الإباحة :

وهى تتحقق إذا كان المخاطب يتوهم أن المأمور به محظور عليه فيكون الأمر إذناً له بفعله ولا حرج عليه فى تركه ، وقد استحسن القزوينى فى التمثيل لها قول كثير :

أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينـا ولا مقلية إن تقلت (١)

---

(١) تقلت : فعل ماض مسند إلى ضمير المؤنث من القلى وهو البغض ، وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة.

ثم مضى فعلق عليه بقوله : أي لا أنت ملومة ولا مقلية ، ووجه حسنه إظهار الرضا بوقوع الداخل تحت لفظ الأمر حتى كأنه مطلوب ، أي مهما اخترت في حقي من الإساءة والإحسان فأنا راض به غاية الرضا ، فعامليني بهما وانظري : هل تتفاوت حالي معك في الحالين ؟ »[1] .

ولعل أبا فراس قد نظر إلى بيت كثير وهو يقول في الغرض نفسه معاتباً سيف الدولة :

فقل ما شئت فيّ فلي لسان ... مليء بالثناء عليك رطب

وعاملني بإنصاف وظلم ... تجدني في الجميع كما تحب

٨ - التسوية :

وهي تتحقق إذا كان المخاطب بصيغة الأمر يتوهم رجحان أحد الشيئين على الآخر كقول الله تعالى : « أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم » وقوله تعالى : « اصبروا أو لا تصبروا » وكقول المتنبي :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود

٩ - الإهانة :

وهي تتحقق باستعمال صيغة الأمر في مقام عدم الاعتداد بشأن المأمور وبدون قصد من الآمر إلى فعل ما أمر به .

والمأمور به في الإهانة يكون خسيساً أولا ، وغير مقدور عليه ثانياً كقوله تعالى : « كونوا حجارة أو حديداً » وقوله تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

١٠ - التحقير :

قيل هو قريب من الإهانة ، وقيل هما بمعنى واحد ؛ ومثاله قول الله تعالى على لسان موسى لسحرة فرعون « ألقوا ما أنتم ملقون » وقول جرير في تحقير قوم الفرزدق:

خذوا كحلا ومجمرة وعطراً ... فلستم يا فرزدق بالرجال

وشموا ريح عيبتكم فلستم ... بأصحاب العناق ولا النزال

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٧٤ – ٧٥ .

١١ - التسخير:

أى جعل الشئ مسخراً ومنقاداً لما أمر به .

وهو يتحقق إذا وجد المأمور نفسه قد تحول دون إرادة منه إلى ما أمر به كقول الله تعالى: « كونوا قردة خاسئين » .

فما أمر الله تعالى به قد وقع للمأمورين ، إذ تحولوا من آدميين إلى قردة دون أن يكون لهم دخل فى هذا التحول بالإيجاب أو السلب ، والفرق بين الإهانة والتسخير أن الإهانة لا يحصل فيها المأمور به أما التسخير فيحصل معه المأمور به .

١٢ - الخبر:

وهو يتحقق إذا كان اللفظ أمراً والمعنى خبراً كقوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً ، وليبكوا كثيراً » ، إذ المعنى أنهم سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً .

١٣ - التسليم:

وهو يتحقق إذا جاءت صيغة الأمر بمعنى التفويض كقول الله تعالى : « فاقض ما أنت قاض » أى افعل ما تشاء ، وقوله تعالى : « ثم امضوا إلىّ ولا تنظرون » أى اعملوا ما أنتم بصدده .

١٤ - التحسير:

كقول الله تعالى : « قل موتوا بغيظكم » ، وكقول جرير :

موتوا من الغيظ غماً فى جزيرتكم   لن تقطعوا بطن واد دونه مضر

١٥ - التخيير:

وهو يتحقق إذا كان الأمر مقصوداً به تخيير المخاطب بين شيئين أو أكثر مع عدم السماح له بالجمع بين هذين الأمرين أو بين هذه الأمور ، كقولى لابنى : تزوج عائشة أو أختها ، وكقولى له بمناسبة نجاحه : اختر هدية أو رحلة أو مبلغاً من المال ، ومن التخيير قول بشار :

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه   مقارف ذنب مرةً ومجانبه

وقول مهيار :

وعش إما قرين أخ وفى   أمين الغيب أو عيش الوحاد

٢ - النهي

النهي هو طلب الكف عن الفعل .

والفرق بينه وبين الأمر ، أن الأمر طلب فعل ، أما النهي فطلب ترك ، ويمكن القول بأن الأمر إيجاب والنهي سلب .

وللنهي صيغة واحدة هي المضارع المقرون بلا الناهية مثل : لا تلق التبعة فيما أصابك على غيرك .

والنهي نهيان : نهي حقيقي ، ونهي بلاغي .

فالنهي الحقيقي : هو ما كان من الأعلى إلى الأدنى على سبيل الاستعلاء والإلزام كقول القائد لجنوده : لا تتركوا أماكنكم ولا تغفلوا عن عدوكم ولا تطلقوا النار إلا إذا أمرتكم ، وكقول الله تعالى : « ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب » . وقوله تعالى : « ولا تكتموا الشهادة » وقوله تعالى : « ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً » وقوله تعالى : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » وقوله تعالى : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى ... » .

ولا يكون النهي بلاغياً إلا إذا تخلف الشرطان السابقان وهما الاستعلاء والإلزام كلاهما أو أحدهما ، ومن الأغراض البلاغية للنهي ما يأتي :

١ - الدعاء :

وذلك إذا كان من أدنى إلى أعلى ، كقول الله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » ، وقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا » .

وقول النابغة للنعمان بن المنذر :

فلا تتركنّي بالوعيد كأنني ... إلى الناس مطليٌّ به القار أجرب

وقول كعب بن زهير للنبي ﷺ :

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم ... أذنب وقد كثرت فيَّ الأقاويل

٢ - النصح :

وذلك إذا كان النهي صادراً من أعلى إلى أدنى لكن ليس على سبيل الإلزام أو كان نهياً من ذي خبرة .

الأول : كقولى لابنى لا تتدخل فيما لا يعنيك ، ولا تتبع عورات الناس

والثانى : كقول بشار

ولا تحسب الشورى عليك غضاضة   فإن الخوافى قوة للقوادم

وقول المتنبى :

إذا غامرت فى شرف مروم   فلا تقنع بما دون النجوم

وقولى أبى العلاء :

ولا تجلس إلى أهل الدنايا   فإن خلائق السفهاء تعدى

وقول الطغرائى :

لا تطمحن إلى المراتب قبل أن   تتكامل الأدوات والأسباب

وقول علي بن المقرب :

ولا تفند كريماً عن سجيته   حسن السجيات من رب العلا نحل

وقوله :

ولا ترهب الخطب الجليل لهوله   فطعم المنايا كيفما ذقت واحد

وقول شوقى :

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم   فمصيبة الإسلام من جهاله

وقول آخر :

عيونك لا تنظر بها عورة امرئ   فكلك عورات وللناس أعين

ومن التوجيه العام قول خالد بن صفوان : « لا تطلبوا الحاجات فى غير حينها ، ولا تطلبوها من غير أهلها » .

٣ - الالتماس :

وذلك إذا كان النهى موجهاً إلى مساوٍ ، كقول هارون لأخيه موسى : « يا بن ام لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى » وكقول المتنبى :

فلا تبلغاه ما أقول فإنه   شجاع متى يُذكر له الطعن يشتق

وقول أبى العلاء :

لا تطويا السر عنى يوم نائبة   فـإن ذلك ذنب غير مغتفر

وقول الغزى :

ولا تثقلا جيدى بمنة جاهل   أروح بها مثل الحمام مطوقا

وقول على بن المقرب على لسان من جرده من نفسه :

ولا تثن عطفاً للديار وكن فتى   يهم فيمضى فى المهمات مقدما

٤ - التمني :

وذلك إذا كان النهى موجهاً إلى غير العاقل كقولك : لا تهبى يا رياح ولا تغربي يا شمس . وكقول الخنساء :

أعينيّ جودا ولا تجمدا   ألا تبكيان لصخر الندى

وقول أبى نواس :

يا ناق لا تسأمى أو تبلغى ملكاً   تقبيـل راحتـه والركـن سيـان

وهذه الأبيات :

إيـه يا طـير لا تغـن بلحـن   ينقـذ النفـس من هموم كثيرة

....

يا قلب لا تنثر أساك ولا تطف   بالذكريـات وجوهـن المحـرق

لا تنهض الأوجاع من أوكارها   سـوداء تنهش كالمغيظ المحنـق

....

يا ليـل طـل يـا نـوم زل   يا صـبح قـف لا تطلـع

٥ - التوبيخ :

وذلك إذا كان المنهى عنه شيئاً يحط من شأن صاحبه ويستوجب لومه وتوبيخه كقول الله تعالى : « لا يسخرِ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » وكقول أبى الأسود الدؤلى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

٦ - التحقير :

وذلك إذا كان النهى مقصوداً به إهانة المخاطب وتحقيره كقول الحطيئة للزبرقان بن بدر:

دع المكـارم لا ترحـل لبغيتهـا   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وقول الشاعر :

لا تعرضن لجعفر متشبها بندى يديه فلست من أنداده

وقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب وعش مستريحاً ناعم البال

٧ - التعجيز، وقد يسمى التيئيس :

كقولك لمن يحاول حل مسألة صعبة : لا تحاول فقد عجز عن حلها كل الطلبة ، وكقول الله تعالى : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » .

وكقول المتنبى فى سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا

وقول الآخر :

لا تطلب المجد واقنع فمطلب المجد صعب

٨ - التهديد :

وهو يتحقق إذا قصد المتكلم تخويف المخاطب وتحذيره من مغبة تصرفه الخاطئ ، كقولك لمن دونك : لا تمتثل أمرى وسترى . وكقول قاطع الطريق لضحيته : « إن كنت تريد الحياة فلا تستغث ولا تحرك ساكناً » وقول الزوج لزوجته : لا يطمعنك سكوتى عنك .

٣- الاستفهام

الاستفهام بمعناه الاشتقاقى المباشر هو طلب الفهم قالوا : « من جزع من الاستبهام فزع إلى الاستفهام » .

أما البلاغيون فقد عرفوه بأنه طلب حصول صورة الشئ فى الذهن بأدوات مخصوصة .

وبعبارة عصرية واضحة : هو طلب العلم بشئ لم يكن معلوماً من قبل .

والمعنى المستكن فيما سبق أو لما سبق إنما هو الاستفهام الحقيقى ، وهو سؤال الإنسان عما يجهله ليعلمه ، وإذا كان كذلك فإنه ينتظر ممن يسأله جواباً عن سؤاله .

ولعل تلك الحالة أن تكون أسهل شئ وأيسره فى كلامىْ السكاكى والقزوينى ومن أبهم إبهامهما .

ومما يثير الشجن أن بعضاً ممن لم تدركهم حرفة البلاغة قد دلجوا ليلها فأصابهم ما توعدهم به الزمخشري في قوله : « من أراد الفلج فعليه بالدلج »[1]

ومصيبتنا أن فلجهم قد أصاب كتبهم فجاءت خرساء بكماء غلقة تلج فيها فتخرج منها كما دخلتها يصدق عليك المثل « رجع بخفي حنين » .

ولا عجب ، فقد قل مَنْ أوتي أن يَفْهَم ويُفهم ، ومن لم يُؤت من سوء الفهم أتي من سوء الإفهام .

ومعذرة عن هذه النفثة فلابد للمصدور أن ينفُث ، وقد كان ما سبق نفثة مصدور معذور في نفثه .

أدوات الاستفهام

بمناسبة أدوات الاستفهام أقول : إن من تداخل المنطق في البلاغة ما سموه التصديق وهو تصور النسبة وما سموه التصور وهو إدراك المفرد .

والغريب أن النسبة تعني الإسناد وأن المفرد يعني واحداً من طرفي الإسناد أو متعلقات المسند ، ووجه الغرابة أن الإسناد هو المصطلح البلاغي لثبوت شئ لشئ أو نفيه عنه ، كما أن المسند إليه والمسند ومتعلقات المسند – إن وجدت – كلها مصطلحات بلاغية ، فلماذا – وهم يتكلمون في البلاغة – لا يسمون الأشياء بأسمائها البلاغية ؟

لا جواب لذلك إلا أن نقول : إنه الغزو التترى من العلوم الأخرى للبلاغة ، وإنه وقوع البلاغيين تحت تأثير العلوم الأخرى ، ولو لم يكن الأمر كذلك لسموا التصديق إسناداً ولسموا التصور مسنداً أو مسنداً إليه .

ولما كنت بصدد البلاغة الاصطلاحية أولا ، وأريد أن يُفهم عني ثانياً ، فإني سأبذل جهدي في تنقية البلاغة مما علق بها ليطابق اسم الكتاب مسماه ، أو ليطابق الكتاب اسمه .

---

(١) أساس البلاغة ص ١١٣ .

وأدوات الاستفهام هى :

١ - الهمزة

ولها ثلاثة استعمالات هى :

(١) السؤال بها عن جزء الجملة لا عن كل الجملة ، وبعبارة أخرى : السؤال بها عن جزء من أجزاء الإسناد وليس عن الإسناد كله .

وهذا الجزء المسئول عنه بالهمزة فى استعمالها الأول :

إما أن يكون المسند إليه مثل : أمحمد الناجح أم أحمد ؟

وإما أن يكون المسند مثل : أنجح محمد أم رسب ؟

وإما أن يكون المفعول به مثل : أتفاحاً أكلت أم برتقالاً ؟

وإما أن يكون الحال مثل : أراكباً جئت أم ماشياً ؟

وإما أن يكون ظرف الزمان مثل : أيوم الخميس تسافر أم يوم الجمعة ؟

وإما أن يكون ظرف المكان مثل : أعند فيصل أم عند علاء نلتقى ؟

وإما أن يكون الجار والمجرور مثل : أفى المسجد أم فى المنزل والدك ؟

ويلزم فى هذا الاستعمال أن يأتى المسئول عنه بعد الهمزة مباشرة كما فى الأمثلة السابقة وهو لزوم مطرد ، فإذا تخلف كان تخلفه خطأ .

ثم غالباً ما يذكر للمسئول عنه بالهمزة فى هذا الاستعمال معادل بعد (أم) كالأمثلة السابقة ومن غير الغالب قول الله تعالى : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » أى أم غيرك؟

وكقول أبى ذؤيب الهذلى :

دعانى إليها القلب إنى لأمره سميع فما أدرى أرشد طلابها

أى أم غى .

ويجاب عن السؤال فى هذا الاستعمال بالتعيين .

تقول فى جواب السؤال الأول : محمد ، وفى جواب السؤال الثانى : نجح ، وفى جواب السؤال الثالث : تفاحاً ، وفى جواب السؤال الرابع : راكباً وهكذا .

(ب) السؤال بالهمزة عن كل الجملة أى عن الإسناد الموجود بين المسند والمسند إليه فى الجملة يقول الوالد لولده : أنجحت فى الامتحان يا بنى ؟ .

هنا لا يسأل الأب عن النجاح فى مقابلة الرسوب ، ولا عن ابنه في مقابلة غيره ، وإنما يسأل عن تحقق النجاح لابنه أو عدم تحققه ، أى عن إسناد النجاح لابنه أو عدم إسناده إليه.

ونقول فى الجواب عن السؤال فى هذا الاستعمال (نعم) فى الإيجاب ، و (لا) فى النفى أى : نعم نجحت ، أو لا ، لم أنجح .

(جـ) السؤال بالهمزة المقرونة بالنفى عن مضمون الجملة أى عن الإسناد الموجود فى الجملة كقول الله تعالى : « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » وقوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده » .

وقوله تعالى : « ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » .

وقوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » .

ونقول فى الجواب عن السؤال فى هذا الاستعمال (بلى) فى الإيجاب و (نعم) في النفى . يقول القاضى للمتهم بجريمة قتل : ألست القاتل ؟ فإن أجاب (بلى) اقتص منه ، لأن معنى الإجابة بلى أنا القاتل ، وإن أجاب (نعم) برأه ؛ لأن معنى الإجابة : نعم لستُ القاتل ، ومن عجب أن (نعم) هنا تعنى (لا) ولا توجد فى لغتنا (نعم) بمعنى (لا) سوى هذه .

٢ - هل

وهى لا يسأل بها إلا عن مضمون الجملة أى عن الإسناد الحاصل فى الجملة ، يسأل الأب ابنه : هل نجحت فى الامتحان ؟ فيجيب الابن : نعم : أى نجحت أو لا : أى لم أنجح .

ومن التقعر الذى لا لزوم له بل لا أساس له جعل بعض البلاغيين (هل) نوعين :

هل البسيطة : وهى التى يُسأل بها عن وجود شئ أو عدمه مثل : هل الإنسان الكامل موجود ؟ وهل الحركة موجودة ؟ .

وهل المركبة : وهى التى يسأل بها عن وجود شئ لشئ مثل : هل النبات حساس ؟ وهل الحركة دائمة ؟؟ هذا ما قالوه [1]

وبإمعان النظر فيه نجد أن لا فرق بين هل البسيطة وهل المركبة لا فى تعريفيهما ولا فى أمثلتهما ، فنحن فى الحالتين نسأل بـ (هل) عن ثبوت شئ لشئ .

فى هل التى سموها بسيطة نسأل عن ثبوت الوجود للإنسان الكامل .

أمتحقق هذا الوجود أم لا ، وعن ثبوت الوجود للحركة ، أمتحقق هذا الوجود أم لا ؟

الإنسان الكامل : مسند إليه . وموجود : مسند .

والحركة : مسند إليه . وموجودة : مسند .

وفى هل التى سموها مركبة نسأل عن ثبوت الاحساس للنبات ، أمتحقق هذا الإحساس أم لا؟ وعن ثبوت الدوام للحركة، أمتحقق هذا الدوام أم لا؟

النبات مسند إليه وحساس مسند والحركة مسند إليه ودائمة مسند .

لا فرق بين نوعى (هل) إذاً ، ولم تخرج المسألة عن كونها دغدغة كلام ، ويعجبنى فى هذا المقام تعليق عبد المتعال الصعيدى على هذا التقسيم لـ (هل) من قبل القزوينى قال الشيخ عبد المتعال « الحق أن هذا التقسيم لا يختص بهل ، لأن الهمزة مثلها فيه ، على أن البحث فيه لا شأن لعلم المعانى به » [2].

٣ - مَنْ

ويُسأل بها عن العاقل أو العقلاء ، فيجاب بذكر أسمائهم أو صفاتهم ، تقول : من هذا ؟ فيقال : محمد عبده ، وتقول : من هؤلاء ؟ فيجاب : فيصل وعلاء وكارم ومحمد وناصر .

أو تقول فى الإجابة عن السؤال الأول : هذا صديقى أو ضيفى أو صهرى ، وعن السؤال الثانى : هؤلاء أطباء ومهندسون وأساتذة فى الجامعات .

وقد أضاف السكاكى إلى (مَنْ) استعمالاً آخر هو السؤال بها عن الجنس من ذوى العلم .

تقول : من جبريل ؟ بمعنى أبشر هو أم ملك أم جنى ؟ وكذا : من إبليس ؟ ومن فلان ؟ ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون : « فمن ربكما يا موسى ؟ » أراد من مالككما ومدبر أمركما ؟ أملك هو أم جني أم بشر ، منكراً أن يكون لهما رب سواه ، لادعائه الربوبية لنفسه [3] .

---

(١) انظر بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٩ والبلاغة الواضحة ص ١٩٤ هامش رقم / ٢

(٢) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٩ هامش رقم ٣ (٣) مفتاح العلوم ص ١٤٩ - ١٥٠

٤ - ما

ويسأل بها عن غير العقلاء ، وهى :

إما أن يطلب بها شرح الاسم أى بيان معناه اللغوى أو الاصطلاحى مثل : ما البُرُّ ؟ والجواب هو القمح ، وما المسجد ؟ والجواب : هو الذهب ، وما الديباج ؟ والجواب : هو الحرير ، ومثل : ما الجمع وما الطرح ؟؟ والجواب : هما إضافة عدد إلى عدد ، أو إنقاص عدد من عدد . وإما أن يطلب بها حقيقة المسمى أى شرح ماهيته مثل : ما الإنسان ؟ والجواب : حيوان ناطق . وما الاعتدال ؟ والجواب : هو الوسط بين الإفراط والتفريط .

وقد جعلها السكاكى مثل (مَنْ) من حيث السؤال بها عن الجنس أو الوصف قال :

« أما ما فللسؤال عن الجنس تقول : ما عندك ؟ بمعنى أى أجناس الأشياء عندك ؟ وجوابه : إنسان أو فرس أو كتاب أو طعام ، أو عن الوصف تقول : مازيد وما عمرو ؟؟ وجوابه : الكريم والفاضل »(١) .

والخلاصة أن (ما) يُسأل بها عن :

(أ) المفهوم الإجمالى للاسم مثل : ما الضيغم ؟ والجواب : هو الأسد .

(ب) حقيقة الاسم مثل : ما الحركة ؟ والجواب : هى حصول الجسم حصولاً أولاً فى الحيز الثانى .

(جـ) الجنس : مثل : ما خطبكم ؟ والجواب : موت أو هزيمة أو أسر .

(د) الوصف مثل : ما فيصل وما رشا ؟؟ والجواب : ابنى الأكبر وزوجته .

٥ - كم

ويسأل بها عن العدد كقول الله تعالى : « وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم » وقوله تعالى : « كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين » وكقولى : كم طالباً سجل فى مقرر كذا ؟ والجواب : خمسون أو ستون وهكذا .

٦ - كيف

ويسأل بها عن الحال مثل : كيف جئت ؟ والجواب : ماشياً أو راكباً ، وكيف سكنك ؟ والجواب : واسع أوضيق ، وكيف محمد ؟ والجواب : بخير أو مجتهد وناجح فى عمله .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٠ .

٧ - أين

ويسأل بها عن المكان مثل أين والدك ؟ والجواب : في المنزل أو في المسجد أو في النادي، وأين نلتقي ؟ والجواب : في المكتبة أو في الحديقة أو في الملعب .

٨ - أنّى

وتأتي مرةً بمعنى كيف كقول الله تعالى : « أنّى يحيي هذه الله بعد موتها » ؟ أي كيف يحيي هذه الله بعد موتها ، وما مثل به السكاكي والقزويني وغيرهما من سائر البلاغيين قدماء ومحدثين لذلك وهو قول الله تعالى : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم » [١].

فعندي أن (أنّى) هنا ليست استفهامية أي ليست للسؤال أصلاً ، إذ معناها الذي يهدي إليه سياقها : فأتوا حرثكم في أي وقت شئتم وبأية كيفية أردتم . كما تأتي بمعنى (من أين) كقول الله تعالى على لسان زكريا عليه السلام : « يا مريم أنّى لك هذا ؟ » أي من أين لك هذا الرزق ؟ ولهذا قالت : « هو من عند الله » .

وتأتي بمعنى (متى) تقول : أنى تظهر نتيجة الامتحان ؟ وأنّى نسافر ؟ أي متى تظهر نتيجة الامتحان ؟ ومتى نسافر ؟

٩ - متى

ويسأل بها عن الزمان ماضياً أو مستقبلاً مثل : متى جئت ؟ ومتى تسافر ؟

١٠ - أيان

ويسأل بها عن الزمان المستقبل فقط ، وتستعمل في مواضع التفخيم والتهويل خاصة كقول الله تعالى : « يسألون أيان يوم الدين » وقوله تعالى : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » وقوله تعالى : « يسأل أيان يوم القيامة » ونقول نحن : أيان يوم التخرج ؟ وأيان تتوقف الحرب بين الفصائل اللبنانية ؟

١١ - أيّ

ويسأل بها عما يميز أحد المشتركين في أمر يعمهما أو عما يميز أحد المشتركين في أمر يعمهم مثل : أي الطالبين أذكى ؟ وأي الطلاب أذكى ؟

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٠ وبغية الإيضاح جـ ٢ ص ٦٤ .

ويمكن السؤال بها عن الزمان مثل : في أي وقت تحضر لزيارتي ؟

وعن المكان مثل : في أي مكان نلتقي ؟

وعن الحال مثل : على أي حال جاء ضيفكم ؟

وعن العاقل مثل : أي الزملاء زارك ؟

وعن غير العاقل مثل : أي كتاب تنصح بقراءته ؟

وعن العدد مثل : أي مبلغ تستطيع أن تدفع ؟

فأي شائعة ، وهي بحسب ما تضاف إليه أي أن معناها يتحدد بما تضاف إليه .

* * *

وتجدر الإشارة إلى أن المسئول عنه بالأدوات التسع الأخيرة جزئي لا كلي ، وأجوبتها لذلك تكون بتعيين المسئول عنه بها ، وتشترك الهمزة في استعمالها الأول مع هذه الأدوات في أن المسئول بها جزئي ، وعلى الجانب الآخر وهو السؤال عن الإسناد نفسه أي عن المضمون الكلي للجملة تقف (هل) و (الهمزة) في استعماليها الثاني والثالث .

الأغراض البلاغية للاستفهام

سبق القول بأن الاستفهام الحقيقي هو السؤال عما يجهله السائل ، وهو في هذه الحالة ينتظر جواباً لكن أدوات الاستفهام قد تؤدي معاني أخرى غير السؤال ، وهذه المعاني تفهم من سياق الكلام ومن قرائن الأحوال ، ومن ذلك ما يأتي :

١ - التعجب :

كقول الله تعالى على لسان سليمان « مالي لا أرى الهدهد ! » .

وقوله تعالى على لسان كفار مكة « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق »

وكقول أبي تمام :

ما للخطوب طغت على كأنها ... جهلت بأن نداك بالمرصاد

وقول المتنبي للحمى :

أبنت الدهر عندي كل بنت ... فكيف وصلت أنت من الزحام

وقوله لسيف الدولة وقد اعتل :

وكيف تعلك الدنيا بشئ   وأنت لعلة الدنيا طبيب

وكيف تنوبك الشكوى بداء   وأنت المستغاث لما ينوب

وقول شوقى :

ما أنت يا دنيا ؟ أرؤيا نائم   أم ليل عرس ، أم بساط سلاف ؟!

٢ - النفى :

كقولنا : هل الامتحان إلا لتمييز المجتهد من المهمل ؛ أى ما الامتحان إلا لتمييز المجتهد من المهمل ، وكقول الله تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » أى ما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، و كقول أبى تمام :

هل اجتمعت أحياء عدنان كلها   بملتحم إلا وأنت أميرها

وقول البحترى :

هل الدهر إلا غمرة وانجلاؤها   وشيكاً وإلا ضيقة وانفراجها

وقول المتنبى :

ومن لم يعشق الدنيا قديماً   ولكن لا سبيل إلى الوصال

وقوله :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم   أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

٣ - التقرير :

وهو حمل المخاطب على الإقرار بأمر يعرفه كقولى لطلابى :

ألستم طلاباً جامعيين ؟ وألم أشرح لكم هذا الدرس من قبل .

وكقول الله تعالى : « ألم نربك فينا وليداً ؟ » وقوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » ، وقوله تعالى : « ألم يجدك يتيماً فآوى » . وقوله تعالى « أليس اللّه بكاف عبده » . وكقول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وقد جعل القزوينى الاستفهام فى بيت جرير وفى قول الله تعالى « أليس الله بكاف عبده » ؟ للإنكار قال :

« ومن مجئ الهمزة للإنكار قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده ؟ » وقول جرير: ألستم خير من ركب المطايا ؟ أى الله كاف عبده ، وأنتم خير من ركب المطايا ، لأن نفى النفى إثبات ، وهذا مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير ، أى للتقرير بما دخله النفى لا للتقرير بالانتفاء »(1) .

ونرد عليه بأمرين :

أحدهما : أن النصين بعد إخضاعهما للقاعدة النحوية القائلة « إن نفى النفى إثبات » قد صارا من قبيل الخبر لا من قبيل الإنشاء ، ويكون كل منهما فى شكله الذى وصل إلينا به إنشائياً لفظاً خبرياً معنى » .

والآخر : أن الذوق البلاغى يأبى ما ارتآه القزوينى ، فكيف يكون منكراً أن الله كاف عبده ، وأن الممدوح خير من ركب المطايا ؟؟!!

ولقد كان من قال : إن الهمزة للتقرير عل صواب ، فالتقرير كما قال القزوينى نفسه تقرير بما دخل عليه النفى وهو الله كاف عبده ، وأنتم خير من ركب المطايا .

ولست أدرى لماذا خالفه القزوينى وقال : إن الاستفهام للإنكار ، ولا يشفع له أنه عقب على نفسه بأن التقرير هو المراد ، وإذا كان هو المراد ، فلم لم يقله من أول الأمر ، ويربأ بنفسه عن مواطن الزلل ؟؟!

لكن القزوينى يلوى ذراع الآية ، ويلوى ذراع البيت بقوله : « ومن مجئ الهمزة للإنكار قوله تعالى .... وقول جرير ... » ولا عجب فهو القزوينى صاحب الإيضاح ، ويظهر أنه إيضاح بإبهام المعنى لا بكشفه وبإدخال طالب البلاغة فى المتاهات .

* * *

ولم يحلق الشيخ الصعيدى كعادته وهو يعلق على عبارة القزوينى « وهذا هو مراد من قال : إن الهمزة فيه للتقرير أى للتقرير بما دخله النفى لا للتقرير بالانتفاء » .

قال الشيخ عبد المتعال مبرراً ذلك « لأن التقرير فى مثل هذا لا يجب أن يكون بالحكم الذى أدخلت الهمزة عليه ، وإنما يكون بما يعرفه المخاطب فيه من إثبات أو نفى كقوله تعالى: « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله » .

---

(1) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٦٨ – ٦٩ .

فأولا ليست آية « أأنت قلت للناس ... » كآية « أليس الله بكاف عبده » فهمزة الاستفهام في الأولى غير مقرونة بنفي ، وفي الثانية مقرونة بنفي ، والتنظير بينهما لهذا غير مسلم به لأنه في ذاته غير سليم .

وثانياً : أدار الشيخ ظهره للنصين الأصل ، وذهب فجلب نصاً ثالثاً مختلفاً .

وثالثاً : أحال في الكلام - أي كلام - على علم المخاطب وعلى معرفته السابقة بحقيقة الموضوع من إثبات أو نفي ، وهو بهذا قد أعفى المتكلم من عناء مطابقة كلامه لمقتضى الحال ، ليقل ما يقول على أية صورة وبأي شكل وليطمئن ، فعلى المتلقي أن يصحح الخطأ وأن يعدل المعوج ، وليس هذا صواباً ؛ لأننا إذا كنا سنحيل في التواصل الفكري والوجداني والعقائدي على علم المخاطب وعلى معرفته السابقة بحقيقة الموضوع من إثبات أو نفي ، فلم البلاغة إذاً بل لم الكلام أصلاً ، وأكاد أقول : لم المتكلم نفسه ؟

٤ - التمني :

كقول الله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ؟ » ، وكقول أبي العتاهية مخاطباً الأمين :

تذكر أمين الله حقي وحرمتي ... وما كنت توليني لعلك تذكر
فمن لي بالعين التي كنت مرة ... إليَّ بها في سالف الدهر تنظر

وقول الآخر :

هل بالطلول لسائل رد ... أم هل لها بتكلم عهد

وقول الآخر :

يا طيور السماء هل من سبيل ... تصل النفس بالليالي السعيدة

٥ - التعظيم :

كقول المتنبي :

من للمحافل والجحافل والسرى ... فقدت بفقدك نيراً لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة ... ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

وقول أبي فراس :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

وقول ابن هانئ :

من فيكم الملك المطاع كأنه   تحت السوابغ تبع فى حمير

وقول الشاعر :

إذا القوم قالوا : من فتى؟خلت أننى   دعـيت فلـم أكسـل ولـم أتبلـد

٦ - التهويل :

كقولنا لمن برئ من تهمة القتل العمد : لقد أنقذت من المقصلة ، وما أدراك ما المقصلة ؟ ولمن أنقذ من الغرق فى البحر : لقد نجاك الله من البحر وما أدراك ما البحر ؟ وكقول الله تعالى : « الحاقة ما الحاقة ، وما أدراكما الحاقة ؟ » .

وقد جعل البلاغيون منه قوله تعالى : « ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين. مَنْ فرعون » بفتح ميم (مَنْ) على أنها اسم استفهام خبر مقدم و (فرعونُ) بالرفع مبتدأ مؤخر ، وهى قراءة ابن عباس .

يقول القزوينى : « ولما وصف الله العذاب بأنه مهين لشدته وفظاعة شأنه أراد أن يصور كنهه فقال : « مَن فرعونُ » أى أتعرفون من هو فى فرط عتوه وتجبره؟ ما ظنكم بعذاب يكون هو المعذب به ؟ ثم عرف حاله بقوله : « إنه كان عالياً من المسرفين » [1].

والتهويل أخو التعظيم ، وإذا كان بينهما فرق فهو فرق دقيق فحواه أن التعظيم يأتى مع الأمر المرغوب فيه ، أما التهويل فيأتى مع الأمر المخوف منه .

٧ - الإستبطاء :

كقولك لمن ناديته لكنه أبطأ فى الإقبال عليك : كم دعوتك ، وكقولنا : متى يعود السلام إلى لبنان ، وأيان تقوم دولة فلسطين ، ومنه قوله تعالى : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله » وقول المتنبى :

حتام نحن نسارى النجم في الظلم   ومـا سـراه على خـف ولا قـدم

٨ - الإستبعاد :

حسياً كان كقول شوقى وهو في منفاه بالأندلس :

أين شرق الأرض من أندلس

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٦٨ – ٦٩ .

أو معنوياً كقولك لأستاذك : أين علمي من علمك.

ومن الاستبعاد مطلقاً قول الله تعالى : « أنَّى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون » وقول أبي تمام :

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه

وقول المتنبي :

وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

والصلة بين الاستبطاء والاستبعاد كالصلة بين التعظيم والتهويل أي قريبة ، كل ما بينهما من فرق أن الاستبطاء يتوقع المستبطئ ما يتعلق به أما الاستبعاد فلا يتوقع المستبعد ما يتعلق به .

٩ - التشويق :

كقولي لطلابي : أأحكي لكم طرفة لطيفة تنسيكم عناء الدرس وتجدد نشاطكم ، وكقول الله تعالى : « يا أيها الذين امنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » وقوله تعالى على لسان إبليس « يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » .

١٠ - التنبيه على الضلال :

تقول للإخوة المتحاربين « أين يُذهب بكم ، لا تعنفوا قبل أن تعرفوا إلى أين تساقون » ، ويقول الله تعالى : « فأين تذهبون » .

١١ - الوعيد .

كقولك لمن يسئ إليك : ألم أؤدب فلانا . إذا كان عالماً بذلك ، فعلمه بتأديبك غيره سيجعله يفهم عبارتك على أنها تهديد ووعيد ، وعليه قوله تعالى « ألم نهلك الأولين » وقوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » .

١٢ - التحقير :

كقولك : ما هذا ؟ تحقيراً للشئ المشار إليه مادياً كان هذا الشئ أو معنوياً ، ومن هذا ؟ لشخص تعرفه ، تحقيراً له واستخفافاً به ، وكقول الله تعالى على لسان الكفار « أهذا الذي بعث الله رسولاً » وقول المتنبي :

من أية الطرق يأتي مثلك الكرم أين المحاجم يا كافور والجلم

وقول الآخر :

فدع الوعيد فما الوعيد بضائري أطنين أجنحة الذباب يضير

١٣ - التهكم :

وهو عدم المبالاة بالمتهكم منه ، ويستوى أن يكون المتهكم منه جديراً بالمبالاة أو غير جدير بها .

فمن الأول قوله تعالى حكاية عن الكافرين بشعيب من قومه : « قالوا أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » .

كان شعيب كثير الصلاة ، وكان الكافرون به إذا رأوه يصلى تضاحكوا عليه وسخروا منه ومن صلاته فقصدوا بسؤالهم مخرقته هو وصلاته .

ومنه أيضاً قوله تعالى : « أهذا الذى يذكر آلهتكم » .

ومن الثانى قول إبراهيم عليه السلام : « ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون » .

وقول المتنبى متهكماً بالدمستق :

أفى كل يوم ذا الدمستق مقدم   قفاه على الإقدام للوجه لائم

ويفرق الشيخ عبد المتعال الصعيدى بين التحقير والتهكم بأن التهكم قد يكون بمن هو عظيم فى نفسه بخلاف التحقير [1] .

وأمثلة التحقير تنقض رأيه ، إذ ماذا يعمل فى قول الله تعالى على لسان الكفار تحقيراً لمحمد ﷺ : « أهذا الذى بعث الله رسولاً » .

فالأولى أن نقول : إن الفرق بين التحقير والتهكم يأتى من قبل المتكلم ، فهو فى التحقير يعبر عما يراه ويعتقده ، أما فى التهكم فإنه يعوم على سطح الكلام ويتهكم بما لا يعتقد أكثر مما يتهكم بما يعتقد .

فى أساس البلاغة : تهكم عليه من شدة الغضب ، وتهكم علينا : تعدى . وتهكم به : تهزأ به ، وقال ذلك على سبيل التهكم ، قال حسان رضى الله عنه :

بنى أم البنين ألم يرعكم   وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عامر بأبى براء   ليحقره وما خطأ كعمد

وعن الأصمعى أنه قال فى قول زهير : « فتغلل لكم » هذا منه تهكم [2].

---

(١) بغية الوعاة جـ ٢ ص ٧١ هامش / ٤ .

(٢) أساس البلاغة ص ٤٨٦ ، والبيت بتمامه هو :

فتغللْ لكم مالا تُغِل لأهلها   قُرىً بالعراقِ من قفيز ودرهم

ويمكن القول استناداً إلى البيت الثانى من بيتى حسان بأن التهكم وسيلة والتحقير غاية ، والله أعلم .

١٤ - التسوية :

مصرحاً بها كقول الله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » ، وغير مصرح بها كقوله تعالى : « وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » وكقول المتنبى :

ولست أبالى بعد إدراكى العلا   أكان تراثاً ما تناولت أم كسبا

١٥ - الأمر :

كقول الله تعالى : « فهل أنتم مسلمون » أى أسلموا ، وقوله تعالى : « فهل أنتم منتهون » أى انتهوا .

ومن خروج الاستفهام إلى الأمر قولك لزميلك : أرأيت ؟ بمعنى أخبرنى ، وقد جاء هذا الأسلوب كثيراً فى القرآن الكريم قال تعالى : « أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلاً وأكدى » أى أخبرنى عن هذا الذى تولى وأعطى قليلاً ثم منع . وقال تعالى « أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى » أى أخبرونى عن هذه الأصنام .

١٦ - النهى :

كقوله تعالى : « أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه » أى لا تخشوهم فالله أحق أن تخشوه، وكقول الشاعر :

أتخالنى أرضى الهوان فحاذر   واسلم بنفسك من أبىٍّ قادر

إذ معناه : لا تخلنى أرضى الهوان فحاذر .

١٧ - الإنكار :

وذلك أنه إذا وجد الإنسان نفسه أمام أمر لا يرضى عنه فإنه والحالة هذه يورد كلامه على سبيل الإنكار لهذا الأمر كقولى لأحد الإخوة : أتصلى منفرداً والجماعة قائمة ، ولأحد طلابى : أتتكلم وأنا أشرح .

والإنكار إما للتوبيخ ، وإما للتكذيب ، والتوبيخ إما أن يكون على أمر حصل فى الماضى

كقولك لابنك أو لأخيك أو لصديقك : أخطبت دون علمي ، أي ما كان ينبغي أن يحصل ذاك ، وإما أن يكون على أمر حاصل الآن أو يخشى حصوله في المستقبل كقولك لزميلك : أتأطو في رمضان ، وذلك إذا كان فاطراً فعلاً أو ناوياً أن يفطر ، وقولك للرجل يضيع حقوق الإخوان : أتنسى قديم إحسان فلان ، وللرجل يركب الخطر : أتخرج في هذا الوقت ، أو أتذهب في غير طريق ، قاصداً توبيخه كي يراجع نفسه فيخجل ويرتدع عن فعل ما هم به .

والتكذيب كالتوبيخ في توزعه على الأزمنة .

فهو إما أن يكون لأمر ادعى حصوله في الماضي بمعنى لم يكن كقوله تعالى : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً » .

وقوله تعالى : « أصطفى البنات على البنين » .

فالإنكار في الآيتين الكريمتين معناه التكذيب لما ادعى المخاطبون أنه حصل فعلاً ، أي لم يكن مازعمتموه ، وإمّا أن يكون لأمر كائن الآن أو سيكون في المستقبل كقوله تعالى على لسان نوح لقومه « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » أي لا يكون ذلك الآن ولا في المستقبل .

والأصل في الإنكار ـ توبيخاً كان أم تكذيباً ـ أن يتوجه إلى الإسناد أي إلى مضمون الجملة ، لكنه قد يخصص بأن يوجه إلى المسند إليه أو إلى المسند أو إلى متعلق من متعلقات المسند .

فمن الأولى قوله تعالى : « أهم يقسمون رحمة ربك » وقوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله تعالى « أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي » ومن الثاني قول إبراهيم لأبيه : « أتتخذ أصناماً آلهة » وقوله لقومه « أتعبدون ما تنحتون » وقول امرئ القيس :

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقول عمارة بن عقيل في خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني :

أأترك إن قلت دراهم خالد زيارته إني إذاً للئيم

ومن الثالث قوله الله تعالى : « أغير الله تدعون » ، « أغير الله أتخذ ولياً » ، « أبشراً منا واحداً نتبعه » ، « أئفكاً آلهة دون الله تريدون » .

وإذا تخصص الإنكار فلابد أن يلى المنكر الهمزة كما لابد أن يليها المقر به فى التقرير .

* * *

وقبل أن نغادر الأغراض البلاغية للاستفهام ننبه إلى أنها غير متناهية بل متجددة وليس الاستفهام فى هذا وحده ، بل معه الأغراض البلاغية للأساليب الإنشائية الأخرى . هذه واحدة .

والأخرى : أن المثال الواحد قد يؤدى غرضين أو ثلاثة أو أكثر برجحان غرض على غرض أو بغير رجحان ، يقول السكاكى : « أى رجل هو . للتعجب ، وكم أحلم ، للتهديد ، وكيف تؤذى أباك ، للإنكار والتعجب والتوبيخ »(١) .

وصح عنده أن يكون قول الله تعالى : « كيف تكفرون .... » تعجباً وتعجيباً وإنكاراً وتوبيخاً(٢) .

وقد اختصر القزوينى أربعة الأغراض السابقة فى غرضين اثنين قال : ومنها – ومن الأغراض البلاغية للاستفهام – التوبيخ والتعجيب جميعاً كقوله تعالى : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » أى كيف تكفرون والحال أنكم عالمون بهذه القصة .

أما التوبيخ فلأن الكفر مع هذه الحال ينبئ عن الانهماك فى الغفلة أو الجهل .

وأما التعجب فلأن هذه الحال تأبى ألا يكون للعاقل علم بالصانع وعلمه به يأبى أن يكفر ، وصدور الفعل مع الصارف القوى مظنة تعجب ، ونظيره قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب » (٣) .

٤ - التمنى

عرفه سعد الدين التفتازانى بأنه طلب حصول شئ على سبيل المحبة (٤) وهو تعريف غير مانع ، وعرفه ابن يعقوب المغربى بأنه طلب حصول الشئ بشرط المحبة ونفى الطماعية فى ذلك الشئ (٥) وهو تعريف غير جامع وغير مانع .

---

(١) المفتاح ص ١٥١ .

(٢) المفتاح ص ١٥١ .

(٣) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٧٢ .

(٤) مختصره على تلخيص المفتاح جـ ٢ ص ٢٣٩ .

(٥) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى على هامش مختصر سعد الدين التفتازانى جـ ٢ ص ٢٣٩ .

وأحسن من هذين التعريفين تعريف صاحبي البلاغة الواضحة قالا : « التمنى هو طلب أمر محبوب لا يتوقع حصوله » [1].

والسبب فى أنه لا يتوقع حصوله أحد أمرين هما :

(أ) أنه بطبيعته مستحيل التحقق .

(ب) أنه برغم إمكان تحققه بعيد الوقوع وغير مطموع فى نيله ، فالأول وهو المستحيل كقول العجاج : يا ليت أيام الصبا رواجعا [2] .

وقول ابن الرومى فى رمضان :

فليت الليل فيه كان شهرا ... ومرُّ نهاره مرَّ السحاب

وقول المتنبى :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت ... منى بحلمى الذى أعطت وتجريبى

وقول الشاعر :

ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

وقول الآخر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما فعل المشيب

والثانى وهو الممكن الذى لا يرجى حصوله كقول الله تعالى : « يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون » وقوله تعالى : « يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين » ، وقول مالك بن الريب متشوقاً إلى وطنه وهو فى مرض موته :

فيا صاحبى رحلى دنا الموت فاحفرا ... برابية إنى مقيم لياليا

وخطا بأطراف الأسنة مضجعى ... ورداً على عينى فضل ردائيا

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضا ماشى الركاب لياليا

---

(1) البلاغة الواضحة ص ٢٠٧ .

(2) رواجعاً بالنصب على مذهب الكوفيين . والبصريون على أن خبرها محذوف تقديره أقبلن رواجعاً ، وانظر بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٥٤ هامش رقم (١) .

والأداة التى وضعها العرب للتمنى هى (ليت) وهذا يعنى أن التمنى بها هو التمنى الحقيقى كالأمثلة السابقة .

التمنى البلاغى

لكن التمنى يأتى بلاغياً بأدوات أخرى غير ليت ، وهذه الأدوات هى : هل ـ لعل ـ لو ـ هلا ـ ألاَّ ـ لولا ـ لوما .

مثال هل ولعل معاً قول الشاعر :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير

ومثال هل وحدها قول الله تعالى : « فهل إلى خروج من سبيل » وقوله تعالى : « فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا » وقول ابن الدمينة :

هل ترجعنَّ نوى للحى جامعة فيهم أميْمة قد فاءت قواصيها

وقول الآخر :

أيا منزلى سلمى سلام عليكما هل الأزمن اللائى مضين رواجع

ومثال لعل وحدها قول الله تعالى على لسان فرعون : « يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب » وقول الشاعر :

علَّ الليالى التى أضنت بفرقتنا جسمى ستجمعنى يوماً وتجمعه

والمعنى البلاغى المستفاد من التمنى بكل من (هل) و (لعل) إنما هو إبراز المتمنى ـ وهو مستحيل أو ممكن بعيد ـ فى صورة الممكن القريب الوقوع إظهاراً من المتكلم لحرصه عليه وشغفه به ، لكأنه فى زحمة حبه له ورغبته فيه قد نسى أنه مستحيل أو فى حكم المستحيل .

تتمنى الشفاء لمن يحتضر أمامك بقولك : هل يشفى أو لعله يشفى ، طمعاً منك فى شفائه ، لأنك تحبه ولا تطيق موته .

أما (لو) فإن سر التمنى بها مضاد لسر التمنى بـ (هل) و (لعل) .

إن (هل) و (لعل) تقربان المتمنَّى ، أما (لو) فتبعده ربما أكثر مما تبعده (ليت) حقيقة أو ادعاء ، وفي التمنى بها الإشعار بعزة المتمنى وندرته ، والتأكيد على استحالته أو

صعوبته ، لأنها بأصل وضعها تدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط وهو امتناع مطبق لدورانه فى حلقة مغلقة .

نحن مع (لو) أمام أمر لا نقول :

(لا يتحقق) كما نقول مع (ليت) بل نقول (لن يتحقق) .

قال تعالى: « فمالنا من شافعين . ولا صديق حميم. فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ».

وقال تعالى : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب. وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا » وقوله تعالى : « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين » .

لا نقول إن مطلوبهم مستحيل ونسكت ، فهذا شئ بدهى و (لو) تدل عليه بوضعها اللغوى ، أما إيحاؤها ومدلولها البلاغى فهو اليأس الموبق ، إنهم فى أشد العذاب ولا عجب ؛ فقد اجتمع عليهم ألم الجسم بالعذاب الذى أمامهم ، وألم النفس باليأس الذى زلزلهم ، والنجاة مستحيلة هنا أكثر من استحالتها مع (ليت) فالبعد بليت بعد واحد وهو خارج أقطار المتمنى ؛ أما البعد بلو فبعدان : بعد خارجى كالسابق وبعد داخلى لاذع ومؤلم .

قال الشاعر :

ولى الشباب حميدة أيامه   لو كان ذلك يشترى أو يرجع

فلم يترك وسيلة من وسائل عودة الشباب إلا طرقها دون جدوى .

وقال مسلم :

واهاً لأيام الصبا وزمانه   لو كان أسعف بالمقام قليلاً

وهو لم يقل ذلك إلا بعد أن تفلتت أيام الصبا منه وغادرته إلى غير رجعة ، ولهذا قال لو كان أسعف ـ بالماضي ـ إنه كمن وجد نفسه مودعاً ولما أقلعت الطائرة بمن ودعه تنهد قائلاً: آه لو عدل عن سفره .

* * *

بقيت الحروف الأربعة المركبة وهى : هلاَّ ـ ألاَّ ـ لولا ـ لوما وأصلها (هل) ، (لو) .

ألحقنا (لا) بـ (هل) فصارت (هلاَّ) وإذا قلبنا الهاء همزة صارت (ألاَّ) أما (لو) فإذا ألحقنا بها (لا) صارت (لولا) ، وإذا ألحقنا بها (ما) صارت (لوما) ، وإنما كانت

من أدوات التمنى البلاغى ، لأنه يتولد منها مع الفعل الماضى التنديم ومع الفعل المضارع الحث والحض .

تقول فى التنديم :

هلا أكرمت ضيفك ؛ ألاّ نهضت من نومك مبكراً

لولا أجبت إجابة صحيحة ، لوما سكت

وتقول في الحث والحض :

هلاّ تجتهد ، ألاّ تشترك معنا في رحلتنا

لوما تحضر حفلنا ، لولا تزورونا

٥ - الترجى

الترجى هو طلب أمر محبوب يتوقع حصوله ، لأنه ممكن قريب لا بعيد .

والترجى ــ كالتمنى ــ نوعان : حقيقى وبلاغى :

والترجى الحقيقى أداتان هما (لعل) و (عسى) .

تقول فى الترجى بـ (لعل) : لعلى أنجح ، ومن أمثلته قول الله تعالى : « لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً » وقول الشاعر :

لعلّ خيــال العامــرية زائـــر   فيسعد مهجور ويسعد هاجر

وتقول فى الترجى بـ (عسى) : عسى أن أنجح ، ومن أمثلته قول الله تعالى : « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها » . وقوله تعالى : « عسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده » . وقول الشاعر :

عسى فرج يأتى به الله إنه   لــه كــل يــوم فى خليقته أمر

الترجى البلاغى

ويكون الترجى بلاغياً إذا استعملنا فيه الأداة الأصلية للتمنى (ليت) ، يقول الطالب الذى لم يجب إجابة تنجح : ليتنى أنجح ، ويقول المتنبى :

إن كان يجمعنا حب لطلعته   فليت أنا بقدر الحب نقتسم

وسر الترجى بـ (ليت) إظهار الممكن القريب فى صورة الممكن البعيد أو فى صورة

المستحيل تعبيراً عن ضعف الأمل فيه ، ودلالة على اليأس منه .

٦ - النداء

النداء هو طلب الإقبال حقيقة ، مثل يا بني ويا صديقي ، أو حكماً مثل « يا جبال أوِّبي معه » .

يا ناق سيرى عنقا فسيحا   إلى سليمان فنستريحا

وطلب الإقبال بشقيه يتم بحرف من حروف النداء نائب عن فعل هو (أدعو) أو (أنادي) أو (أطلب) ونحوها .

وحروف النداء قسمان :

(أ) قسم ينادى به القريب وهو (الهمزة) و (أيْ) مثل : أبني إني حريص على مصلحتك .

أبني إن أباك كارب يومه   فإذا دعيت إلى المكارم فاعجل

أيْ زوجتي تفضلي بأخذ هديتك .

أيْ صديقي إني قصدتك لما   لم أجد في الحياة غيرك شهما

(ب) وقسم ينادى به البعيد وهو (يا) (أيا) (هيا) (آ) (آي) (وا) .

وأمثلته على التوالي هي :

يا ساري البرق غاد القصر واسق به   من كان صرف الهوى والود يسقينا

أيا أحبائي في أمريكا كيف أنتم .

هيا غائباً عني وفي القلب عرشه   أما آن أن يحظى بوجهك ناظري

آ فيصل العزيز اكتب لي .

آيْ أحبائي في مصر راسلوني .

وا طلابي في قسنطينة إني مشوق إليكم .

ما مضى كان النداء الحقيقي ، ومداره نداء القريب بالهمزة وأيْ ونداء البعيد بالأدوات الأخرى .

أما النداء البلاغي فله صورتان :

(١) الصورة الأولى :

وهى تتحقق إذا نادينا القريب بأداة البعيد أو العكس ، فهذا التبادل بلاغى وهو لا يتم إلا لدقائق لطيفة .

ومن الدقائق اللطيفة لمناداة القريب بأداة البعيد الدلالة على علو شأن المنادى أو على انحطاطه ، أو على غفلته .

فمن مناداة القريب بأداة البعيد للدلالة على علو شأنه قول أبى نواس :

يا رب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم

وقول الشاعر :

يا من يرجى للشدائد كلها يا من إليه المشتكى والمفزع

ومن مناداة القريب بأداة البعيد للدلالة على انحطاطه قول الفرزدق لجرير :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذ جمعتنا يا جرير المجامع

وقول الشاعر :

أيا هذا أتطمع فى المعالى وما يحظى بها إلا الرجال

ومن مناداة القريب بأداة البعيد للدلالة على غفلته قول أبى العتاهية :

أيا من عاش فى الدنيا غريباً وأمضى العمر فى قيل وقال

وقول الآخر :

أيا من يؤمل طول الحياة وطول الحياة عليه خطر

* * *

أما مناداة البعيد بأداة القريب فلما فيه من الدلالة على أن ذلك البعيد شاخص أمامنا وحاضر فى قلوبنا على حد قول الشاعر :

إن كنت لست معى فالذكر منك معى يراك قلبى وإن غيبت عن [illegible]

وعلى حد قولى فى رسالة لى كتبتها بالرياض ساعة وصولى إليها من القاهرة : أى زوجتى وأبنائى ، عجبا لى ، إننى حين أغيب عنكم أحس بألف حضور لكم فى داخلى ، وقد

رأيت ـ لهذا ـ أن ألغى من قاموسى كلمتى الوداع والاستقبال وإن تعددت الرحلات وطالت المسافات زماناً ومكاناً .

ومن مناداة البعيد بأداة القريب هذه الأبيات :

أعليُّ إن تـك بالعراق نسيتنى ... فأنا بمصـر على هواك مقيم

* * *

أسكـان نعمان الأراك تيقنـوا ... بأنكم فى ربـع قلبى سكـان

* * *

أىْ بلادى فى القلب مثواك مهما ... طـال منفاى عن ثراك الحبيب

* * *

تلك كانت الصورة الأولى من صور النداء البلاغى ، وهى وإن كانت صورة بلاغية إلا أن فيها من النداء الحقيقى معنى الإقبال ، والفرق بينها وبين النداء الحقيقى أن أدوات النداء مستعملة فى النداء الحقيقى استعمالاً عادياً أصلياً ، أى طبق معانيها الأصلية ودلالاتها اللغوية.

أما هنا فهى مستعملة استعمالاً غير عادى وغير أصلى بل عكسى :

ما للقريب ننادى به البعيد ، وما للبعيد ننادى به القريب ، ولولا هذا العكس فى استعمال الأدوات بدقائقه اللطيفة ما كان النداء بلاغياً بل حقيقياً .

الصورة الثانية للنداء البلاغى :

وفيها يخرج أسلوب النداء عن معنى الإقبال كلية ، وينسى القريب والبعيد جملة ، النداء هنا صورة مفرغة من معناها الحقيقى ومن مضمونها الأصلى ، ثم هى تختلف عن الصورة البلاغية الأولى ، فالصورة البلاغية الأولى فيها روح النداء ونكهته ولها هويته ، أما هذه الصورة فلها أغراض جديدة مخالفة لطلب الإقبال ، ومن هذه الأغراض :

١ - **التحسر** : كقول ابن الرومى :

يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ... ه لدهـرى قطعت متن الرجاء

وقوله :

يا شبابى وأين منى شبابى ... آذنتنـى حبـاله بانقضاب

وقول الآخر :

فيا قبر معن كيف واريتَ جوده   وقد كان منه البر والبحر مترعا

٢ - الإغراء :

كقول المتنبى لسيف الدولة :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى   فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وقول الشاعر :

يا بلادى اليوم فاستقبلى النو   ر وعيشــى طليقــة يا بلادى

٣ - الزجر :

كقول الشاعر :

يا قلب ويحك ما سمعت لناصح   لما ارتميــتَ ولا اتقيــتَ ملامــا

وقول الآخر :

يا قلب حسبك ما قد ذقت من حرق   يا قلــب حسبك ما قد نلت من تعب

٤ - التعجب :

كقولنا : يا لجمال الطبيعة ، ويا لطيبة الرجل ويا لعظمة سلوكه .

وكقول طرفة :

يا لك مــن قنبـــرة بمعمـــر   خلالك الجو فبيضى واصفرى

وقول الشاعر :

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

٥ - الندبة :

كقول الزوجة فى تشييع زوجها أو ولدها (وازوجى) ، (واولدى) .

٦ - الاستغاثة :

تقول : يا لأهل الحى ، لمن التهمت النار بيوتهم وشردت أطفالهم ونساءهم ، وتقول : للمظلومين . ويقول الشاعر :

يا لقومى ويا لأمثال قومى   لأنــاس عتوهم فى ازدياد

٧ - الإختصاص :

والمراد هنا تخصيص حكم منصب على ضمير سابق باسم ظاهر لاحق صورته صورة المنادي ، وليس منادًى حقيقةً مثل : عليَّ أيها الشجاع يتوقف النصر ، نحن الأساتذة نعب الطلبة ، نحن أعضاء هيئة التدريس نرعى مصالح أبنائنا ، منا : فيصلاً وعلاءُوكارماً ومحمداً وناصراً يتكون بيت الملائكة . فليس الغرض من النداء الملحوظ فى الأمثلة السابقة طلب الإقبال ، لأن المراد بالاسم الظاهر فيها ليس المخاطب ـ فلا يوجد مخاطب ـ وإنما المراد به المتكلم نفسه ، والمرء لا يطلب إقبال نفسه ، ولهذا حملت صورة النداء على معنى الاختصاص ، وامتنع إظهار حروف النداء معها ، فقد تمحض الكلام للاختصاص كلية ، وانفصل عن النداء جملة (١) .

تنـويـر

وقبل أن نغادر الإسناد الإنشائى ننبه إلى أنه قد يتبادل الموقف مع الإسناد الخبرى كما أن الإسناد الخبرى قد يتبادل الموقف معه ، أريد أن أقول : إن الإسناد الخبرى قد يكون معناه إنشائياً والعكس صحيح ، لكن ذلك ـ إن تم ـ يتم تحت ضوابط معينة وبقرائن خاصة ولأغراض محددة ، وتكون الجملة خبرية لفظاً وهى إنشائية معنى ، أو خبرية معنى وهى إنشائية لفظاً ، وقد جعل السكاكى ذلك إجراءً للإنشاء لا على مقتضى الظاهر ؛ مساوياً فى ذلك بينه وبين الخبر .

فكما خرج الخبر على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، ها هو ذا الإنشاء يخرج على خلاف مقتضى ظاهر الحال ، ولندعه هو يتكلم قال : « واعلم أن الطلب كثيراً ما يخرج لا على مقتضى الظاهر ، وكذلك الخبر ، فيذكر أحدهما في موضع الآخر ، ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخى نكت قلما يتفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا » (٢) .

فمن النكت التى يؤديها الإنشاء الواقع موقع الخبر :

١ - العناية بالشيء :

كقول الله تعالى : « قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد » لم يقل سبحانه وتعالى : أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد ، إظهاراً لعناية الله بالصلاة .

---

(١) انظر المنهاج الواضح ص ١١٩ .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٤ .

٢ - الاحتراز عن مساواة المتأخر للمتقدم :

كقول الله تعالى : « قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون من دونه » ، لم يقل سبحانه وتعالى « وأشهدكم » تحاشياً من مساواة شهادتهم بشهادة الله سبحانه وتعالى.

٣ - الرضا بالواقع حتى لكأنه مطلوب للمتكلم :

كقول الرسول ﷺ : « من كذب علىَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، لم يقل (تبوأ) أو (فقد تبوأ) ، إشعاراً بأنه ﷺ راض بأن يتبوأ الكاذب عليه مقعده من النار حتى لكأنه يطلب له ذلك من الله ، بل يأمر بأن يصلاه [1] .

ومن النكت التى يؤديها الخبر الواقع موقع الإنشاء :

١ - التفاؤل للمخاطب بحصول الشئ :

كقولى لولدى : نجحك اللّه يا بنى ، بدلاً من : اللهم نجحك يا بنى .

يقول السكاكى : « ليتفاءل بلفظ الماضى » والأمر كما قال ، لكأن ابنى قد نجح فعلاً ، وهأنذا أخبره بنجاحه .

٢ - إظهار الحرص على حصول الشئ :

مثل أن أختم رسالتى لولدى بقولى : ردك الله إلينا سالماً غانماً ، وأسعدنا بلقائك دائماً ، يقول السكاكى : « فالطالب متى تبالغ حرصه فيما يطلب ربما انتقشت فى الخيال صورته لكثرة ما يناجى به نفسه فيخيل إليه غير الحاصل حاصلاً » [2] .

٣ - الاحتراز عن صيغة الأمر تأدباً مع المخاطب واحتراماً له :

كقولك فى حضرة رئيسك : « ينظر سيدى فى ملتمسى ويقضى فيه بما يراه » . تحرجاً من (انظر) و (اقض) .

٤ - حمل المخاطب على المطلوب أبلغ حمل بألطف وجه :

كما إذا سمعتَ من لا تحب أن يُنسب إلى الكذب يقول لك : « تأتينى غداً » أو « لا تأتينى»

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٨٠ هامش رقم / ٥ .

(٢) المفتاح ص ١٥٥ .

فإنك إن لم تفعل ما تحدث به إليك تكون قد كذبته بحسب الظاهر ، لأنه أجرى كلامه مجرى الخبر وأنت لا ترضى له ذلك ، أما بحسب الواقع فلا تكذيب هناك ، لأن الكلام فى المعنى إنشاء .

٥ - تنبيه المخاطب إلى الامتثال على وجه السرعة :

كقول الله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » فى موضع « لا تعبدوا » كأنهم نهوا فامتثلوا فأخبر عن امتثالهم ، وكقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله» فى موضع (آمنوا) و (جاهدوا) [(١)].

طرفا الإسناد

للإسناد ـ خبريا كان أو إنشائياً ـ طرفان اثنان هما : المسند إليه والمسند .

ولا يخرج المسند إليه عن أن يكون :

١ - الفاعل مثل (محمد) فى : نجح محمد .

٢ - نائب الفاعل مثل (الضيف) فى أكرم الضيف .

٣ - المبتدأ الذى له خبر مثل (الطالب) فى (الطالب ناجح) .

٤ - ما أصله المبتدأ : وهو اسم كان وأخواتها مثل (فيصل) فى « كان فيصل مسافراً » واسم إن وأخواتها مثل « محمداً » فى : « لعل محمداً مسافر » والمفعول الأول للأفعال التى تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر مثل « ناصراً » فى : ظننت ناصراً مسافراً .

٥ - مرفوع المبتدأ المكتفى به عن الخبر مثل (والدك) فى : أمسافر والدك ؟

ولا يخرج المسند عن أن يكون :

١ - الفعل التام مثل (تفوق) فى : تفوق محمد .

٢ - اسم الفعل مثل (هيهات) بمعنى (بَعُدَ) .

(وى) بمعنى (أتعجب) .

(بله) بمعنى (دع) .

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٥ .

٣ – المبتدأ المكتفى بمرفوعه عن الخبر مثل (مخلص) فى : أمخلص أنت لى ؟

٤ – خبر المبتدأ مثل (ناجح) فى : علاء ناجح .

٥ – ما أصله خبر المبتدأ وهو خبر كان وأخواتها وخبر إن وأخواتها ، والمفعول الثانى للأفعال التى تنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر مثل (ناجحاً) فى : كان محمد ناجحاً، و (ناجح) فى : إن محمداً ناجح ، و (متزوجاً) فى حسبت إبراهيم متزوجاً .

٦ – المصدر النائب عن فعل الأمر مثل : اجتهاداً وتفوقاً يا طلاب ، وكقول الله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » .

وما زاد على المسند إليه والمسند غير المضاف إليه وصلة الموصول فهو فى المصطلح البلاغى قيد .

والقيود التى تعرض للإسناد أو لطرفيه أو لأحدهما هى :

الجار والمجرور ، وأدوات النفى ، وأدوات الشرط: والمفاعيل ، والتوابع ، والحال والتمييز.

أحوال الطرفين

ونقصد بأحوال الطرفين ما يعرض لهما من الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والتقييد والإطلاق ، يقول السكاكى عن المسند إليه : « يجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك أن ترجع إلى فكرك الصائب ، وذهنك الثاقب ؛ ناظراً بنور عقلك وعين بصيرتك فى إيراد المسند إليه على كيفيات مختلفة ، وصور متنافية حتى يتأتى بروزه عندك لكل منزلة فى معرضها ، فتعرف أيما حال يقتضى طىّ ذكره ، وأيما حال يقتضى خلاف ذلك ، وأيما حال يقتضى تعرفه مضمراً أو علماً أو موصولاً أو اسم إشارة أو معرفاً باللام أو بالإضافة ، وأيما حال يقتضى تعقيبه بشئ من التوابع الخمسة والفصل (ضمير الفصل) وأيما حال يقتضى تنكيره وأيما حال يقتضى تقديمه على المسند ، وأيما حال يقتضى تأخيره عنه ، وأيما حال يقتضى تخصيصه أو إطلاقه حال التنكير، وأيما حال يقتضى قصره على الخبر»[١].

ويقول عن المسند : « لابد من التصفح عن الأحوال المقتضية لأنواع التفاوت فى المسند من كونه متروكاً تارة ، وغير متروك أخرى ؛ ومن كونه مفرداً أو جملة ، وفي إفراده من كونه

(١) المفتاح ص ٨٤ .

فعلاً نحو قام زيد ويقوم وسيقوم أو اسماً منكراً أو معرفاً من جملة المعرفات مقيداً كل ذلك بنوع قيد نحو ضربت يوم الجمعة ، وزيد رجل عالم ، وعمرو أخوك الطويل ، أو غير مقيد ، وفي كونه جملة من كونها اسمية أو فعلية أو شرطية أو ظرفية ، ومن كونه مقدماً أو مؤخراً » (١)

والسكاكي هنا وهناك يجعل مدار حسن الكلام وقبحه على انطباقه وتركيبه على مقتضى الحال وعلى لا انطباقه .

ولولا عجمته التي تبين من (وعلى لاانطباقه) لقال بعبارة فصيحة : إن مدار حسن الكلام وقبحه فيما نحن بصدده من الكلام عن أحوال المسند إليه والمسند إنما هو التوفيق أو عدم التوفيق في إيراد كل منهما بالشكل المعين ، وفي المكان المحدد .

وإذا كان ما سبق من كلام السكاكي وكلامي إجمالاً لأحوال الطرفين في الإسناد ، فإن تفصيله هو :

(١)
الذكر

أولاً : ذكر المسند إليه :

يذكر المسند إليه لواحد أو أكثر من الأمور الآتية :

١ - أن يكون المسند مما يصح إسناده إلى أي مسند إليه لكنا نريد إسناده إلى مسند إليه معين ، أقول : محمد جاء وعلاء ذهب وكارم في العيادة . فالمجيء يمكن إسناده إلى علاء وإلى كارم لكنا لا نريد إسناده إلا إلى محمد ، والذهاب يمكن إسناده إلى محمد وإلى كارم لكنا لا نريد إسناده إلا إلى علاء ، والتواجد في العيادة يمكن إسناده إلى محمد وإلى علاء لكنا لا نريد إسناده إلا إلى كارم .

وهذا هو معنى قول السكاكي : « وأما الحالة التي تقتضي إثباته فهي أن يكون الخبر عاماً بالنسبة إلى كل مسند إليه ، والمراد تخصيصه بمعين كقولك زيد جاء وعمرو ذهب وخالد في الدار ، وقوله :

الله أنجح ما طلبت به ... والبر خير حقيبة الرحل

---

(١) المفتاح ص ٩٨ .

وقوله :

والنفس راغبة إذا رغبتها   وإذا ترد إلى قليل تقنع [1]

ويخالف القزويني السكاكي فيما ذكره من ربط ذكر المسند إليه بعموم الخبر وإرادة تخصيصه بمعين ، معولا في ذكره أو عدم ذكره على القرينة فإن وجدت جاز حذفه ولو كان الخبر عاماً وأريد تخصيصه بمعين ؛ وإن لم توجد وجب ذكره بصرف النظر عن أى شئ آخر[2] .

٢ - يذكر المسند إليه احتياطا لضعف التعويل على القرينة فى إحضاره فى ذهن السامع كأن يسألك صديقك الذى طلب منك معرفة رأى والدك فى تقدمه لخطبة شقيقتك قائلاً : ما رد والدك ؟ أو ماذا قال والدك ؟ فتنشغل عنه ثم تجيب : قال والدى كذا وكذا وكذا .

وهذا المثال يصح التمثيل به لما قاله السكاكى من أن :

٣ - الأصل فى المسند إليه أن يكون مذكوراً: وهو ما عبر عنه القزويني بقوله :

إن الذكر هو الأصل ولا مقتضى للحذف .

كما يصح التمثيل به لما قالاه من :

٤ - زيادة الإيضاح والتقرير :

ومن ذكر المسند إليه لزيادة الإيضاح والتقرير قول عمرو بن كلثوم :

ونحن التاركون لما أردنا   ونحن الآخذون لما رضينا

٥ - التنبيه على غباوة السامع :

كأن تقول لسامع القرآن : القرآن كلام الله . وكأن يذكر الأستاذ رأياً فى مسألة فيسأله طالب : من صاحب هذا الرأى ؟ فيجيب الأستاذ فى تواضع : من قاله هو صاحبه : فيقول الطالب : ومن قاله ؟ فيرد الأستاذ : أنا قلته وأنا صاحبه .

٦ - إظهار تعظيمه :

كقولك لمن سألك : هل حضر الدكتور علاء ؟ حضر الدكتور النابه ، وكقولك لمن سألك : هل عاد الزعيم إلى أرض الوطن ؟ : عاد السيف إلى جرابه وحل الليث منيع غابه .

وتقول دون سؤال : سمو ولي العهد ونائب جلالة الملك صلى مع المسلمين صلاة الاستسقاء .

---

(١) المفتاح ص ٨٥ .

(٢) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٧١ .

٧ - إظهار تحقيره :

كقولك : حضر الثعبان . لمن سألك : هل حضر فلان ؟ وكقولك : مَثَلَ المجرم أمام القاضي . لمن سألك : هل مثُل المتهم أمام القاضي ؟ وتقول دون سؤال : السارق بين الطلاب . تريد طالباً معيناً .

٨ - إظهار التعجب منه :

مثل : خالد أنجب ، رداً على من سأل : هل أنجب خالد ؟ وذلك إذا كان معلوماً أن الأطباء قد قرروا أن مثل خالد لا ينجب .

٩ - التبرك بذكره :

كقولك لمن سألك : هل قال الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ؟ » الرسول ﷺ قال : «إنما الأعمال بالنيات » .

١٠ - التلذذ بذكره :

أقول لمن سألنى : هل كلمك أولادك فى أمريكا ؟ أولادى فى أمريكا كلمونى ، فيصل كلمنى . رشا كلمتنى . نهى كلمتنى ، نهلة كلمتنى . نيِّرة كلمتنى .

وكقول عباس العقاد :

الحب أن نصعد فوق الذرى   الحب أن نهبط تحت الثرى

والحب أن نؤثر لذاتنا   وأن نرى آلامنا أثرا

وقول الشاعر :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

١١ - التهويل والتخويف :

تقول : جلالة الملك أمر بمنع التدخين فى المكاتب الحكومية . تهول المخاطب بذكر المسند إليه طلباً لامتثاله ورغبة فى استجابته .

١٢ - التسجيل على المسند إليه حتى لا يتنصل مما شَهِدَ به عليه .

يقول القاضي للشاهد . هل أقرَّ هذا بأن عليه لناصر مبلغ كذا ؟

فيجيب الشاهد : نعم محمد هذا أقر بأن عليه لناصر مبلغ كذا .

ذكر الشاهد اسم المسند إليه وهو محمد حتى لا يتيح له فرصة التنصل من شهادته عليه. كأن يقول للقاضي : لقد فهم الشاهد أنك أشرت إلى جارى لا إليَّ فهو قد شهد على جارى لا عليَّ .

١٣ - بسط الكلام افتراصا :

أى انتهازاً للفرصة . وذلك إذا كان إصغاء السامع مطلوباً للمتكلم كقول موسى عليه السلام : « هى عصاى » وكان يتم الجواب بمجرد أن يقول (عصا) لكنه ذكر المسند إليه وزاد فقال : « هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى »[1] .

ثانيا : ذكر المسند

يذكر المسند لواحد أو أكثر من الأمور الآتية :

١ – ألا يكون المسند إليه دالاً على المسند ولا موحياً به ، كما إذا قلت ابتداء : زيد عالم[2].

٢ – كون الذكر هو الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كقولك : النابغة أول ناقد عربى محكم[3] .

٣ – زيادة التقرير كقول الله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم » أعاد سبحانه وتعالى ذكر المسند وهو (خلقهن) لزيادة الإيضاح والتقرير .

٤ – التعريض بغباوة سامعك كقولك : محمد نبينا ، جواباً لمن سألك : من نبيكم ؟ فقد ذكرت المسند وهو (نبينا) برغم دلالة السؤال عليه .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٥ .

(٢) المفتاح ص ٩٩ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

ومن ذكر المسند للتعريض بغباء السامعين قول الله تعالى : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

ذكر الله سبحانه وتعالى المسند (فعله) على الرغم من دلالة السؤال عليه دمغاً لقوم إبراهيم بالغباء .

٥ - الاحتراز من فهم ماليس مراداً للمتكلم كقولهم « عقل فى السماء وحظ مع الجوزاء » فلو حذفنا « مع الجوزاء » وهو المسند فى الجملة الثانية لاحتمل أن يكون الحظ عاثراً كما هو حال الكثيرين من رجال الفكر والأدب فمن المعروف المألوف أن الأرزاق لا تجرى على الحجا ، وقد ذاع هذا وشاع حتى صار من الحقائق العرفية .

٦ - التلذذ بذكر المسند مثل : هى نهلة . جواباً لمن سأل : هل هذه نهلة ؟ ومثل : هى أم كلثوم . جواباً لمن سأل : هل هذه أم كلثوم ؟

٧ - التعجب من المسند إليه بذكر المسند إذا دلت قرائن الأحوال على ذلك كقولك : خالد يقاوم الأسد .

٨ - تعظيمه أو تحقيره . تقول : أحمد ذروة إخوته وإبراهيم أقلهم قيمة ، فتكون قد عظمت أحمد وحقرت إبراهيم ، تحديداً وتعييناً لا تعميماً وتهويماً .

٩ - بسط الكلام والمقام مقام بسط ، كقولك لمن سألك : من زاركم ؟ زارنا ناصر وزارنا محمد وزارنا كارم وزارنا علاء وزارنا فيصل . وكقولك لمن سألك . من يدرس لنا البلاغة ؟ يدرس لنا البلاغة الدكتور عبده قلقيلة .

(١٠) تعيين كون المسند اسماً نحو زيد عالم فيستفاد الثبوت صريحاً أو كونه فعلاً نحو زيد عَلِمَ فيستفاد التجدد ، أو ظرفاً نحو زيد فى الدار فيورث احتمال الثبوت والتجدد بحسب التقديرين وهما حاصل أو حصل [1] .

ومن ذلك قول الله تعالى : « يخادعون الله وهو خادعهم » فالفعل (يخادعون) يفيد التجدد ، أما الاسم (خادعهم) فيفيد الثبوت .

وقد ختم السكاكى دواعى ذكر المسند بقوله : « ويصلح لشمول هذه الاعتبارات قولك عند

---

(١) المرجع السابق نفسه .

المخالف : الله إلهنا ومحمد نبيينا والإسلام ديننا والتوحيد والعدل مذهبنا والخلفاء الراشدون أئمتنا ، والناصر لدين الله خليفتنا ، والدعاء له والثناء عليه وظيفتنا »[1] .

٢ - الحذف

أولاً : حذف المسند إليه :

المسند إليه الذى يمكن حذفه هو المبتدأ فى الجملة الاسمية ، والفاعل فى الجملة الفعلية .

حذف المسند إليه المبتدأ :

دواعى حذف المسند إليه المبتدأ كثيرة منها :

(١) الإحتراز عن العبث :

وذكر المسند إليه يكون عبثاً إذا انكشف للمخاطب بقرينة من القرائن ، وعلى حد قول السكاكى : « إذا كان السامع مستحضراً له عارفاً منك القصد إليه عند ذكر المسند » ، ولأن البلاغة ضد العبث فإنها ترجح حذف المسند إليه المبتدأ فى المواطن الآتية :

(أ) إذا وقع فى جواب الإستفهام :

كقول الله تعالى : « وما أدراك ماهية ، نار حامية » فالتقدير هى نار ، وقوله تعالى : « وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة » فالتقدير : هى نار الله الموقدة ، وقوله تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود » أى هم فى سدر مخضود .

(ب) إذا وقع بعد القول :

كقول الله تعالى : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها » أصل الكلام وقالوا : القرآن أساطير الأولين ، وقوله تعالى : « سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » .

التقدير : يقولون : هم ثلاثة ويقولون هم خمسة ويقولون هم سبعة .

وقوله تعالى : « فصكت وجهها وقالت : عجوز عقيم » أى أنا عجوز عقيم .

---

(١) المفتاح ص ٨٤ .

(جـ) إذا جاء بعد الفاء المقترنة بالجملة الإسمية الواقعة جواباً للشرط :

كقول الله تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » أى فعمله لنفسه ، وإساءته عليها ، وقوله تعالى : « لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ، وإن مسَّه الشر فيئوس قنوط » أى فهو يئوس قنوط ، وقوله تعالى : « وإن تخالطوهم فإخوانكم » أى فهم إخوانكم .

(د) إذا استطرد المتكلم إلى غير ما يتحدث عنه ثم عاد إلى ما كان فيه :

كقول عبد الله بن الزبير الأسدى فى مدح عمرو بن عثمان بن عفان :

سأشكر عمراً إن تراخت منيتى ... أيادى لم تُمنن وإن هى جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

إذ لم يقل هو فتى ، وقول أبى الطحان القينى :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب ... بدا كوكب تأوى إليه كواكبه

حين لم يقل : هم نجوم سماء .

وقول آخر :

قالت سمية قد غويت بأن رأت ... حقاً تناوب مالنا ووفودا
غىٌ لعمرك لا أزال أعوده ... ما دام مال عندنا موجودا

أى : هو غىٌّ .

(هـ) إذا كان المسند لا يصلح إلا له حقيقة :

كقولنا : خالق لما يشاء فاعل لما يريد . وكقول الله تعالى : « عالم الغيب والشهادة » أو ادعاء كقولك : وهاب الألوف . تريد كريماً شهر بين الناس بسخائه وعظم عطائه ، وكما كانوا يقولون : (فاتنة المعادى) يعنون الفنانة : ليلى فوزى ، وكما لايزالون يقولون : كوكب الشرق ، يعنون أم كلثوم ، وسيدة الشاشة العربية ، يعنون : الفنانة فاتن حمامة .

٢ - تخييل أن فى حذفه تعويلاً على شهادة العقل ، وفى ذكره تعويلاً

على شهادة اللفظ من حيث الظاهر ، وكم بين الشهادتين [1] كأن نكون فى انتظار زائر كبير فيأتى من يقول : (حضر ..) .

٣ - ضيق المقام عن ذكره بسبب شعر أو ضجر أو خوف فوات فرصة :

فالأول كقول الشاعر :

على أننى راض بأن أحمل الهوى   وأخرج منه لا علىَّ ولاليا

أى لا علىَّ شئ ولا لى شئ ، وإنما حذف الشاعر المسند إليه وهو شئ لئلا يختل وزن البيت .

والثانى كقول الآخر :

قال لى : كيف أنت قلت عليل   سهر دائم وحزن طويل

فالتقدير : أنا عليل ، حالى سهر دائم وحزن طويل .

والثالث كقولك لرفيقك الصياد : غزال ، أى هذا غزال ، وكقولك مستغيثاً : حريق ، أو غريق أى هذا حريق أو هذا غريق .

٤ - تعجيل المسرة بالمسند :

مثل : دينار . أى هذا دينار ، ونحو : جائزتى أى هذه جائزتى ، وكأن يتفحص الأبناء شخصاً قادماً ويهتف أحدهم مبشراً إخوته بقوله : أبونا ، أى هو أبونا أو هذا أبونا .

٥ - جعل التراجع عما قلناه ممكنا بتفسيره تفسيرا معينا :

مثل أن يأتى ذكر شخص فى معرض الكلام فيقول أحد الحاضرين : منافق جبان كذاب ثم تدعوه الضرورة إلى سحب كلامه فيسحبه ذاهباً إلى أنه لم يقصده بهذه الأوصاف ، ولو أنه كان قد صرح بذكر المسند إليه لما أتيحت له فرصة الخروج من هذا المأزق .

٦ - إنشاء المدح أو الذم أو الترحم :

فالمدح كقولنا : الحمد لله أهل الحمد ، أى هو أهل الحمد ، وكتعليقك على برّ شخص للناس بقولك : أهلُ الخير أى هو أهل الخير .

---

(١) المفتاح ص ٨٤ .

والذم مثل أعوذ بالله من الشيطان الرجيمُ برفع الرجيم أى هو الرجيم .

وكقول الأقيشر فى ذم ابن عم له كان قد منعه ولطمه :

سريع إلى ابن العم يلطم خده   وليس إلى داعى الندى بسريع
حريص على الدنيا مضيع لدينه   وليس لما فى بيته بمضيع

والترحم كقولك : اللهم ارحم عبدك المسكينُ برفع المسكين أى هو المسكين ، وكقول الأم : اللهم اشف ابنى المريضُ برفع المريض أى هو المريض .

٧ - إجراء الكلام على الاستعمال الوارد بترك المسند إليه :

يقول السكاكى كقولهم « نعم الرجل زيد ، على قول من يرى أن أصل الكلام نعم الرجل هو زيد » ونعطف على كلام السكاكى قائلين : وكالأمثال محذوفة المبتدأ قال أبو عبيد قال الأصمعى : من أمثالهم قولهم « فتى ولا كمالك » أى هو فتى ، قال الأصمعى : ولا أدري من مالك ، وقال محمد بن يزيد هو مالك بن نويرة ، وقال غيره هو مالك بن قيس بن زهير (١) .

وكالمثل السابق قولهم : رمية من غير رام . وشنشنة أعرفها من أخزم (٢) .

حذف المسند إليه الفاعل

ودواعى حذف المسند إليه الفاعل كدواعى حذف المسند إليه المبتدأ كثيرة منها :

١ - عدم الإفادة من ذكره :

كقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا » لم يقل إذا قال لكم قائل لعدم جدوى ذلك .

وقوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً » ببناء (ذُكر) و (تُلى) للمجهول ؛ لعدم تعلق غرض ما بشخص الذاكر وبشخص التالى .

ومن ذلك قول الفرزدق فى مدح على بن الحسين رضى الله عنهما :

---

(١) فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال لأبى عبيد البكرى تحقيق إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بيروت ١٣٩١هـ / ١٩٧١م ص ٢٠٢ .

(٢) انظر هامش رقم ٤ ص ٨٥ وهامش رقم (١) ص ٨٦ من المنهاج الواضح جـ ٣ .

يغضي حياءً ويُغضى من مهابته   فلا يكلم إلا حين يبتسم

٢ - العلم بالفاعل :

كقول الله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض » أى فإذا قضيتم الصلاة، وقوله تعالى : « وعرضوا على ربك صفا » أى عرضهم الله عليه صفا .

٣ - الجهل بالفاعل :

كقول القائل : كُسر باب دارى ، وسرق مالى ، وخُطف ولدى . بالبناء للمجهول فى الأفعال الثلاثة لعدم معرفة من فعل ذلك .

٤ - الخوف من الفاعل :

كقولنا : قُتل فلان إذا كنا نعرف القاتل لكنا نخاف على أنفسنا منه أو من أحد أعوانه .

٥ - الخوف على الفاعل :

كأن تقول الأم لزوجها : كُسر زجاج المكتبة ؛ خوفاً على ابنها الذى كسره من عقاب والده.

٦ - الإيهام بصون اللسان عن ذكره :

كقولك عن زميلك الذى زين له الشيطان خطيئته : زين له فعلته الشنيعة ؛ صونا للسانك عن ذكر كلمة (الشيطان) وكقولك : من علامات الساعة أن يظهر ، ولا تقول : المسيخ الدجال .

٧ - الإيهام بصونه عن اللسان :

وما أكثر ما نقول : قال تعالى ، وقال ﷺ ، الأصل قال الله تعالى ، وقال رسول الله ﷺ ، لكنا نجل اسميهما عن ألسنتنا التى تتحرك بالشر أكثر مما تتحرك بالخير .

* * *

انتهى ما أردنا إثباته من دواعى حذف المسند إليه مبتدأ كان أو فاعلاً .

وقد أحسن السكاكى صنعاً حين ترك باب حذف المسند إليه مفتوحاً وراءه لمن يأتى بعده ، عله يستنبط عللاً أخرى لحذفه بقوله : « وإما لأغراض سوى ما ذكرنا مناسبة فى باب الاعتبار بحسب المقامات لا يهتدي إلى أمثالها إلا العقل السليم والطبع المستقيم ، وقلما

ملك الحكم هناك شئ غيرهما فراجعهما [1] .

وأنا مع السكاكى فيما قاله ، وهأنذا أترك مثله باب الاجتهاد مفتوحاً ، واللهم سدد على هذا الدرب كل من جاء بعدُ . آمين .

ثانياً : حذف المسند

المسند المحذوف كالمسند إليه المحذوف يكثر أن يكون خبراً لمبتدأ أو فعلاً لفاعل .

حذف المسند الخبر

ودواعى حذف المسند الخبر كثيرة منها :

١ - الاحتراز عن العبث :

ويترجح حذف المسند الخبر لهذا السبب فى ثلاث حالات هى :

(أ) إذا جاءت جملته بعد إذا الفجائية وكان الخبر دالاً على معنى عام مفهوم من الكلام .

تقول : دخلت المكتبة فإذا صديق قديم . أى فيها أو بها أو أمامى .

وخرجت من البيت فإذا المطر . أى منهمر .

ونزلنا من الطائرة فإذا المستقبلون أى منتظرون .

(ب) إذا كانت جملته جواباً على استفهام دال على الخبر .

كأن يسألنى سائل : من معك ؟ فأجيب : زوجتى . وكأن أسأل طالباً : من دلك على مراجع بحثك ؟ فيجيب : أبى . وكأن أقول لابنى : من قال لك ذلك ؟ فيجيب أمى .

(جـ) كذلك يترجح حذف الخبر إذا كانت جملته معطوفة على جملة اسمية أو معطوفاً عليها جملة اسمية والمبتدآن مشتركان فى الحكم .

فمن الأول قولى لأحد الصديقين : (عبد العزيز مشعل وعبد الحميد ناصر) : أنت ناجح وصديقك ، أى وصديقك ناجح .

وقول الله تعالى : « أكلها دائم وظلها » أى وظلها دائم .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٤ .

وقول ضابئ بن الحارث البرجمي :

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإنـــي وقيـــار بهـــا لغريب

أي فإني لغريب وقيار غريب .

وقول الفرزدق :

وليـــس قولك من هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

ومن الثاني قول عمرو بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي :

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ـــدك راض والـــرأي مختلـــف

٢ - العدول إلى أقوى الدليلين وهو العقل في مقابلة النقل :

أو كما قال السكاكي : « تخييل أن العقل عند الترك هو مُعَرِّفه ، وأن اللفظ عند الذكر معرفه من حيث الظاهر ، وبين المعرفتين بون ، ولك أن تأخذ من هذا القبيل قوله عزّ وعلا : «والله ورسوله أحق أن يرضوه » أي والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

٣ - ضيق المقام مع قصد الاختصار كقول المتنبي :

قالت وقد رأت اصفراري من به وتنهـــدت فأجبتهـــا : المتنهـــد

(من به) تعني : من المطالب به ، أي بتعويض هذا الاصفرار وتحويله إلى لون الصحة والسعادة ، ولا يكون المحذوف هنا خبراً إلا إذا جعلنا التقدير (المتنهد هو المطالب به) ، أما إذا جعلنا التقدير (هو المتنهد) فإن البيت يكون مثالاً لحذف المسند إليه لا المسند .

* * *

حذف المسند الفعل

دواعي حذف المسند الفعل كدواعي حذف المسند الخبر كثيرة منها :

١ - الإحتراز عن العبث :

وأكثر ما يكون ذلك إذا وقعت الجملة الفعلية المحذوفة الفعل جواباً عن سؤال منصوص عليه في الكلام كقول الله تعالى : « ولئن سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض ليقولن الله » التقدير : خلقهن الله ، وقوله تعالى : « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله » التقدير ليقولن نزّل الله من السماء ماء .

أو غير منصوص عليه في الكلام بل مقدر كقول الحارث بن خرار النهشلي في رثاء أخيه يزيد :

ليُبْك يزيدُ ضارع لخصومة ومختبط مما تطيح الطوائح

الضارع : الضعيف عن الخصومة ، والمختبط : طالب العطاء دون معرفة ولا قرابة كأن سائلاً سأل : من يبكيه ؟ فأجيب : ضارع ومختبط أي ليبكه ضارع وليبكه مختبط ، وكالبيت قراءة من قرأ : « يُسَبَّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال » وقراءة : « كذلك يُوحَى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » .

ببناء الفعلين (يُسبح) و (يُوحى) للمفعول ، يقول القزويني :

« وفضل هذا التركيب على خلافه أعني نحو « ليَبْكِ يزيدَ ضارع ... »

ـ ببناء الفعل للفاعل ونصب (يزيد) من وجوه :

أحدها : أن هذا التركيب يفيد إسناد الفعل إلى الفاعل مرتين : إجمالاً ثم تفصيلاً .

الثاني : أن نحو (يزيد) فيه ركن الجملة لا فضلة ، وكونه ركناً في الجملة يفيد الاعتناء به ويناسب مقام رثائه .

الثالث : أن أوله غير مطمع للسامع في ذكر الفاعل ، فيكون عند ورود ذكره كمن تيسرت له غنيمة من حيث لا يحتسب ، وخلافه بخلاف ذلك[1]

---

(١) بغية الإيضاح جـ ١ ص ١٦٨ .

التقديم والتأخير

مدخل :

معلوم أن المسند إليه والمسند هماالعنصران الأساسيان فى الجملة العربية اسمية كانت أم فعلية ؛ والأصل فى الجملة الفعلية أن يأتى الفعل أولاً والفاعل ثانياً والمفعول به أو غيره من القيود ثالثاً ، والأصل فى الجملة الاسمية أن يأتى المبتدأ أولا والخبر ثانياً .

وكان المنتظر أن الكلام إذا جاء على الأصل يكون شيئاً طبيعياً لا يحتاج إلى تعليل .

لكن الاعتبارات البلاغية ـ وهى جمالية ـ قد تجد لتقديم ما حقه التقديم ولتأخير ما حقه التأخير وجهاً أو أكثر من وجوه الحسن فتقوله بل تقرره ، وأكثر من ذلك ترغب فيه وتدعو إليه ، كما قد تجد فى جريان الكلام على خلاف الأصل دقائق بلاغية ومؤثرات أدائية فتقولها بل تقررها وأكثر من ذلك ترغب فيها وتدعو إليها .

ولأن السبب فى تقديم المقدم هو بعينه السبب فى تأخير المؤخر كان تعليل هذا العمل المزدوج تعليلاً واحداً يقال مرة واحدة ولا يتكرر .

لكن ما سبقت الإشارة إليه من أن البلاغة تعلل الأصل مثلما تعلل الفرع ، قد جعلنا نقف عند تقديم المسند إليه وهو الأصل مثلما نقف عند تأخيره وهو الفرع (فى الجملة الاسمية) وأن نقف عند تقديم المسند وهو الأصل مثلما نقف عند تأخيره وهو الفرع (فى الجملة الفعلية) وإذن فسندرس التقديم والتأخير على الوجه الآتى :

التقديم : { تقديم المسند إليه .
تقديم المسند .

التأخير : { تأخير المسند إليه .
تأخير المسند .

والارتباط قائم بين الأول فى التقديم وهو تقديم المسند إليه والثانى فى التأخير وهو تأخير المسند ، فإن دواعى تقديم المسند إليه هى التى أخرت المسند .

كما أن الارتباط قائم بين الثانى فى التقديم وهو تقديم المسند والأول فى التأخير . تأخير المسند إليه ، فإن دواعى تقديم المسند هى التى أخرت المسند إليه ، ولهذا قلنا ما قلناه من أن تعليل العمل المزدوج تعليل واحد .

وها هو ذا القزوينى يفيض فى دواعى تقديم المسند إليه من ص ١٠٧ إلى ص ١٣٤ حتى إذا جاء إلى دواعى تأخيره اكتفى بقوله : « أما تأخيره فلاقتضاء المقام تقديم المسند » ص ١٣٤ ويفيض فى دواعى تقديم المسند ص ١٩٩ - ٢٠١ حتى إذا جاء إلى دواعى تأخيره اكتفى بقوله : « وأما تأخيره فلأن ذكر المسند إليه - أى أولا - أهم » (١).

ولا عجب ، فأغراض تأخير المسند هى هى أغراض تقديم المسند إليه ، وأغراض تأخير المسند إليه هى هى أغراض تقديم المسند ، والله أعلم .

التقديم

أولا : تقديم المسند إليه

لا يفوتنى التعجب من كثرة ما أورده البلاغيون تبريراً لتقديم المسند إليه مع أن تقديمه هو الأصل بل هو الأمر الحتم إذا كانت الجملة اسمية لم يتقدم فيها الخبر على المبتدأ لأسباب نحوية .

لكنها البلاغة وجمالياتها ، ولكنهم البلاغيون وفنيتهم ، ولا أبرئهم من أنهم كانوا نحويين أكثر منهم بلاغيين فى بعض تبريراتهم كقولهم : « وأما الحالة التى تقتضى تقديمه على المسند فهى متى كان ذكره أهم ؛ ثم إن كونه أهم يقع باعتبارات مختلفة ، إما لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه » (٢) ، وهذا الاعتبار رهن بكون المسند إليه مبتدأ غير مؤخر وإذن فهو اعتبار نحوى بحت ، وكقولهم : « وإما لأنه ضمير الشأن والقصة ، نحو هو زيد منطلق » (٣) ، فهذا الاعتبار نحوى أكثر منه بلاغى إن لم يكن نحوياً صرفاً ، لأنه تطبيق للقاعدة النحوية القائلة « إن ضمير الشأن ملتزم التقديم » .

* * *

---

(١) أراد أن يقول : « فلأن تقديم المسند إليه أهم » لكن فاتته الدقة .

(٢) المفتاح ص ٩٣ وبغية الإيضاح جـ ١ ص ١٠٧ .

(٣) المفتاح ص ٩٣ .

ولا أقف عندما زعموا به أسباب تقديم المسند إليه على المسند من أصول علم المنطق وقضاياه وقواعده ، وصدورهم عن هذا كله فيما هم بصدده ، وإلا خرجت بما أوردت من ذلك عما جعلته شرط كتابى بل اسمه .

فلأقتصر على التعليلات البلاغية لتقديم المسند إليه على المسند عملاً بالمثل القائل « ما لله لله وما لقيصر لقيصر » ومن ذلك ما يأتى :

١ - تمكن الخبر فى ذهن السامع ، لأن فى المبتدأ تشويقاً إليه كقول المعرى :

والذى حارت البرية فيه   حيوان مستحدث من جماد

تقدم المسند إليه هنا وهو اسم الموصول ؛ لأن صلته تشوق النفس وتثير فضولها إلى معرفة المسند ، والحاصل فى النفس بعد التشويق إليه أوقع فيها وأمكن منها .

٢ - تعجيل المسرة أو المساءة بالمسند إليه المتقدم نحو : السعد فى دارك أو النحس فى دارك ونحو : النجاح نلته أو الرسوب أصابك .

(٣) تعجيل التبرك به نحو اسم الله عليك ، ونحو المصطفى ﷺ يفرح بزواره فى روضته .

(٤) تعجيل الأمان به مثل : السلام عيكم ورحمة الله وبركاته .

(٥) تعجيل التلذذ به كقول جميل :

بثينة ما فيها إذ ما تبصرتْ   معاب ولا فيها إذا نسبت أشب

وكقول قيس :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

(٦) التعجيل بتعظيمه أو بتحقيره :

فالأول كقول الله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ».

والثانى كقول الرسول ﷺ مامعناه « الدنيا لا تساوى عند الله جناح بعوضة » .

(٧) الإشعار بأن اتصافه بالخبر هو المطلوب لا نفس الخبر ، كما إذا سـ[illegible] عن الشيخ الحاج فلان : ماباله ؟ وكيف حاله ؟ فأجبت الشيخ الحاج فلان يشرب ويطرب ويلهو ويلعب .

(٨) إفادة تخصيص المسند إليه بالخبر الذى هو جملة فعلية ، وذلك إذا ولى المسند إليه المتقدم حرف النفى ، يقول عبد القاهر « وقد يقدم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلى إن ولى حرف النفى كقولك : ماأنا قلت هذا ، أى لم أقله مع أنه مقول ، فأفاد نفى الفعل عنك وثبوته لغيرك ، فلا تقول ذلك إلا فى شئ ثبت أنه مقول ، وأنت تريد نفى كونك قائلاً له ، ومنه قول الشاعر :

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

إذ المعنى أن هذا السقم الموجود ، والضرم الثابت ما أنا جالباً لهما ، فالقصد إلى نفى كونه فاعلاً لهما لا إلى نفيهما ، ولهذا لا يقال ماأنا قلت ولا أحد غيرى ، لمناقضة منطوق الثانى (ولا أحد غيرى) مفهوم الأول (ما أنا قلت) ، لأن مفهومه أن غيره قاله ، بل يقال ما قلت أنا ولا أحد غيرى [1] .

(٩) إفادة زيادة تخصيص المسند إليه المتقدم بالمسند المتأخر.

كقول الشاعر :

متى تهزز بنى قطن تجدهم سيوفاً فى عواتقهم سيوف
جلوس فى مجالسهم رزان وإن ضيف ألم فهم خفوف

يقول السكاكى « والمراد هم خفوف يقصد أن الشاهد (هم خفوف) فقد زاد الضمير (فهم) من اختصاص بنى قطن بالكرم ، ربما ، لأنه هنا ملفوظ ، أما فى صدر البيت فملحوظ ، وقد قيل إن زيادة المبنى تستلزم زيادة المعنى . والله أعلم .

(١٠) تقوية الحكم :

تقول : محمد نجح فتكون قد قويت الحكم بإسناد النجاح إلي محمد مرتين مرة إلى اسمه ومرة إلى ضميره ، ولهذا كان محمد نجح أبلغ من نجح محمد .

ويسبيل من تقوية الحكم بتقديم المسند إليه الفاعل الكلمتان (غير) و (مثل) وذلك إذا استعملناهما فى إثبات الحكم بطريق الكناية ، تقول : مثلك لا يكذب ، وغيرك لا يفى ، دون أن تقصد التعريض بشخص معين فى المثالين ، وإنما تريد نفى الكذب عن مخاطبك فى

(١) بغية الإيضاح جـ ١ ص ١١١ .

المثال الأول ، وإثبات الوفاء له بطريق الكناية ، لأنك إذا أردت العموم فى (مثل) و (غير) فقد نفيت الكذب عن كل من كان مثل المخاطب ، ولزم من ذلك نفى الكذب عنه ، ونفيت الوفاء عن كل ما سواه ، ولزم من ذلك إثبات الوفاء له ، لأن الوفاء حينئذ لا يكون له محل يحل به غيره.

ومن ذلك قول المتنبى يعزى سيف الدولة :

مثلك يثنى الحزن عن صوبه ويسترد الدمع من غربه

وقوله عن نفسه :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

* * *

ووجه إفادة الكناية للتقوية أن الكناية بأصل وضعها البلاغى تفيد تقويةالإسناد ، لأننا ننتقل فيها من الملزوم إلى اللازم ، وقد قلنا فى فضلها إنها القضية وبرهانها والدعوى ودليلها ، فإذا انضاف إلى ذلك أن التقديم ولو لم يكن عن طريق الكناية يفيد تقوية الحكم ، يكون قد اجتمع لنا هنا سببان لتقوية الحكم هما :

تقديم المسند إليه أولاً ، ومجئ هذا التقديم على سبيل الكناية ثانياً .

وهذا التعليل المزدوج هو السبب فى مجئ المسند إليه (مثل) والمسند إليه (غير) مقدمين دائماً .

(١١) إفادة شمول النفى أى عموم السلب ، وإفادة نفى الشمول أي سلب العموم .

ويتحقق الأول إذا كان المسند إليه المقدم دالاً على العموم وأعقبته أداة نفى لا تطوله أى لا يقع المسند إليه فى حيزها ، وذلك كقولك : كل مهمل لا ينجح .

هنا المسند إليه كلمة (كل) الدالة على العموم ، وهى ليست داخلة فى حيز النفى الذى أفادته (لا) بل خارجة عنه ، وقد صار الكلام بهذا يفيد شمول النفى لكل فرد من أفراد المسند إليه ، لكأننا قلنا « لا ينجح أحد من المهملين » ، والسبب فى ذلك أن كلمة (كل) قد تسلطت على النفى فاكسبته العموم .

ولو أردنا العكس وهو نفى الشمول فما علينا إلا أن نقدم النفي على المسند إليه الدال على العموم كقول المتنبى :

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

وقول أبي العتاهية :

ما كل رأى الفتى يدعو إلى رشد إذا بـــدا لك رأى مشكـــل فقـ .

والفرق بين هذا والذى قبله أن النفى هنا لا يشمل جميع أفراد المسند إليه بل بعضهم فقط ، فالمعنى فى بيتى المتنبى وأبى العتاهية ، أن الإنسان لا يحقق كل أمانيه بل بعضها ، وأن آراءه موزعة على الصواب والخطأ ، أما النفى فيما سبق فيشمل كل أفراد المسند إليه لتسلط (كل) على النفى لا العكس .

ثانياً : تقديم المسند

علل السكاكى تقديم المسند على المسند إليه بثمان علل ، أولها نحوى هو « أن يكون المسند متضمناً للاستفهام كنحو كيف زيد ؟ وأين عمرو ؟ ومتى الجواب ؟ » .

وآخرها كذلك نحوى هو « أن يكون المراد بالجملة إفادة التجدد دون الثبوت فيجعل المسند فعلاً ويقدم ألبتة على ما يسند إليه » [1] .

ونرد الأول بأن لزوم الاستفهام صدر الكلام لزوم نحوى لا بلاغى ، ونرد الثانى بأن ما قاله إنما هو الأصل فى الجملة الفعلية معنى ومبنى .

وسواء ووفقنا على رأينا هذا أو خولفنا فيه فقد ذكرنا السببين الأول والأخير من أسباب تقديم المسند على المسند إليه من وجهة نظر السكاكى ، ولم يكن بوسعنا أن نرفضهما لو أنه قرن كلا منهما بوجه بلاغى .

أما العلل الست الأخرى فهى :

١ - تخصيص المسند المتقدم بالمسند إليه المتأخر كقول الله تعالى : « لكم دينكم ولى دين » وقوله تعالى : « لله ملك السموات والأرض » وقوله تعالى : « لا فيها غول » ، وقولك لمن يقول : زيد إما قائم وإما قاعد فيردده بين القيام والقعود من غير أن يخصصه بأحدهما - : قائم هو ، وقول بعضهم « تميمى أنا » وقول الشاعر :

رضينا قسمة الجبار فينا لنا علـم وللأعـداء مـال

وقول الآخر :

لك القلم الأعلى الذى بشباته يُصاب من الأمر الكلى والمفاصل

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٠ .

٢ – التنبيه ابتداء على أن المسند المقدم خبر للمسند إليه المؤخر لا نعت له :

كقول الله تعالى : « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » وكقولك : تحت رأسى وسادة وعلى جسمى عباءة ، وكقول حسان بن ثابت في مدح النبى ﷺ :

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها   على البر كان البر أندى من البحر

وقول الخنساء فى أخيها صخر :

أغر أبلج يأتم الهداة به   كأنه علم فى رأسه نار

وقول الشاعر :

لكل جديد لذة غير أنني   وجدت جديد الموت غير لذيذ

٣ – الإشعار بأن قلب السامع معقود به :

كقولك : قد هلك خصمك ، وقد ظهرت نتيجة امتحانك ، وقد تحددت إجازة الصيف ، وحجزنا لك ذهاباً وإياباً .

٤ - الدلالة على أنه أهم من المسند إليه عند التكلم :

كقولك : عليه من الرحمن ما يستحقه .

وكقول الشاعر :

سلام الله يا مطر عليها   وليس عليك يا مطر السلام

والفرق بين هذه العلة ، والعلة السابقة :

أنَّ هذه منظور فيها إلى الأديب ، أما السابقة فمنظور فيها إلى متلقى الأدب .

٥ – التفاؤل به إذا كان صالحا لذلك :

كقول ابن الرومى :

يمّن الله طلعة المهرجان   كلُّ يمن على الأمير الهمان

وقول الآخر :

سعدتْ بغرة وجهك الأيام   وتزينت ببقائك الأعوام .

٦ – التشويق إلى المسند إليه المتأخر :

وذلك إذا كان فى المسند المتقدم ما يشوّق إلى المسند إليه ويجعل السامع مستعجلاً

معرفته ، كقول محمد بن وهيب فى مدح أبى إسحق المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر [1]

وقول المعرى :

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها وأولها دخان

وقول الشاعر :

ثلاثة ليس لها إياب الوقت والجمال والشباب

وقول القائل :

ثلاثة يذهبن عن المرء الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن

يقول السكاكى : « وحق هذا الاعتبار تطويل الكلام فى المسند وإلا لم يحسن ذلك الحسن » [2].

انتهت العلل التى ذكرها السكاكى لتقديم المسند .

ويمكن تلمس علل أخرى من نصوص أخرى . كالقصد إلى علم المتعجب منه وفرط الإنكار له ، يقول الله تعالى : « أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم » ؟ ويقول الشريف لمن اتهمه بالسرقة : ألص أنا ؟

وكإبداء التألم والتأزم

يقول المتنبى :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد

ويقول صديقى : من سوء حظى أنى تزوجت امرأة لاذعة .

التأخير

أولاً : تأخير المسند إليه :

يقول السكاكى : « وأما الحالة التى تقتضى تأخيره عن المسند فهى إذا اشتمل المسند

---

(١) جعل بعضهم هذا البيت وأمثاله من تقديم المسند إليه على المسند وهو خطأ إذ لا يخبر بالمعرفة عن النكرة .

(٢) مفتاح العلوم ص ١٠٦ .

على وجه من وجوه التقديم »[1] .

ووجوه تقديم المسند على المسند إليه هى وجوه تأخير المسند إليه عن المسند، وهى ما قد فرغنا منه توّاً .

ثانياً : تأخير المسند :

يقول السكاكى : « وأما الحالة المقتضية لتأخير المسند فهى إذا كان ذكر المسند إليه أهم كما مضى فى المسند إليه ، وإياك أن تظن بكون الحكم على المسند إليه مطلوباً استيجاب صدر الكلام له ، فليس هو هناك فلا تغفل »[2] .

والسكاكى فى هذه العبارة المختصرة ينهى إلينا أن ثمة عللا بلاغية لتقديم المسند إليه على المسند ، أى لتأخير المسند ، ويمضى فيحذر من الظن بأن كون المسند إليه مطلوباً للحكم عليه مستوجب وحده تقديمه .

التعريف والتنكير

التعريف

أولاً : تعريف المسند إليه :

أشار محمد بن على الجرجانى إلى فائدة تعريف المسند إليه بقوله :

« فائدة تعريفه إجمالاً أن المعرفة أخص من النكرة ، وكلما كانت أخص كانت أتم دلالة على المراد ، لكونه أقل احتمالاً لغير المراد من النكرة »[3] وهى فائدة عامة وملحوظة في أى مسند إليه معرفة ، ولو أن عبارة الجرجانى قد غمضت بجعله ضمير المسند إليه مؤنثاً مرة فى (كانت) ـ يقصد المعرفة ـ ومذكراً مرة فى (لكونه) ـ يقصد المسند إليه ـ ولا عجب ؛ فهو أعجمى فارسى ليست العربية لغته الأصلية .

والسكاكى أغمض من الجرجانى فى هذا الصدد ، لكنه وضح كلامه بآخرة فى قوله :

---

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٤ .

(١) مفتاح العلوم ص ١٠٥ .

(٣) الإشارات والتنبيهات ص ٣٦ .

« وإن شئت فاعتبر حال الحكم فى قولك : شئ ما موجود ، وفى قولك : فلان ابن فلان حافظ للتوراة والإنجيل ، يتضح لك ما ذكرت »[1] .

ولم يكن الأستاذ أحمد مصطفى المراغي موفقاً فى قوله : « والتعيين فى المعرفة إما أن يكون بنفس اللفظ كما فى الأعلام . وإما بقرينة خارجية كما في غيره من بقية المعارف »[2] ، فجميع المعارف يتم التعيين فيها بنفس اللفظ لا فرق فى ذلك بين علم وضمير واسم إشارة واسم موصول . ... ، والقرينة الخارجية قاسم مشترك بينها كلها ، فمحمد علم على الشخص المسمى بمحمد ، ونهلة علم على الفتاة المسماة بهذا الاسم .

كما أن الضمير دال على صاحبه متكلماً كان أو مخاطباً أو غائباً ، واسم الإشارة دال على المشار إليه ذكراً كان أو أنثى ، ومفرداً كان أو مثنى أو جمعاً .

ولأن الضمير أعرف المعارف فإننا سنبدأ به .

والحق أن اللغة تسبق البلاغة فى جعل المسند إليه ضميراً أولاً ، وفى جعله ضمير تكلم أو خطاب أو غيبة ثانياً ، ولو كان الأمر بيدى ما جعلت للبلاغة هنا مدخلاً ؛ فلا مندوحة ـ متى كان المقام مقام تكلم ـ من أن أقول (أنا) أو من أن نقول (نحن) .

قال النبى ﷺ : « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

وقال عمرو بن كلثوم :

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا

ولا مندوحة ـ متى كان المقام مقام غيبة ـ من أن نقول بلا أى جهد بلاغى :

هو نجح وهى نجحت وهما نجحا أو نجحتا وهم نجحوا وهن نجحن ، ولقد جمع القاسم ابن حنبل المرى فى بيتيه الآتيين بين أربعة ضمائر للغيبة قال :

من البيض الوجوه بنى سنان لو انك تستضئ بهم أضاءوا

وهم حلوا من الشرف المعلى ومن حسب العشيرة حيث شاءوا

وقال الله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى العدل ، وقال تعالى : « ولأبويه لكل

(١) مفتاح العلوم ص ٨٥ .

(٢) علوم البلاغة ص ١٣٣ دار الباز للنشر والتوزيع ـ المروة ـ مكة المكرمة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

واحد منهما السدس » يقصد أبوى الميت ، وقال « حتى توارت بالحجاب » يعنى الشمس ؟

كذلك لا مندوحة ـ متى كان المقام مقام خطاب ـ من أن أقول : أنت نجحت وأنتِ نجحتِ وأنتما نجحتما وأنتم نجحتم وأنتن نجحتن .

وما قالوه عن تمثل البعيد من أن استحضاره ومخاطبته بعد حضوره الاعتبارى مفيد عموم المخاطب ، فإنما هى فائدة لغوية تقع من البلاغة على حافتها لا فى صميمها فلا ضرورة بل لا حاجة إلى أن يقول القزوينى بعد السكاكى : « وأصل الخطاب أن يكون لمعين ، وقد يترك إلى غير معين كما تقول : فلان لئيم إن أكرمته أهانك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، فلا تريد مخاطباً بعينه بل تريد : إن أكرم أو أحسن إليه فتخرجه فى صورة الخطاب ليفيد العموم ، أى سوء معاملته غير مختص بواحد دون واحد ، وهو فى القرآن كثير كقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم » أخرج فى صورة الخطاب لما أريد العموم للقصد إلى تفظيع حالهم ، وأنها تناهت فى الظهور حتى امتنع خفاؤها فلا تختص بها رؤية راء ، بل كل من تتأتى منه الرؤية داخل فى هذا الخطاب »[1] .

وبسبيل مما مثل به القزوينى قول الشاعر :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على الناس أهونا

وقول الآخر :

إذا ما كنت ذا قلب قنوع فأنت ومالك الدنيا سواء

* * *

وكالتعريف بالإضمار التعريف بالعلمية فى أن فوائده البلاغية هامشية ومصطنعة ومنوعة وهذه نماذج منها :

(١) إحضار المسمى فى ذهن المخاطب باسمه الخاص به تمييزاً له عن غيره كقول الله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل » .

وفى رأيى أن العلم هنا مستعمل استعمالاً لغوياً لا بلاغياً .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ١ ص ٧٤ وانظر المفتاح ص ٨٦ .

(٢) التعظيم أو الإهانة :

يتأتى ذلك إذا تمت التسمية بكنى أو ألقاب محمودة أو مذمومة ، تقول : أبو المعالى حضر وأنف الناقة ذهب .

ومثل الكنى والألقاب فى ذلك الأعلام المنقولة عن معان مشعرة بمدح أو ذم تقول فى التعظيم : جمال الدين مصلح ، وسيف الدولة بطل ، وصلاح الدين رفع رأس المسلمين . وتقول فى الإهانة : ضرار أضرَّ بنا ومتعب أتعبنا وعمشاء لا تعرف طريقها .

وعندى أن لا إهانة بل مناسبة ، وحتى لو سمينا شخصاً بـ (عدس) أو (شحات) أو (بطة) أو (قطة) كما يفعل بعض الناس فى ريف مصر ليعيش صاحب هذا الاسم ، فلا إهانة بل علمية مجردة عن أى معنى سوى الدلالة على المسمى باسمه الذى أطلق عليه ابتداء ، وقل مثل ذلك فى التعظيم ، وكان على البلاغيين ألا يتكلفوا هذا المبحث .

(٣) التبرك :

وذلك إذا كان من أفراد هذا العلم من يتبرك بهم لتقواهم وصلاحهم ، أقول : الحسن ابنى والحسين أخى وعائشة زوجتى وفاطمة ابنتى .

وذلك إذا كان فى الإمكان التحدث عنهم بغير العلمية لكننى آثرتها تبركاً بهذه الأسماء التى تشبه أن تكون دينية .

(٤) التفاؤل أو التشاؤم :

مثل : سعد فى دارى ، وسعيد صهرى ، السفاح فى حيكم ، والشيطان فى بيتكم .

وما قلناه فى التعظيم والإهانة نقوله فى التفاؤل والتشاؤم ، إنما هى المناسبة أو الصدفة.

(٥) التلذذ :

كقول قيس :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا   ليلاى منكن أم ليلى من البشر

كان المنتظر أن يقول : « أم هى من البشر » لكنه أظهر فى مقام الإضمار تلذذاً باسم حبيبته .

ويزحم (وزن الشعر) (التلذذ) فى التبرير لإحلال (ليلى) محل (هى) بل إن وزن الشعر يسبق التلذذ .

(٦) التسجيل على السامع لقطع طريق الإنكار عليه :

يقول القاضي للشاهد : هل اقترض إبراهيم المكى من أحمد المدنى ألف ريال أمامك ؟

فيجيب : نعم اقترض إبراهيم المكى من أحمد المدنى ألف ريال أمامى ، وذلك بدلاً من أن يقول : نعم ، ويسكت ، أو يقول : نعم هو اقترض المبلغ منه .

(٧) الكناية عن معنى يصلح العلم للكناية عنه :

بأن يكون العلم منقولاً عن أصل هذا المعنى ، فلا تُنسى فيه ـ وهو علم ـ دلالته ولا تزايله نكهته . تقول : الجبالى ذو حصاة كناية عن رزانته ، ويدوى له من اسمه تصيب كناية عن خشونته وغلظته وتقول : كان أبو لهب شديد العداوة لرسول الله ﷺ ، فأبو لهب باعتبار أصل وضعه مشعر بملابسة اللهب ، وفى التسمية به كناية عن جهنميته ، وقل مثل ذلك فى: أبو الشر أشعل الحرب ، ولو قلت : أبو الفضل أنجب خالد الذكر ، وأبو الخير كبح جماح الشر ، فإن استعمال (أبو الفضل) و (أبو الخير) استعمالاً علمياً يسمح بأن نلمح المعنى الأصلى لهما وأن نكنى عنه بهما .

التعريف بالموصولية

وعلله بلاغية لا نستثنى منها إلا أولها وهو :

(١) عدم معرفة شئ عن المسند إليه سوى الصلة :

كقوله تعالى : « فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه » ، وكقولك لنفسك أو لغيرك : الذى حل المسألة طالب كفء ، وكقولك لشقيقك : ما عثرنا عليه ونحن نحرث الأرض شئ ثمين ؛ إذ لا سبيل لك إلى غير ذلك ، فهو متعين عليك ولا يمكنك أن تعرفه إلا بهذه الصلة .

لا بلاغة إذنْ ، لأن البلاغة تكون حيث يكون بوسعك أن تعبر بهذا أو بذاك أو بذلك ، فتفاضل بينها وتختار أحدها .

(١) استهجان التصريح بالاسم الدال على المسند إليه كقول الفقهاء :ما يخرج من السبيلين ينقض الوضوء .

(٣) زيادة تقرير الغرض من الكلام:

كقول الله تعالى : « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه » ، فالغرض من الكلام إنما هو تنزيه يوسف عن الفحشاء ، والتعبير بالموصولية أدل على هذا الغرض من التعبير بامرأة العزيز أو زليخا ، لأنه إذا كان في بيتها سهل عليه تلبية طلبها ، فإذا لم يستجب لها كان ذلك أدل على عفته ونزاهته ، وكقول أبي العلاء :

أعباد المسيح يخاف صحبي ونحن عبيد من خلق المسيحا

فـ (عبيد من خلق المسيح) أدل على غرض المعري ، وهو نفي الخوف عن المسلمين مما لو قال « ونحن عبيد الله »

(٤) التفخيم:

كقول الله تعالى : « فغشيهم من اليم ما غشيهم »

وقوله تعالى : « فغشاها ما غشّى » .

وقول عبد الله الربيعي يصف الخمر وأثرها :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفي الزجاجة باق يطلب الباقي

(٥) تعليل المسند مع الإيحاء به قبل مجيئه ثوابا كان أم عقابا:

فالأول كقول الله :« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » ، والثاني كقول الله تعالى : « إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » .

ألمحت الصلة في الآيتين إلى المسند ، وعللت استحقاق المسند إليه له ، أو نقول : إنها في الآية الأولى بكرت فبشرت ، وفي الآية الثانية بكرت فأنذرت .

(٦) التنبيه على الخطأ:

سواء كان خطأ المخاطب أم خطأ غيره .

فمثال الأول قول الله تعالى : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » فقد نبهت صلة المسند إليه على خطأ المخاطبين وهو أنهم يدعون من دون الله عباداً لا يفضلونهم بل

هم مثلهم ، وقول عبدة بن الطبيب لبنيه :

إن الذين ترونهــم إخوانكــم   يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

ومثال الثانى قول الشاعر :

أن التى زعمت فؤادك ملّها   خلقت هواك كما خلقت هوىً لها

هنا أفادت الموصولية التنبيه على خطأ المحبوبة فى زعمها أن قلب الشاعر ملها ولنلاحظ أن الشاعر لا يخاطب محبوبته بل يخاطب نفسه .

(٧) اتخاذ الموصولية وسيلة إلى تعظيم الخبر أو تحقيره .

فمن تعظيم الخبر قول الفرزدق :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتــاً دعائـمه أعــز وأطــول

فى (الذى سمك السماء) إيحاء بأن الخبر المحكوم به من جنس الصلة السابقة ؛ ولم يقصد الشاعر هذا الإيحاء لذاته ، بل ليتخذه وسيلة إلى تعظيم شأن بيته ولا عجب ، فبانيه هو الذى رفع السماء .

ومن تحقير الخبر قول القائل :

إن الذى لا يحسن التأليف قد ألف كتابا .

ففى المسند إليه الموصول إيماء إلى أن الخبر المترتب عليه من نوعه ، وقد جعل القائل هذا الإيماء وسيلة إلى تحقير الكتاب المؤلف ، ولا عجب ، فهو صادرعمن لا يحسن التأليف .

(٨) اتخاذ الموصولية وسيلة إلى تعظيم غير الخبر أو تحقيره :

فمن تعظيم شأن غير الخبر قول الله تعالى : « إن الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين » . المقصود هو تعظيم شأن شعيب ، لأن تكذيبه جعل الكذبين خاسرين ، وشعيب قد أتى فى الكلام قبل الخبر .

ومن تحقير غير الخبر قول الأستاذ لطلابه : الذى يصادق المهملين يفقد احترامى له . غرض الأستاذ إنما هو تحقير شأن المهملين ، لأن من يصادقهم يفقد احترام أستاذه له ، لكن كلمة (المهملين) قد جاءت فى صلة الموصول لا فى الخبر ، وهى التى استقطبت التحقير لا الخبر .

(٩) جعل الموصولية وسيلة إلي الإشعار بأن الخبر أمر ثابت ومحقق:

نجد ذلك فى قول عبدة بن الطبيب :

إن التى ضربت بيتاً مهاجرة بكوفة الجند غالت ودها غول

إذ فى ضرب البيت بكوفة الجند ، والانتقال إليه للإقامة به دليل أكيد على انقضاء الود وانتهاء الحب ، بل على البغض ، فالإنسان لا يهجر وطنه إلا وقد قلاه وقلا من كان فيه معه .

(١٠) تشويق السامع إلى الخبر ليتمكن فى نفسه :

كقول المعرى :

والذى حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

(١١) إخفاء الأمر على غير المخاطب : كقولك لوالد عروسك : ما أعطيته لك بالأمس من مال هو مهر ابنتك ، والذى اتفقنا عليه سأنفذه .

* * *

(١٢) ونختم بنكتة سكاكية مزدوجة هى التعريض ـ عن طريق الموصولية ـ بتعظيم المسند إليه نفسه أو بإهانته .

تقول فى التعظيم : الذى يرافقك يستحق الإجلال والرفع ، والذى يفارقك يستحق الإذلال والصفع .

وإن أردت أن تهين المسند إليه الموصول بدلاً من أن تعظمه قلبت الخبر فى جملتى التعظيم فقلت : الذى يرافقك يستحق الإذلال والصفع ، والذى يفارقك يستحق الإجلال والرفع [١] .

يقول السكاكى مفلسفاً العدول عن التصريح بعامة ، وواصفاً له بأنه باب من البلاغة يصار إليه كثيراً وإن أورث تطويلاً . أجل . إنه قد خرج من الموصولية ودخل فيما يشبه الإلغاز وهو يحكى هاتين الطرفتين :

أقرّ رجل عند شريح ثم رجع ينكر فقال له شريح : « شهد عليك ابن أخت خالتك » ابن أخت خالته هو المخاطب نفسه ؛ لأن ابن أخت خالتك هو أنت .

---

(١) مفتاح العلوم ص ٨٧ .

أثر شريح التطويل ليعدل عن التصريح بنسبة الحماقة إلى المنكر .

وسأل أحد المتخاصمين شريحاً قائلاً له : على منْ قضيت ؟ فأجاب : « على ابن أمك » عدل شريح عن لفظ (عليك) لئلا يجبهه بما يشق على المخاصم من القضاء عليه .

التعريف بالإشارة

ولطائفه البلاغية لا تكاد تنضبط على حد قول السكاكى ، وهو يقصد أنها من الكثرة بحيث لا تكاد تحصى ، لكنها ـ كغيرها مما سبقها ومما سيلحقها من أصناف التعريف ـ مزيج مما هو لغوى لا فضل فيه لقائله ، لأنه لا غنى له عن أن يقوله ، ومما هو بلاغى يقوله قائله ، لأنه يفضل غيره مما يمكن أن يحل محله ويؤدى أداءه لكن بدرجة أقل وبجمالية أخفت.

فمن الأول قولهم ترديداً لما قاله السكاكى قبلهم :

(١) ألا يكون لك إلى إحضار المسند إليه فى ذهن قارئك أو سامعك سوى اسم الإشارة ، بأن يكون حاضراً محسوساً ، والمتكلم والسامع لا يعرفان اسمه ولا شيئاً آخر يعينه .

وتصور مثل هذا الموقف سهل ، والتمثيل له أسهل ، تقول لجارك فى الحفل : هذا الرجل من يكون ؟ وهذه المرأة زوجة من ؟

لكن أيكون مالا مندوحة لك عنه ، وما ليس فى وسعك سواه ضرباً من البلاغة ؟!! وإذا تصادف مع ذلك أو برغم ذلك أن جاء بليغاً ربما بأصل وضعه ، وربما للظروف التى قلته فيها ، أو لاعتبار آخر لم ترده بل لم تلحظه ، أتكون بمثل هذا القول ونحوه بليغاً ؟ طبعاً لا ، وهأنذا أسقطه من حساب البلاغة .

(٢) أن تقصد بيان حاله فى القرب والتوسط والبعد كقولك هذا وذاك وذلك . وأسأل : ماذا فيما قلت من البلاغة ؟ إن هذا القول وأمثاله م[illegible] على المتكلم لا حيلة له فيه ، ولا اختيار له معه .

ومن الثانى ما يأتى :

(١) تمييز المسند إليه أكمل تمييز للدلالة على أنه فى بؤرة ال[illegible]ور منك وينبغى أن يكون كذلك من قارئك أو سامعك ، كقول الفرزدق فى زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب لما ادعى هشام بن عبد الملك أنه لا يعرفه :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

وقول ابن الرومى فى مدح أبى الصقر الشيبانى :

هذا أبو الصقر فرداً فى محاسنه عن نسل شيبان بين الضال والسلم

وقول الحطيئة :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

وقول واصف حاتم :

وإذا تأمل شخص ضيف مقبل متسربل سربال ليل أغبر
أوما إلى الكدماء هذا طارق نحرتنى الأعداء إن لم تنحرى

وقول المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

وقول الراوندى :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة وصير العالم النحرير زنديقا

وبسبيل من تمييز المسند إليه أكمل تمييز تنزيل المعقول منزلة المحسوس طلباً لإيضاحه ، ورغبة فى إحاطة المخاطب علماً به عن طريق حواسه ، قال تعالى : « ذلكما مما علمنى ربى » وقال تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم » وقال تعالى : « ذلك تأويل مالم تسْطِعْ عليه صبرا » وتقول لمحدثك : هذا ما يفهم من كلامك .

وغير بعيد عن تنزيل المعقول منزلة المحسوس ، تنزيل الغائب منزلة الحاضر كقول الله تعالى : « تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار » .

(٢) **القصد إلى أن السامع غبى** لا يتميز الشئ عنده إلا بالحس كقول الفرزدق:

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

(٣) التحقير بالقرب:

كقول الله تعالى : « أهذا الذى بعث الله رسولا » وقوله تعالى : « أهذا الذى يذكر آلهتكم » .

وقول الهذلول بن كعب العنبرى واصفاً حال امرأته وقد رأته يطحن :

تقول : ودقت صدرها بيمينها أبعلى هذا بالرحى المتقاعس ؟!.

(٤) التعظيم بالقرب:

كقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ».

وكقول جرير :

هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لـو شئـت ساقكـم إلىَّ قطينا

(٥) التحقير بالبعد:

كقول الله تعالى : « فذلك الذى يدع اليتيم » .

وكقولك : ذلك اللص سرقنى ، وأولئك المجان يجب ردعهم .

(٦) التعظيم بالبعد:

كقول الله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

وقوله تعالى : « وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون » ، وقوله تعالى على لسان زليخا : « فذلكن الذى لمتننى فيه » .

لم تقل (فهذا) ـ وهو حاضر ـ رفعاً لمنزلته فى الحسن ، وتمهيداً للعذر فى الافتتان به.

(٧) التنبيه على استحقاق اسم الإشارة لما جاء بعده بسبب ما جاء قبله:

كقول الله تعالى : « فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وهم بالآخرة هم يوقنون* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

جاء المسند إليه فى الآية اسم إشارة مع أن المقام للضمير لتقدم مرجعه ، تنويهاً بالمتقين

المشار إليهم بأولئك ، وتنبيهاً على استحقاقهم من أجل أوصافهم التى سبقت اسم الإشارة ما جاء بعد اسم الإشارة .

وكقول حاتم الطائى :

ولله صعلــــــوك يســـــــاور همــــــه	ويمضـي على الأحداث والدهر مقدماً
فتـــى طلبـــات لا يرى الخمص ترحة	ولا شبعـــة إن نالهـــا عـــدَّ مغنمـــا
إذا مـــا رأى يومـــا مكـــارم أعرضـــت	تيمـــم كبراهـــن ثمـــت صممـــا
فـــذلك إن يهـــلك فحسبـــى ثنـــاؤه	وإن عـــاش لم يقعـــد ضعيفـــاً مذمما

فقد عدد حاتم للصعلوك خصالاً فاضلة من المضاء على الأحداث مقدماً ، والصبر على ألم الجوع ، والأنفة من أن يعد الشبعة مغنماً ، وتيمم كبرى المكرمات ثم عقب على ما عدد بقوله : (فذلك) فأفاد أنه جدير بما بعد (فذلك) .

تعريف المسند إليه بأداة التعريف (أل)

وهو يتم فى الحالات الآتية :

(١) إذا أريد بالمسند إليه الحقيقة نفسها :

أى بصرف النظر عما ينطوى تحتها من أفراد .

كقولك : الماء مبدأ كل حي ، والرجل أفضل من المرأة ، والكل أعظم من الجزء ، والحرير أفضل من القطن ، وكقول المعرى :

والخل كالماء يبدى لى ضمائره   مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وقول الآخر :

الناس أرض بكـــل أرض   وأنـــت من فوقهـــم سمـــاء

وتسمى اللام فى هذا الاستعمال لام الحقيقة أو لام الجنس .

(٢) إذا أريد بالمسند إليه بعض مبهم من أفراد الحقيقة :

كقول الله تعالى : « وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » ، فأل فى الذئب تدل على أن يعقوب عليه السلام كان يخشى أن يأكل يوسف ذئب ما من أفراد حقيقة الذئب .

ومثل لام (الذئب) لام (الغراب) فى قول الشاعر :

ومن طلب العلوم بغير كد   سيدركها متى شاب الغراب

وتسمى اللام فى هذا الاستعمال لام العهد الذهنى .

(٣) إذا أريد بالمسند إليه حصة معينة من الحقيقة :

كقول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى » ، وكما إذا قال لك قائل : جاءنى رجل من قبيلة كذا ورجلان من قبيلة كذا ، ورجال من قبيلة كذا فقلت له : الرجل أعرفه والرجلان أعرفهما والرجال أعرفهم ، وكقول الله تعالي ، « وليس الذكر كالأنثى » أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التى ولدت ، وتسمى اللام فى هذا الاستعمال لام العهد الخارجى .

(٤) إذا أريد بالمسند إليه العموم والإستغراق بحسب الحقيقة أو بحسب العرف :

فالأول كقولك : الغيب يعلمه الله ، وكقول الله تعالى : « والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقوله تعالى : « ولا يفلح الساحر حيث أتى » .

والثانى : مثل : قابل العمال وزير العمل ، وقابل القضاة وزير العدل . فالاستغراق هنا ليس استغراقاً على الحقيقة ، وإنما هم عمال البلد الذى منه الوزير ، وقل مثل ذلك فى القضاة الذين قابلوا وزير العدل (١) .

* * *

وقبل أن نمضى عن المسند إليه المعرف بـ (أل) نقول مع محمد بن على محمد الجرجانى: «إن (أل) موضوعة للدلالة على تعيين المسمى كما أن التنوين موضوع للدلالة على عدم تعينه ، وإفادتها الجنس أو استغراق الجنس أو العهد ، لا تكون إلا بقرينة لفظية أو معنوية فإذا لم توجد القرينة لم تخرج (أل) عن دلالتها على تعيين المسمى » (٢) .

وعندى أن هذه الإفادات أمور زائدة على تعريف المحلى بأل وتعيينه : وكان مقتضى ذلك أن تكون لطائف بلاغية أو سبباً فى لطائف بلاغية لولا أنها صارت مسلمات علمية : نحوية أو منطقية أو أصولية ، ومن هنا بطل فحواها البلاغى أو نقول فى عبارة معتدلة بهت لونها البلاغى . والله أعلم .

---

(١) انظر السكاكى ص ٨٨ – ٨٩ والقزوينى جـ ١ ص ٨٤ – ٨٩ .

(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٤٠ .

تعريف المسند إليه بالإضافة

دواعي تعريف المسند إليه بالإضافة كثيرة منها :

١ - ألا يكون لدى المتكلم طريق سواها لإحضاره في ذهن السامع كقولك : غلام زيد مسافر [1] .

هذا كلام السكاكي ، ونقول له : إن تعريف المسند إليه بالإضافة فيما قلته ومثلت له مفروض علينا ، وليس أمامنا طريق آخر نسلكه ، والبلاغة تكون حيث يكون الاختيار ، ولا يكون الاختيار إذا كان إجبار .

٢ - ألا يكون للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق أخصر من الإضافة ، وكان الموقف يستدعي الاختصار كقول جعفر بن علبة الحارثي :

هواي مع الركب اليمانين مصعد ... جنيب وجثماني بمكة موثق

فهواي أخصر من الذي أهواه ونحوه ، وهو لهذا أنسب لجعفر الذي كان سجيناً بمكة عندما غادرتها حبيبته .

٣ - إغناء الإضافة عن تفصيل متعذر كقول مروان بن أبي حفصة من قصيدة ، يمدح بها معن بن زائدة :

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أسود لها في غيل خفان أشبل

(بنو مطر) : قوم معن ، وهم بطن من شيبان ، الغيل : الشجر المجتمع ، خفان : مأسدة قرب الكوفة ، والأشبل : أولاد الأسود .

والشاهد في قوله (بنو مطر) فقد أغنت الإضافة فيه عن تفصيل متعذر وقد يكون التفصيل متعسراً إما بسبب الكثرة نحو: تظاهر سكان القاهرة وإما بسبب الحرج من تقديم بعض على بعض دون مبرر مقنع نحو : أفتى علماء المذهب بكذا .

وقد يكون التفصيل مرجوحاً كقول الحارث بن وعلة الذهلي :

قومي هم قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي

---

(١) المفتاح ص ٨٩ .

فقد أغنت الإضافة فى (قومى) عن تفصيل تركه أرجح من ذكره اجتماعياً وعملياً .

٤ - **أن تفيد الإضافة تعظيم شأن المضاف** كقول الله تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وكقولك : رسول الخليفة فى البلدة .

أو تعظيم شأن المضاف إليه كقولك : جاء خادمى ، فتعظم شأنك بأن لك خادماً . وقولك : عمارتي ضخمة فخمة ؛ فتعظم نفسك بأن لك عمارة ضخمة فخمة .

أو تعظيم غير المضاف وغير المضاف إليه ، كقولك : مندوب الملك استقبلنى ومحافظ العاصمة زارنى .

٥ - **أن تفيد الإضافة تحقير شأن المضاف** كقولك : أبو الخائن حضر ، أو تحقير المضاف إليه كقولك : أخو إبراهيم لص .

أو تحقير غير المضاف وغير المضاف إليه مثل : أم الخائن خالتك .

٦ - **أن تؤدى الإضافة نكتة لطيفة كقول الشاعر :**

إذا كوكب الخرقاء لاح بسحرة　　　سهيل أذاعت غزلها فى القرائب

أضاف الكوكب إلى المرأة الخرقاء هزءاً بها وسخرية منها لكأنه كوكبها الخاص بها والذى لا يطلع إلا لها ، وذكر أنها ـ لخرقها ـ لا تتذكر كسوة الشتاء إلا إذا طلع سحراً وهو لا يطلع سحراً إلا فى الشتاء ، يشنع عليها بغفلتها وكسلها وبقعودها عن تدبير أمرها فى الوقت المناسب .

ولا تبعد دلالة الإضافة فى البيت السابق عن دلالتها فى قول الله تعالى على لسان فرعون :« إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » فهو لم يضف المسند إليه (رسول) إلى ضمير المخاطبين (كم) على سبيل الإقرار برسالة موسى ، لكن على سبيل المخرفة والتهكم بموسى وبمن صدقه وآمن به [(١)] .

ثانياً : تعريف المسند

فى أسلوب حوارى شيق عالج السكاكى تعريف المسند بقوله : « وأما الحالة المقتضية لكونه اسماً معرفاً فهى إذا كان عند السامع متشخصاً بإحدى طرق التعريف معلوماً له ،

---

(١) السكاكى ص ٨٩ وبغية الإيضاح جـ ١ ص ٩٠ - ٩١ وعلوم البلاغة للمراغى ص ١٤٤ .

وكأنى بك أسمعك تقول : فالمسند إذا كان متشخصاً عند السامع معلوما له استلزم لا محـ
كون المسند إليه معلوماً له أيضاً ، وإذا كانا معلومين عنده فماذا يستفيد ؟ .

ويجيب : يستفيد إما :

لازم الحكم (لازم فائدة الخبر) كما ترى فى قولك لمن أثنى عليك بالغيب : « الذى أثنى علىَّ بالغيب أنت » معرفاً أنك عالم بذلك .

أو الحكم (فائدة الخبر) كقولك لمن تعرف أن له أخاً ويعرف إنساناً يسمى زيداً أو يعرفه بحفظ التوراة أو تراه بين يديه لكن لا يعرف أن ذلك الإنسان هو أخوه إذا قلت له : أخوك زيد ، أو أخوك الذى يحفظ التوراة أوأخوك هذا ، فقدمت الأخ ، أو إذا قلت : زيد أخوك ، أو الذى يحفظ التوراة أخوك أو هذا أخوك فأخرت الأخ ، معرفاً له فى جميع ذلك أن أحدهما أخو الآخر »[1] .

وكلام السكاكى واضح كأنه من كلام أهل العصر ، ونستخلص منه ما يأتى :

(أ) تعريف المسند يستلزم تعريف المسند إليه ، فليس فى كلام العرب مسند معرفة لمسندإليه نكرة .

(ب) أغراض تعريف المسند إما :

١ - إفادة المخاطب الحكم به على مسند إليه معرفة :

وذلك إذا كان يجهل هذا الحكم قبل أن نقوله له كما فى المثال الثانى من كلام السكاكى .

وقد سبق أن البلاغيين يسمون هذا الغرض فائدة الخبر .

٢ - وإما إفادة المخاطب أن المتكلم يعلم حقيقة الحكم بالمسند المعرفة على المسند إليه المعرفة :

وذلك إذا كان المخاطب يعلم هذه الحقيقة ، ولكنه يجهل أن المتكلم أيضاً يعرفها كما فى المثال الأول من كلام السكاكى ، وقد سبق أن هذا الغرض هو ما اصطلح البلاغيون على تسميته لازم فائدة الخبر .

٣ - إفادة قصر المسند المعرفة على المسند إليه المعرفة قصراً إضافياً ، ولا يتأتى ذلك

(١) مفتاح العلوم ص ١٠١ - ١٠٢ .

إلا إذا كان المسند معرفاً بأل الجنسية كقولك : فيصل المسافر وعلاء العاقل وكارم المجامل ومحمد المجتهد وناصر الذكى ، قاصداً قصر كل صفة من الصفات المذكورة على صاحبها .

ونحن مع الغرضين الأول والثانى (فائدة الخبر) و (لازم فائدة الخبر) أمام الغرضين الحقيقيين من أغراض الخبر .

والأغراض الحقيقية فى الحقل البلاغى تقابل بالأغراض البلاغية ، وهى الأغراض ذات اللطائف الدقيقة والاعتبارات الذوقية .

أما الغرض الثالث وهو قصر المسند على المسند إليه قصراً إضافياً لا حقيقياً ، فهو جزء صغير من (هيولا) أسلوب القصر . وستأتى دراسته دراسة مستقلة منفصلة .

التنكير

أولاً : تنكير المسند إليه :

ينكر المسند إليه تحقيقاً لغايات بلاغية كثيرة منها :

١- الدلالة على واحد مبهم من الذين يصدق عليهم لفظ المسند إليه :

إما لقصد الإفراد كقولهم « ويل أهون من ويلين » ، وإما لعدم تعلق الغرض بتعيينه كقول الله تعالى : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » ، فالغرض إنما هو أن موسى بُلّغ بما دبره فرعون له .لا بمن بلّغه .

٢ - التنبيه على نوع معين من أنواع المسند إليه :

كقول الله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » أى نوع خاص من أنواع الأغشية هو غشاء التعامى عن الحق ، وكقول الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به إلا الحماقة أعيت من يداويها

أى دواء خاص بهذا الداء .

٣ - التكثير:

كقول الله تعالى : « قالوا : أئن لنا لأجراً » أى لأجراً كبيراً ، وكقولهم : « إن لنا لإبلاً ، وإن لنا لغنماً » ، يفتخرون بكثرة إبلهم وغنمهم .

٤ – التقليل:

كقول الله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ورضوان من الله أكبر » أى ومقدار يسير من رضوان الله أكبر من كل ما مرّ ، لأن رضاه سبب كل سعادة وفرح ، وكقولك لسائل طرق بابك : لو كان عندى شئ لأعطيتكه .

(٥) التعظيم:

كقول الله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » أى حياة وادعة يأمن فيها الإنسان على نفسه وأهله ، وكقولك لابنك الناجح « لك عندي هدية » أي عظيمة .

(٦) التحقير:

كقول الله تعالى : « ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك » أى نفحة خفيفة من العذاب ، وقوله تعالى : « إن نظن إلا ظنا » أى ضعيفاً .

ومن التعظيم والتحقير معاً قول مروان بن أبى حفصة مادحاً :

فتى لا يبالى المدلجون بناره ... إلى بابه ألا تضئ الكواكب
يصم عن الفحشاء حتى كأنه ... إذا ذكرت فى مجلس القوم غائب
له حاجب عن كل شئ يشينه ... وليس له عن طالب العرف حاجب

فتنكير (فتى) و (حاجب) الأولى للتعظيم ، وتنكير (حاجب) الثانية للتحقير .

ومن التعظيم والتحقير معاً أيضاً قول الشاعر :

ولله منى جانب لا أضيعه ... وللهو منى والخلاعة جانب

فتنكير (جانب) الأولى للتعظيم ، وتنكير (جانب) الثانية للتحقير .

وقد يجتمع التعظيم والتكثير كقول الله تعالى : « وإن كذبوك فقد كذبت رسل من قبلك » أى رسل ذوو عدد كثير ثم هم رسل أى صفوة ، كما قد يجتمع التحقير والتقليل كقول الله تعالى : « لو كان لنا من الأمر شئ » أى شئ أىُّ شئ ولو كان قليلاً وحقيراً . والفرق بين التعظيم والتكثير أن الأول ينظر فيه إلى الكيف والثانى ينظر فيه إلى الكم وهو هو الفرق بين

التحقير والتقليل [١] .

ولم يفرق السكاكى بين التعظيم والتكثير ولا بين التحقير والتقليل .

ولعله نظر فى ذلك إلى أن التعظيم كما يكون بالكيف يكون بكثرة العدد ، وإلى أن التحقير كما يكون بالضعة يكون بالقلة .

والحق أنك لو نظرت فى أمثلة التقليل لوجدت الكثير منها يحتمل التحقير وبالعكس ، كما أنك لو نظرت إلى أمثلة التكثير لوجدت الكثير منها يحتمل التعظيم وبالعكس .

(٧) التهويل:

كقول الله تعالى على لسان إبراهيم : « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ».
وكقولك : دهم المؤسسة التى أعمل بها حريق .

(٨) إخفاء المسند إليه عن المخاطب خوفاً عليه منه كقولك لمن تسائله : أبلغنى شخص أنك سرقت ، وقال لى قائل إنك قتلت .

(٩) أن يمنع من تعريفه مانع ذوقى مثل :

إذا سئمت مهنَّده يميـن　　لطـول الحمـد بدلها شمـالاً

نكر (يمين) لئلا ينسب السأم إلى يمين ممدوحه [٢] .

ثانياً : تنكير المسند

ينكر المسند لأغراض بلاغية كثيرة منها :

(١) القصد إلى انتفاء حصر المسند فى المسند إليه ، وإلى عدم العهد والتعيين فى المسند .

تقول لصاحبك : أنت مخلص ، ولا تقول له : أنت المخلص ، لأنك لو قلت له ذلك لأفاد كلامك أن صاحبك هو المخلص الذى لا مخلص سواه ، أو هو المخلص المعهود فى الأصدقاء المخلصين ؛ وأنت لا تريد أحد المعنيين بل تريد مجرد الحكم بإخلاصه .

(١) انظر علوم البلاغة للمراغى ص ١٥٠ .
(٢) السكاكى ص ٩٢ والقزوينى ص ٩٢ – ٩٦ ومجموع الأدب ص ٢٢ – ٢٢ والمنهاج الواضح جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٢) القصد إلى تفخيم المسند وتعظيمه:

كقول الله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين » فقد أفاد تنكير (هدى) تفخيم هداية القرآن وتعظيمه إلى درجة لا يكتنه كنهها على حد قول السكاكى ، وكقوله تعالى: « إن زلزلة الساعة شيء عظيم » .

(٣) القصد إلى تحقيره وتقليله كقولك : « نصيبى من التركة شئ » أى شئ حقير قليل ، وكقول قيس بن جردة يخاطب عمرو بن هند :

غدرت بأمر كنت أنت دعوتنا ... إليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

وقد يترك الغدر الفتى وطعامه ... إذا هو أمسى حلبة من دم الفصد

أى وطعامه قليل حقير (١) .

أحوال متعلقات الفعل

فى باب متعلقات الفعل وما فى معناه مما يعمل عمله استوقفنى أن البلاغيين عللوا لحذف أحد قيوده ، وهو المفعول به ، علما بأنه ليس ركناً من أركان الجملة إذ هو ليس مسنداً إليه ولا مسنداً ، وكان المنتظر العكس وهو أن يعللوا لذكره لا لحذفه . قد يقال : إن الفعل إما متعد وإما لازم ، وهم قد عللوا لحذف مفعول الفعل المتعدى . فأقول : وماذا تركوا للنحويين؟!!

ولأن لحذف مفعول الفعل المتعدى عللاً بلاغية دقيقة جاريت البلاغيين فى عرض هذا الموضوع هنا مع تقديرى للنحويين وثقتى بأننا لو تركنا ذلك لهم لاهتدوا وحدهم إليه . ومن المعروف أن عبد القاهر الجرجانى كان من كبار النحويين ، وأنه كان يقول عن علم المعانى الذى نحن فيه : علم معانى النحو .

ومن العلل البلاغية لحذف مفعول الفعل المتعدى ما يأتى :

(١) **انحصار القصد فى النسبة الفاعلية** ، أى فى إسناد الفعل إلى الفاعل دون نظر إلى تعلقه بمفعول ، كأن أقول: ذاكر الطلاب أو الطلاب يذاكرون ، وكأن يقول الأبناء لأمهم التى تطلب منهم أن يأكلوا : ألا ننتظر حتى نأكل مع والدنا ؟ فتجيبهم : والدكم أكل ، ومن ذلك قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من

(١) المفتاح ص ١٠٠ - ١٠١ وبغية الإيضاح جـ ١ ص ١٨٩ .

الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير فسقى لهما » .

فالأفعال « يسقون » و« تذودان » و« نسقى » و« فسقى » قد حذفت مفاعيلها لانحصار المقصود منها فى النسبة الفاعلية بالمعنى الذى شرحناه فى مطلع هذه الفقرة .

(٢) إرادة العموم فى المفعول به ، وأنه لا يقصد به فرد معين من أفراده كقولهم : فلان يحل ويربط ويأمر وينهى ويضر وينفع ويعطى ويمنع ، ويصل ويقطع ويبنى ويهدم . وكقول الله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » وقوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

هذا ما قرره البلاغيون ، والفرق دقيق بين الفقرتين ١ ، ٢ حتى ليمكن القول بأنهما علة واحدة مزدوجة الغرض ، دليل ذلك أننا لو مثلنا بأمثلة العلة الأولى للعلة الثانية ، وبأمثلة العلة الثانية للعلة الأولى ما كنا مخطئين ، وفى كتب البلاغيين مصداق ما نقول [١] .

(٣) دفع أن يتوهم السامع فى أول الأمر إرادة شئ غير المراد ، كقول البحترى :

وكم ذدت عنى من تحامل حادث ... وســورة أيام حززن إلى العظم

إذ لو قال : « حززن اللحم » لجاز أن يتوهم السامع قبل ذكر ما بعده أن الحز كان فى بعض اللحم ولم ينته إلى العظم ، فترك ذكر اللحم ليبرئ السامع من هذا الوهم ويصور فى نفسه من أول الأمر أن الحزّ مضى فى اللحم حتى لم يرده إلا العظم .

(٤) أن يكون فى ذكر المفعول به خروج على آداب المدح ونوع من سوء الأدب فى حق الممدوح .

وقد نجا البحترى من ذلك فى بيته الذى خاطب به الخليفة المعتز قال :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السؤ ... دد والمجـ د والمكـ ـارم مثلا

يقول الجرجانى : « فإنه لو بدأ بقوله : قد طلبنا مثلاً لكان فيه ما فيه » [٢] وصدق .

ولم يكن القزوينى موفقاً وهو يعلل حذف المفعول به فى هذا البيت بأنه أريد ذكره ثانياً

---

(١) انظر المفتاح ص ١١٠ والإيضاح جـ ٢ ص ٣ - ١٣ والإشارات والتنبيهات ص ٨١ - ٨٢

(٢) الإشارات ص ٨٢

على وجه يتضمن إيقاع الفعل على صريح لفظه إظهاراً لكمال العناية بوقوعه عليه »[1] .

فأولاً :- لم تُذكَر (مثلاً) فى البيت إلا قافية ، ولا يقولن أحد إنها مقدرة ، فالمقدر لم يذكر .

وثانياً :- كمال العناية بالممدوح قد تمثلت فى حذف (مثلاً) لا فى إيقاع الفعل على لفظ (مثلاً) ، وكلام القزوينى بناء على ذلك فى غير محل .

(٥) أن يكون فى ذكر المفعول به نوع قبح لدلالته على مالا ينبغى التصريح به كقول عائشة رضى الله عنها : « كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ فى إناء واحد فما رأيت منه ولا رأى منى » تعنى العورة .

٦ – أن يحذف للاختصار ، أو لأمر لفظى كرعاية الفاصلة فى النثر والوزن فى الشعر .

فالأول كقولك : أصغيت إليه أي أذنى ، وأغضيت عنه ، أى بصرى . وكقول الله تعالى: « أرنى أنظر إليك » أى ذاتك ، وقوله تعالى : « أهذا الذى بعث الله رسولاً » أى بعثه .

والثانى : كقول الله تعالى : « والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى » فالأصل « وما قلاك » وكقول الشاعر :

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا ومـوج المنايـا حولها متلاطم

أى فأعلاها .

٧ – **الإيضاح بعد الإبهام** تقريراً للمعنى فى نفس القارئ أو السامع ، ويكثر ذلك فى فعل المشيئة وما فى معناه إذاوقع شرطاً ، وإذا لم يكن فى مفعوله غرابة ، تقول : لو شئت جئت أو لم أجئ .

أى لو شئت المجئ ، أو عدم المجئ ، يقول القزوينى : « فإنك متى قلت : لو شئت علم السامع أنك علقت المشيئة بشئ فيقع فى نفسه أن هنا شيئاً تعلقت به مشيئتك بأن يكون أولا يكون ، فإذا قلت : جئت أو لم أجئ عرف ذلك الشئ .

ومنه قوله تعالى : « فلو شاء لهداكم أجمعين » وقوله تعالى : « فإن يشأ الله يختم على قلبك » وقوله تعالى : « من يشأ الله يضلله » ، وقول طرفة فى وصف ناقته :

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٨ .

فإن شئتُ لم ترقل وإن شئتُ أرقلت   مخافة ملوى من القدِّ مُحْصَدِ

لم ترقل أى لم تسرع ، والملوى : السوط ، والقد : الجلد المشقوق . والمحصد : المفتول المحكم » وقول البحترى :

لو شئت عدت بلاد نجد عودة   فحللت بين عقيقه وزروده

(العقيق والزرود : موضعان بنجد) وقوله (البحترى) :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم   كرماً ولم تهدم مآثر خالد

(حاتم هو حاتم الطائى ، أما خالد فهو خالد بن إصبع النبهانى) [1] .

* * *

ومن أمثلة حذف المفعول به لفعل فى معنى فعل المشيئة قول الشاعر :

ولو أنى استطعت خفضت طرفى   فلم أبصر به حتى أراكا

يقصد : لو أنى استطعت خفض الطرف خفضت طرفى ، والمفعول المحذوف لأفعال المشيئة وما فى معناها إنما هو المصدر المقدر من فعل الجواب يقول الجرجانى : « وإن كان فى المفعول به غرابة فلا بدَّ من ذكره كقولك مظهراً عزَّك : لو شئت أن أرد على الأمير لرددت ، وعليه قول الشاعر :

ولو شئت أن أبكى دماً لبكيته   عليه ولكن ساحة الصبر أوسع [2]

٨ - إمكان إنكار أنه مقصودك :

كقولك : (لعن الله وأخزى) تقصد شخصاً معيناً ، فإذا أوخذتَ أمكنك القول بأنك لا تقصده .

٩ - **تعيينه** حقيقةً مثل : نحمد ونشكر ، أى الله سبحانه وتعالى ، أو ادعاء نحو نحب ونكرم ، تريد شخصاً معيناً لكنك حذفته مدعياً تعينه وأن أحداً لا يستحق الحب والإكرام غيره .

(١٠) صونه عن لسانك لرفعته ، أو صون لسانك عنه لضعته .

فالأول مثل : نحب ونجل تريد المصطفى ﷺ .

والثانى مثل : لعن الله وطرد .. تريد الشيطان الرجيم .

وواضح أن الفهم للعلل الثلاث السابقة متوقف على القرينة ، وغالباً ما تكون قرينة حالية لا لفظية . والله أعلم .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٦ .

(٢) الإشارات ص ٨٢ .

تقديم متعلقات الفعل وما في معناه عليه

تتردد الأغراض التى يحققها هذا التقديم بين أن تكون أغراضاً حقيقية لا دخل للبلاغة فيها وأن تكون أغراضاً بلاغية نعرض لها هنا من حيث هى كلام بليغ ومقال يقتضيه المقام.

فمن الأغراض الحقيقية تصحيح خطأ المخاطب : كقولى لمن اعتقد أننى صادقت إنساناً وأنه غير محمد : محمداً صادقت ، وإذا أردت تأكيد كلامى وتقريره فى نفس سامعه قلت : محمداً صادقت لا غيره .

ومن الأغراض البلاغية التخصيص :

والتخصيص هو القصر ، والقصر مبحث مستقل من مباحث علم المعانى مكانه بعد ما نحن فيه وما نحن فيه هو متعلقات الفعل ، ولكن هاهو ذا القزوينى يستعجله ويبشر به فى قوله : « والتخصيص فى غالب الأمر لازم للتقديم ، ولذلك يقال فى قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » معناه : نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك ، وفى قوله تعالى : « إن كنتم إياه تعبدون » معناه إن كنتم تخصونه بالعبادة ،وفى قوله تعالى : « لإلى الله تحشرون » معناه : إليه لا إلى غيره .

وقد أخرت صلة الشهادة فى قوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس » وقدمت فى قوله تعالى : « ويكون الرسول عليكم شهيدا » لأن الغرض فى الأولى إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى الثانية اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم »[1] .

* * *

ولا يقتصر التقديم على إفادة التخصيص ، بل يفيد مع التخصيص الاهتمام بشأن المقدم كقول الله تعالى : « قل أغير الله أبغى رباً » وقول الشاعر :

أكلَّ امرئ تحسبين امرءاً ... ونارٍ توقد فى الليل ناراً

ولهذا يقدر المحذوف فى « باسم الله » مؤخراً ، وعلى حد قول السكاكى : « فعلى المؤمن فى نحو (باسم الله) إذا أراد تقدير الفعل معه أن يؤخر الفعل نحو « باسم الله أقرأ أو أكتب »[2] .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٥ – ١٧ طبعة ٢ .

(٢) مفتاح العولم ص ١١٣ .

ولما اعترض على ذلك بقول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » أجيب بأن تقديم الفعل هنا أهم ، لأنها أول سورة نزلت ،"وأجاب السكاكى بأن « باسم ربك » متعلق باقرأ الثانى « اقرأ وربك الأكرم » أما « اقرأ » الأول فمعناه : افعل القراءة وأوجدها [1] .

وعلى ذكر السكاكى نقرر أنه أصل كل ما قاله القزوينى ، لكن برز عنده غرض طريف لتقديم بعض متعلقات الفعل عليه ، وهذا الغرض هو :

التعريض:

ولندعه هو يتكلم قال : « وفى معنى قوله تعالى : (وبالآخرة هم يوقنون) ، نذهب إلى أنه تعريض بأن الآخرة التى عليها أهل الكتاب فيما يقولون إنها لا يدخل الجنة فيها إلا من كان هوداً أو نصارى ، وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياماً معدودات . وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون إلا بالنسيم والأرواح العبقة والسماع اللذيذ ، ليست بالآخرة ، وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتى هى الآخرة عند الله فى شئ » .

ويسبيل مما مر قوله مستطرداً ، بل عائداً إلى التعريض بعد أن كان قد مضى عنه : «وتسمعهم فى قوله تعالى : « لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون » يقولون : قدم الظرف تعريضاً بخمور الدنيا وأن المعنى : هى على الخصوص لا تغتال العقول اغتيال خمور الدنيا ويقولون فى قوله تعالى : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

يمتنع تقديم الظرف على اسم لا ، لأنه إذا قدم أفاد تخصيص نفى الريب بالقرآن ، ويرجع دليل خطاب على أن ريباً فى سائر كتب الله .

وعلى هذا متى قلت : إذا خلوت قرأت القرآن أفاد تقديم الظرف اختصاص قراءتك به ، ورجع إلى معنى : لا أقرأ إلا إذا خلوت فافهم » [2] .

وقد أضاف الشيخ عبد المتعال الصعيدى إلى ما سبق من الأغراض البلاغية :

التبرك بالمقدم ، أو استلذاذه ، أو موافقته لكلام السائل مثل :

محمداً اتبعت ، ومنى أحببت ، وناصراً أكرمت ، فى جواب من أكرمت ؟ قدمت (ناصراً)

---

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) مفتاح العلوم ص ١١٢ .

ليوافق مقابله فى كلام السائل وهو (مَنْ) الاستفهامية ، فمن المقرر أن الاستفهام له الصدارة فى الكلام (١) .

وأما الشيخ حامد عونى فقد أضاف الفائدة التالية لتقديم متعلقات الفعل عليه وهى :

رعاية الفاصلة أو النزول على حكم الوزن والقافية :

فمن رعاية الفاصلة قول الله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » .

وقوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » ، وقوله تعالى : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

ومن النزول على حكم الوزن والقافية قول الأقيشر الأسدى :

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه ... وليس إلى داعى الندى بسريع

حريص على الدنيا مضيع لدينه ... وليس لما فى بيته بمضيع

وقول العباس بن الأحنف :

قلبى إلى ما ضرّ بى داع ... يكثر أسقامى وأوجاعى

وقول أحمد بن محمد الشامى فى مطلع قصيدته التى أنشدها فى ندوة الرفاعى بالرياض بمناسبة فوز صديقه الشيخ محمود محمد شاكر بجائزة الملك فيصل العالمية فى الأدب سنة ١٤٠٤هـ .

على ربع سلمى عج مع الركب زائراً ... وحيى به من كان للعهد ذاكراً (٢)

وعن تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض نقول :

إنها لا تختلف عن تقديم بعض متعلقات الفعل على الفعل من حيث إن منها تقديماً واجباً ، وهو لذلك حقيقى لا بلاغة فيه ، لأنه لا اختيار معه .

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٧ هامش رقم ٢ .

(٢) المنهاج الواضح جـ ٢ ص ٣٤٣ وصحيفة الشرق الأوسط العدد ١٩٣٨ السنة السادسة ١٤٠٤/٦/١٧هـ ١٩٨٤/٣/١٩م .

وعندى أن المقدم لا يصح أن يسمى - من وجهة نظر البلاغة - مقدماً إلا إذا كانت رتبته التأخير ، ولكنه قدم عن موضعه الذى كنا نتوقع أن نراه فيه ، أما أن تأتى إلى الجملة الفعلية مثل : نصح محمد محموداً فى السر ، وأعطيت العامل الأجر الزائد أمام الناس .

ونعلل لتقديم الفعل على الفاعل ، ولتقديم الفاعل على المفعول به ، ولتقديم المفعول به على الجار والمجرور فى الجملة الأولى .

ولتقديم المفعول الأول على المفعول الثانى ، ولتقديم صاحب الحال على الحال ، ولتقديم الحال على الظرف فى الجملة الثانية .

فهذا كله ومثله لا يمت إلى البلاغة بصلة ولو واهية .

فلنسقط من مفتاح السكاكى ومن إيضاح القزوينى ذلك الركام الكثير الذى نجده فيهما عند كلامهما عن تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض .

ولست أدرى كيف غاب ذلك عن السكاكى فقال : « أن يكون أصل الكلام هو التقديم ، ولا يكون فى مقتضى الحال ما يدعو إلى العدول عنه كالمبتدأ المعرف فإن أصله التقديم على الخبر نحو زيد عارف (لاحظ أن هذا من تقديم المسند إليه على المسند وليس من تقديم بعض متعلقات الفعل على بعض لتدرك مقدار حاجة كتب البلاغة القديمة إلى غربلة شديدة)

وكذى الحال المعرف ، فأصله التقديم على الحال نحو جاء زيد راكباً ، وكالعامل فإن أصله التقديم على معموله نحو عرف زيد عمراً ، وكان زيد عارفاً ، وإن زيداً عارف ، ومن زيد ؟ وغلام زيد » (1) .

لقد ابتعد السكاكى عن موضوعه أكثر وأكثر بل لقد خرج عنه جملة فلنضرب صفحاً عن ذلك ، ولنقف من التقديم أو التأخير عند ما هو بلاغى حقيقى .

يقول القزوينى صاحب تلخيص المفتاح وصاحب شرحه المسمى بالإيضاح ، والحق أن المفتاح والإيضاح مفتاحان لقفل واحد هو قفل البلاغة العربية ، ومفهوم أن عمل أى مفتاح إنما هو عمل مزدوج ، فهو يفتح مثلما يغلق ، ويغلق مثلما يفتح « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . يقول القزوينى :

---

(1) مفتاح العلوم ص ١١٣ .

(١) وإما لأن ذكره أهم والعناية به أتم فيقدم المفعول على الفاعل :

إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه لا وقوعه ممن وقع منه كما إذا خرج رجل على السلطان وعاث فى البلاد وكثر منه الأذى فقتل وأردت أن تخبر بقتله فتقول : قتل الخارجى فلان .

إذ ليس للناس فائدة فى أن يعرفوا قاتله ، وإنما الذى يريدون علمه هو وقوع القتل به ليخلصوا من شره .

ويقدم الفاعل على المفعول به إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل ممن وقع منه لا وقوعه على من وقع عليه ، كما إذا كان رجل ليس له بأس ، ولا يقدر فيه أن يقتل ، فقتل رجلاً وأردت أن تخبر بذلك فتقول : قتل فلان رجلاً بتقديم القاتل لأن الذى يعنى الناس من شأن هذا القتل ندوره وبعده من الظن ، ومعلوم أنه لم يكن نادراً ولا بعيداً من حيث كان واقعاً على من وقع عليه ، بل حيث كان واقعاً ممن وقع منه ، وعليه قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » وقوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » .

قدم المخاطبين فى الأولى دون الثانية ، لأن الخطاب فى الفقرة الأولى للفقراء بدليل قوله تعالى : « من إملاق » فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم .

والخطاب فى الثانية للأغنياء بدليل قوله تعالى : « خشية إملاق » فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل ، فكان رزق أولادهم أهم ، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم .

(٢) وإما لأن فى التأخير إخلالاً ببيان المعنى :

كقوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » ، فإنه لو أخر (من آل فرعون) عن (يكتم إيمانه) لأوهم ذلك أن (مِنْ) متعلقة بـ « يكتم » فلم يُفهم أن الرجل من آل فرعون ، والمطلوب بيان أنه منهم ، فكونه من آل فرعون ثم ينتصر لموسى دليل على عناية الله بموسى ورعايته له .

(٣) أو لأن فى التأخير إخلالاً بالتناسب :

ومن التناسب رعاية الفاصلة فى النثر ، ورعاية الوزن والقافية فى الشعر ، فالأول كقوله تعالى : « فأوجس فى نفسه خيفةً موسى » .

قدم فيه الجار والمجرور ، والمفعول لأجله على الفاعل ، مراعاة للتناسب بين الفواصل المختومة بألف لتكون على نسق واحد .

والثانى كقول العباس بن الأحنف :

سلبتنى من السرور ثياباً	وكستنى من الهموم ثيابا
كلما أغلقت من الوصل بابا	فتحت لى إلى المنية بابا
عذبينى بكل ما شئت سوى الصـ	ـدّ فما ذقت كالصدود عذابا

والشاهد أن الشاعر قدم الجار والمجرور على المفعول الثانى فى شطرى البيت الأول .

وقدم الجار والمجرور على المفعول فى شطرى البيت الثانى .

وقدم صفة المفعول به عليه فى الشطرة الأخيرة من البيت الثالث .

القصر

لا يبعد المعنى الاصطلاحى للقصر من المعنى اللغوى له ، فمعناه اللغوى هو الحبس فى أساس البلاغة « قصرته : حبسته ، وقصرت نفسى علىّ هذا الأمر ، إذا لم تطمح إلى غيره ، وقصرت طرفى : لم أرفعه إلى مالا ينبغى ، وهن قاصرات الطرف : قصرنه على أزواجهن ، وقصر الستر : أرخاه . قال حاتم :

وما تشتكينى جارتى غير أننى إذا غاب عنها زوجها لا أزورهـا
سيبلغهـا خيرى ويرجـع بعلها إليها ولم تُقصر علىْ ستورهـا [1]

* * *

أما فى الاصطلاح البلاغى فالقصر هو تخصيص شئ بشئ بطريق مخصوص .

والشئ الأول هو المقصور ، والشئ الثانى هو المقصور عليه ، والطريق المخصوص هو أدوات القصر .

والمقصود بتخصيص الشئ بالشئ إثباته له ونفيه عن غيره .

فإذا قلت : ما حج من بيتنا هذا العام إلا أخى الأكبر ، فهمنا تخصيص الحج بالأخ الأكبر ونفيه عن بقية أفراد البيت ، وبهذا تكون جملة القصر بمثابة جملتين ، ففى القصر إيجاز ، وهو مع إيجازه يفيد التوكيد والمبالغة. والإيجاز والتوكيد والمبالغة من أسرار بلاغته .

وقد وضح من تعريفه أنه يتكون من عنصرين أساسيين هما : المقصور والمقصور عليه ، ويسمى البلاغيون هذين العنصرين (طرفى القصر) . وأى قصر باعتبار طرفيه قسمان : قصر صفة على موصوف ، وقصر موصوف على صفة .

والصفة فى القصر أعم من الصفة فى النحو ، فهى فى القصر المعنى الذى يقوم بغيره ، وبعبارة أخرى : هى ماليس ذاتاً ، أما الموصوف فهو فى الغالب ذات جماداً كان أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ، وقد يكون الموصوف معنى مثل : ما التفكير إلا نشاط ذهنى ، وإنما الحب عاطفة .

أدوات القصر

أدوات القصر أى طرقه ، وهى كثيرة منها :

---

(١) أساس البلاغة ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(١) العطف بأدوات مخصوصة هى : (لا) و (لكن) و (بل) ؟

أما (لا) فتأتى فى المثبت مثل : محمد ناجح لا راسب ، وكارم كريم لا بخيل فى قصر الذات على المعنى أى فى قصر الموصوف على الصفة ، والمسافر فيصل لا ناصر والخاطب علاء لا خالد فى قصر المعنى على الذات أى فى قصر الصفة على الموصوف .

والمقصور عليه مع (لا) هو المذكور قبلهامباشرة ، وبعبارة أخرى هو المقابل لما بعدها .

وأما (لكن) فتأتى فى المنفى مثل : ما محمد راسباً لكن ناجح ، وما كارم بخيلاً لكن كريم فى قصر الذات على المعنى أى فى قصر الموصوف على الصفة ، وما المسافر ناصر لكن فيصل ، وما الخاطب خالداً لكن علاء ، فى قصر المعنى على الذات أى فى قصر الصفة على الموصوف .

والمقصور عليه مع لكن هو المذكور بعدها ذاتاً كان أو معنى .

ومثل (لكن) (بل) .

إذ يمكنك أن تحلها محل (لكن) فى الأمثلة السابقة ، وستجد أن الأداء البلاغى لن يختلف عنه مع (لكن) لا مبنى ولا معنى ، كما ستجد أن المقصور عليه فى العطف بها هو ما بعدها مثل لكن .

تقول : ما الحجرة مظلمة بل مضيئة فى قصر الذات على المعنى أى فى قصر الموصوف على الصفة ، وما المسافر أبى بل عمى فى قصر المعنى على الذات أى فى قصر الصفة على الموصوف .

(٢) النفى والإستثناء :

تقول ما محمد إلا ناجح فتكون قد قصرت محمداً على النجاح قصر ذات على معنى أى قصر موصوف على صفة ، وتقول : ما ناجح إلا محمد فتكون قد قصرت النجاح على محمد قصر معنى على ذات أى قصر صفة على موصوف .

والمقصور عليه فى تلك الطريقة هو ما بعد أداة الاستثناء .

وليس بلازم أن تكون أداة النفى هى (ما) بل قد تحل محلها (لا) أو (إن) أو (ليس) ونحوها .

قال ﷺ : « لا يحل للمرأة أن تسافر ثلاث ليال إلا ومعها ذو رحم » وقال تعالى : « إن أنت إلا نذير » ، وقال تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » كما أنه ليس بلازم أن تكون أداة الاستثناء هي (إلا) بل قد تحل محلها (غير) أو (سوى) وما في معناهما ، قال ابن الرومي :

لعمرك ما الحياة لكل حيٍّ إذا نفد الشباب سوى عذاب

وقال محمد حسن فقي :

ما ينجب الصيد الأشا وش للملاحم غير صيد

وقال البحتري :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة حتى يسلمها إليه عداه

ومن الجمع بين (لا) و (غير) قول ابن نباتة :

ولا عيب فيه غير أني قصدته فأنستني الأيام أهلاً وموطنا

وقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

(٣) إنما :

وهي تنحل في المعنى إلى النفي والاستثناء . فإذا قلت : إنما محمد ناجح كان معنى ذلك : ما محمد إلا ناجح ، وإذا قلت : إنما الناجح محمد ، كان معنى ذلك : ما الناجح سوى محمد .

وبالاستقراء لاستعمالات (إنما) في كلام العرب عرفنا أنها تأتي لإثبات ما بعدها ونفي ما عداه ، وقد علل السكاكي ذلك بتضمنها معنى (ما) و (إلا) .

وبما نقله عن علي بن عيسى الربعي النحوي البغدادي قال : « لما كانت إنَّ لتأكيد إثبات المسند للمسند إليه ثم اتصلت بها (ما) المؤكدة ؛ ناسب أن تُضمن معنى القصر ، لأن قصر الصفة على الموصوف وبالعكس ليس إلا تأكيداً للحكم على تأكيد »[1].

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٤٠ .

والمقصور عليه مع (إنما) هو ما ختمت به جملة القصر ، ففي قول الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » المقصور عليه هو العلماء .

يقول القزويني عن (إنما) : « وإذا استقريت وجدتها أحسن ما تكون موقعاً إذا كان الغرض بها التعريض بأمر هو مقتضى معنى الكلام بعدها كما في قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب » فإنه تعريض بذم الكفار وأنهم من فرط العناد وغلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذي عقل ، فأنتم في طمعكم منهم أن ينظروا ويتذكروا كمن طمع في ذلك من غير أولى الألباب ، وكذا قوله تعالى : « إنما أنت منذر من يخشاها » وقوله تعالى : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » .

المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فكأنه ليس له أذن تسمع وقلب يعقل ، فالإنذار معه كلا إنذار .

ويتقوى القزويني في التمثيل لـ (إنما) الدالة على التعريض بما مثل لها به عبد القاهر من قول العباس بن الأحنف :

أنا لم أرزق محبتها   إنما للعبد ما رزقا

فإنه تعريض بأنه قد علم أنه لا مطمع له في وصلها فيئس من أن يكون منها إسعاف به ، وقوله :

وإنما يعذر العشاق من عشقا

إذ معناه : ينبغي للعاشق ألا ينكر لوم من يلومه فإنه لا يعلم كنه بلوى العاشق ، ولو كان قد ابتلى بالعشق مثله لعرف ما هو فيه فعذره .

ويقول الباخرزي :

ما أنت بالسبب الضعيف وإنما   نجح الأمور بقوة الأسباب
فاليوم حاجتنا إليك وإنما   يدعى الطبيب لساعة الأوصاب

يقول في البيت الأول : ينبغي أن أنجح في أمرى حين جعلتك السبب إليه ، ويقول في البيت الثاني : إنا قد طلبنا الأمر من جهته حين استعنا بك فيما عرض لنا من الحاجة وعولنا على فضلك ، كما أن من عول على الطبيب فيما يعرض من السقم كان قد أصاب في فعله »(1).

---

(1) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٤٢ – ٤٤ ودلائل الإعجاز ص ٢٧٢ .

(٤) التقديم:

وهو ثلاثة أقسام :

(أ) تقديم المسند على نحو ما سبق فى تقديم المسند ، كقول عمرو بن كلثوم :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

(ب) تقديم المسند إليه على نحو ما سبق فى تقديم المسند إليه كقول أبى الطيب :

وما أنا أسقمت جسمى به ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

(جـ) تقديم بعض القيود على نحو ما سبق في تقديم بعض متعلقات الفعل أو ما فى معناه عليه كقول الله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » وقوله تعالى « عليه توكلت وإليه أنيب » ، وكقول الشاعر :

وحياته أعطى الشهيد لقومه أترى أجل من الحياة عطاء

وقول الآخر :

إلى الله أشكو لا إلى الناس أننى أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب

والمقصور عليه فى التقديم هو المقدم وهو :

(لنا) فى مثال (أ) قصر موصوف على صفة ؛ فالأصل : الدنيا كائنة أو حاصلة لنا .

و (أنا) فى مثال (ب) قصر صفة على موصوف .

و (إياك) و (عليه) و (إليه) و (حياته) و (إلى الله) فى أمثلة (جـ) وهى من أمثلة قصر الصفة على الموصوف .

* * *

وطرق القصر السابقة تتفق من وجه وتختلف من وجوه .

أما اتفاقها : ففى أن المخاطب بها لابدَّ أن يكون قد حكم حكماً مشوباً بصواب وخطأ ، وأنت تطلب بها تحقيق صوابه ونفى خطئه ، قرر السكاكى ذلك ووضحه بقوله : « تحقق فى قصر القلب كون الموصوف على أحد الوصفين ، أو كون الوصف لأحد الموصوفين ، وهو صوابه ، وتنفى تعيين حكمه وهو خطؤه ، وتحقق فى قصر الإفراد حكمه فى بعض وهو صوابه وتنفيه عن البعض وهو خطؤه »[1] .

---

(١) المفتاح ص ١٤١ .

أما اختلافها فيتلخص فى أمور هى :

١ - الطرق الأول الثلاث تدل على القصر بوساطة الوضع وجزم العقل ، أما التقديم فدلالته عليه بوساطة الفحوى وحكم الذوق .

٢ - الأصل فى القصر بالعطف النص على المثبت والمنفى كما ترى فى قولك محمد ناجح لا راسب ، فى قصر الموصوف على الصفة .

والمسافر فيصل لا ناصر ، فى قصر الصفة على الموصوف .

أما الطرق الثلاث الأخرى ، فالأصل فيها النص على المثبت فقط كقولك :

ما أنا إلا سعودى ، وإنما أنا سعودى ، وسعودى أنا . فى قصر الموصوف على الصفة. وقولك لا يحج إلا المسلم ، وإنما يحج المسلم ، والمسلم يحج ، فى قصر الصفة على الموصوف .

٣ - الأصل فى النفى والاستثناء أن يستعمل فيما يجهله المخاطب وينكره أو يشك فيه كقولك لصاحبك وقد رأيتما شبحاً من بعيد ما هو إلا فيصل ، إذا وجدته يعتقد أنه غير فيصل ويصر على إنكار أنه فيصل أو على الأقل يشك فى أنه فيصل .

وذلك على العكس من الأصل فى (إنما) .

فالأصل فيه أن يكون مما يعلمه المخاطب ولا ينكره ولا يشك فيه كقولك لمخاطبك : إنما هو أخوك أو إنما هو صديقك ، فالمخاطب هنا عالم بالأخوة وبالصداقة ، وما قصدت إلا أن ترققه ، وإلا أن تنبهه لما يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصديق .

على أنه قد ينزل المعلوم منزلة المجهول لاعتبار مناسب فيستعمل له النفى والاستثناء كقول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » أى أنه ﷺ مقصور على الرسالة لا يتعداها إلى التبرى من الهلاك .

نزل سبحانه وتعالى إنكارهم موته منزلة إنكارهم رسالته ، وكقوله تعالى : « وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير » فإنه ﷺ كان لشدة حرصه على هداية الناس يكرر دعوة الممتنعين عن الإيمان ولا يرجع عنها ، فكان في معرض من ظن أنه يملك مع صفة الإنذار صفة إيجاد الشئ المستحيل وجوده .

* * *

كما قد ينزل المجهول منزلة المعلوم لادعاء المتكلم ظهوره فيستعمل له (إنما) كقوله تعالى على لسان اليهود : « إنما نحن مصلحون » .

ادعوا أن كونهم مصلحين ظاهر جلى ، ولذلك جاء قول الله تعالى فى الرد عليهم « ألا إنهم هم المفسدون » مؤكداً بما نراه من اسمية الجملة ، وتعريف الخبر بأل وتوسيط ضمير الفصل ، والتصدير بحرف التنبيه ، ثم بإن .

ومثله قول عبد الله بن قيس الرقيات فى مدح مصعب بن الزبير :

إنما مصعب شهاب من اللـ ـــه تجلت عن وجهه الظلماء

ادعى أن كون مصعب كما ذكر جلىٌّ معلوم لكل أحد ، على عادة الشعراء إذا مدحوا أن يدعوا فى كل ما يصفون به ممدوحيهم الجلاء ، وأنهم قد شهروا به حتى لا يدفعه أحد .

٤ - القصر بالعطف أقوى فى الدلالة على التخصيص من القصر بالأدوات الأخرى ، ويليه النفى والاستثناء . فإنما ، فالتقديم .

وفى المقابل : للقصر بالأدوات الثلاث الأخرى مزية على القصر بالعطف ، وهى أنه يفهم منها إثبات الشئ ونفيه عن غيره دفعة واحدة بخلاف العطف .

٥ - لا يجتمع النفى والاستثناء مع النفى بلا العاطفة ، فلا يصح أن تقول ما شوقى إلا شاعر لا كاتب ، لأنك إذا قلت : ما شوقى إلا شاعر ، تكون قد نفيت كل صفات شوقى غير الشاعرية ، وبهذا تكون الكتابة قد نفيت ضمن الصفات المنفية الأخرى ، فإذا أردفت ما سبق بقولك (لا كاتب) تكون قد نفيت بلا العاطفة أمراً هو منفى قبلها بما النافية .

يقول السكاكى : « والطريق الأول (القصر بلا العاطفة) لا يجامع الثانى (القصر بالنفى والاستثناء) فلا يصح : ما زيد إلا قائم لا قاعد ، ولا ما يقوم إلا زيد لا عمرو ، والسبب فى ذلك هو أن (لا) العاطفة من شرط منفيها ألا يكون منفياً قبلها بغيرها من كلمات النفى ، نحو جاءنى زيد لا عمرو ، ونحو : زيد قائم لا قاعد أو متحرك لا ساكن أو موجود لا معدوم ، ويمتنع تحقق شرطها هذا فى منفيها إذا قلت : ما يقوم إلا زيد لا عمرو ، ما زيد إلا قائم لا قاعد [1] .

* * *

(١) انظر السكاكى ص ١٤١ - ١٤٢ ، وبغية الإيضاح جـ ٢ ص ٣٨ - ٤٢ : والإشارات والتنبيهات ص ٩٠ - ٩١ .

وقبل أن نغادر أدوات القصر ننبه إلى أن ما ذكرناه منها ليس إلا أظهرها وأشهرها ، وقد أوصلها السيوطى فى الإتقان إلى أربعة عشر طريقاً [1] منها :

١ – ضمير الفصل مثل ناصر هو الأول .

٢ – التصريح بلفظ (وحده) أو (ليس غير) أو (فقط) ، تقول : عرفت فلاناً وحده أو ليس غير أو فقط .

٣ – تعريف المسند إليه والمسند مثل : محمد الناجح ، خير الزاد التقوى .

٤ – استعمال مادة خص وقصر ونحوها . أقول خصصت فلاناً بحبى وقصرت احترامى على فلان ، وعكفت على التأليف ، ووقتى الآن وقف على إنجاز البلاغة الاصطلاحية .

ومع أن هذه الأساليب ونحوها تتوزع على المعنيين اللغوى والاصطلاحى للقصر ، فإن ما يتبادر إلى الذهن عند سماع (أدوات القصر) ليس سوى الأدوات الأربع الأولى ، ولا عجب فهى التى دار البحث فيها وحولها بشكل مكثف .

أقسام القصر

أقسام القصر ثلاثة :

ووجه كون أقسامه ثلاثة أن الأسس التى قام عليها التقسيم ثلاثة :

(أ) فتقسيم أساسه مبنى جملة القصر وهو طرفا القصر .

(ب) وتقسيم أساسه دلالة جملة القصر على الإثبات والنفى .

(جـ) وأخيراً تقسيم للإضافى باعتبار حال المخاطب إلى قصر إفراد وقصر قلب وقصر تعيين .

وعن التقسيم الأول وهو القائم على مبنى جملة القصر نقرر أن جملة القصر تتكون لا محالة من طرفى القصر وهما المقصور والمقصور عليه ، وكل منهما إما أن يكون ذاتاً وإما أن يكون معنًى ، والقصر بهما ومعهما إما أن يكون قصر صفة على موصوف ، وإما أن يكون قصر موصوف على صفة .

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ٥٠ .

وإدراك ذلك سهل فيهما ؛ فقد سبقت أمثلة كثيرة لهما .

أما التقسيم الثانى وهو القائم على دلالة جملة القصر على الإثبات والنفى فقد نتج عنه ما سمى فى الاصطلاح البلاغى بالقصر الحقيقى والقصر الإضافى ، لأن الشق الثانى من دلالة جملة القصر وهو النفى إما أن يكون عاماً وإما أن يكون خاصاً ، فإن كان عاماً كان القصر حقيقياً ، وإن كان خاصاً كان القصر إضافياً .

فى القصر الحقيقى :

يختص المقصور بالمقصور عليه : بمعنى أنه يثبت له وينتفى عما عداه انتفاء عاماً ومطلقاً ، أقول : لا يروى مصر إلا النيل ، فأكون قد قصرت إرواء مصر على النيل قصراً حقيقياً ، لأننى نفيت ضمناً إرواء مصر عن غير النيل من سائر الأنهار ، ويقول أحد الطلاب : لا يدرس لنا الفيزياء إلا الدكتور فلان فيكون قد قصر تدريس الفيزياء له ولزملائه على هذا الدكتور دون غيره من أعضاء هيئة التدريس فى جامعته وفى غير جامعته ، ولأن النفى هنا مطلق وعام كان قصر الصفة على الموصوف فى المثالين السابقين قصراً حقيقياً.

وفى القصر الإضافى :

يتم تخصيص المقصور بالمقصور عليه كالحقيقى ، ولكن نفى المقصور عن غير المقصور عليه لا يكون عاماً ومطلقاً كالحقيقى ، بل يكون خاصاً ومقيداً ، وبلغة البلاغيين يكون إضافياً أى بالإضافة إلى صفات أخرى معينة ومحددة أو إلى موصوفين آخرين معينين ومحددين:

نقول فى قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً : لا ذكى من الطلاب إلا على . وإذا تأملت وجدت أن الذكاء مقصور على علىٍّ قصراً إضافياً أى بالنسبة إلى زملائه فقط ، فلم تنف الذكاء عن غير علىّ نفياً مطلقاً بل نفياً مقيداً بأنه بالنسبة للطلاب الذين يدرسون معه .

ونقول فى قصر الموصوف على الصفة قصراً إضافياً : ما علىٌّ إلا ذكى ، فتنفى عنه صفة معينة أو مجموعة محددة من الصفات كالاتصال بالحكام ، والاطلاع على خفايا الأمور، ومعرفة خبايا الصدور ، وتقرر مؤكداً أنه ذكي فقط أى ما هو إلا مستنطق الأحداث ومدرك من مقدماتها نتائجها ؛ فقد نفيت عن علىٍّ غير الذكاء نفياً مقيداً بأنه [illegible] المدعاة له ، وبالإضافة إليها وحدها ، فلم تنف عنه الكرم ، ولم تنف عنه الشجاعة ، ولم تنف عنه الإخلاص ، وغير ذلك من الصفات .

والخلاصة أن الإطلاق والتقييد في النفي المفهوم من جملة القصر هما السمتان المميزتان للقصرين الحقيقي والإضافي .

ما كان النفي فيه عاماً أي مطلقاً كان قصراً حقيقياً ، وما كان النفي فيه خاصاً أي مقيداً كان قصراً إضافياً .

وللقصرين : الحقيقي والإضافي تفريعات شتى .

فالقصر الحقيقي قد يكون حقيقياً تحقيقاً أي بحسب الحقيقة والواقع كالمثالين السابقين في الحقيقي وهما : لا يروى مصر إلا النيل ولا يدرس لنا الكيمياء إلا فلان ونزيد على هذين المثالين قولنا لا رازق إلا الله ، ولا أمير للشعراء إلا شوقي ولا يشغل هذا المبنى إلا فلان وأسرته إذا كان فلان وأسرته قد تفردوا بالسكن في المبنى المذكور فعلاً .

وقد يكون القصر الحقيقي غير تحقيقي بأن يكون ادعائياً مجازياً أساسه الغلو والمبالغة، أقول إنما الشاعر صلاح عبد الصبور قاصداً نفي الشاعرية عن غيره لعدم اعتدادي بشاعرية غيره ، ولا عجب ، فشاعرية غيره من وجهة نظري عدم .

ولأن هذا ليس هو الحقيقة والواقع كان هذا القصر حقيقاً ادعائياً أي على سبيل الادعاء والمبالغة لا على سبيل التحقيق والواقع .

ولننبه إلى أن القصر الحقيقي يكون قصر صفة على موصوف ، ولا يكون قصر موصوف على صفة ، وهذا هو المعقول ، فلا يمكن أن نقول على سبيل القصر الحقيقي التحقيقي : ما محمد إلا موظف .

فمن غير المتصور أن يقصر محمد نفسه على وظيفته فلا يذهب إلا إليها ولا يعود إلا منها ، ولا يمارس شيئاً سواها طول عمره الوظيفي ، بل يوماً واحداً من عمره الوظيفي ، وإلا فأين هو من نومه ويقظته ومن أكله وشربه ، ومن حركته وسكونه ومن فرحه وحزنه ومن رضاه وسخطه ومن حلمه وغضبه ومن قيامه بواجباته الأسرية والاجتماعية إلخ .

* * *

بقي التقسيم الأخير من تقسيمات القصر وهو تقسيم القصر الإضافي منه باعتبار حال المخاطب إلى قصر إفراد وقصر قلب وقصر تعيين ، ولأن أساس التقسيم هنا إنما هو حال المخاطب سماه صاحب الإشارات والتنبيهات : القصر في المحاورات قال :

والقصر فى المحاورات إما قصر إفراد أو قصر قلب أو قصر تعيين .

الأول : فى الموصوف نحو ما زيد إلا عالم ، وفى الصفة نحو ما العالم إلا زيد ، يخاطب به من يعتقد أن للموصوف صفة أخرى ، أو للصفة موصوفاً آخر .

والثانى : يخاطب به من يعتقد اتصاف الموصوف بغير تلك الصفة ، أو اتصاف غير ذلك الموصوف بتلك الصفة .

والثالث : يخاطب به من يتساوى عنده الموصوف المذكور وغيره فى الصفة المذكورة أو الصفة المذكورة وغيرها فى ذلك الموصوف .

وشرط الأول : عدم تنافى الوصفين حتى يكون المنفى فى قولنا ما زيد إلا شاعر كونه كاتباً أو منجماً أو نحو ذلك لا كونه مفحماً يعجز عن قول الشعر .

وشرط الثانى : تنافيهما حتى يكون المنفى فى قولنا ما زيد إلا قائم كونه قاعداً أو جالساً أو غير ذلك لا كونه أبيض أو أسود ونحو ذلك .

وشرط الثالث : أعم من ذلك ، أي من التنافى وعدم التنافى ، فكل مثال يصلح لقصر الإفراد أو القلب يصلح لقصر التعيين من غير عكس » [1] .

انتهى كلام صاحب الإشارات والتنبيهات .

واستشعاراً منى لما عساه أن يكون فيه من غموض فإنى أوضحه بالأمثلة الآتية :

تقول فى قصر الموصوف على الصفة قصر إفراد : ما محمد إلا كاتب ، رداً على من يعتقد أنه كاتب وشاعر معاً .

وتقول فى قصر الصفة على الموصوف قصر إفراد : ما كاتب إلا محمد ، رداً على من يعتقد أن محمداً كاتب وأن أحمد أيضاً كاتب .

* * *

وتقول فى قصر الموصوف على الصفة قصر قلب : ما ناصر إلاّ ذكى ، رداً على من يعتقد اتصافه بالغباء .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٨٩ - ٩٠ .

وتقول فى قصر الصفة على الموصوف قصر قلب : ما ذكى إلا ناصر ، رداً على من يعتقد أن الذكى خالد لا ناصر .

* * *

وتقول فى قصر الموصوف على الصفة قصر تعيين : ما سعد إلا ناجح . خطاباً لمن تردد بن نجاح سعد ورسوبه .

وتقول فى قصر الصفة على الموصوف قصر تعيين : إنما العظيم ناصر خطاباً لمن تردد بين ناصر وغيره فى ثبوت العظمة له .

وقد سكت السكاكى عن اشتراط عدم التنافى فى قصر الإفراد ، وعن التنافى فى قصر القلب (1) .

وسكوت السكاكى هذا من ذهب ، فعدم التنافى فى قصر الإفراد معلوم بما ذكر فى تعريفه من أن المخاطب به من يعتقد الشركة ، والشركة لا تتصور إلا فى وصفين غير متنافيين.

والتنافى فى قصر القلب يخرج به قولنا « إنما محمد شاعر » لمن يعتقد أنه كاتب ، والصحيح أنه لا يخرج ، فهو قصر قلب لا ريب ، لأنك قلبت ما علمه عن محمد رأساً على عقب والله أعلم .

---

(1) المفتاح ص ١٣٩ .

الوصل والفصل

الوصل في الاصطلاح البلاغي عطف جملة على جملة بالواو ، والفصل ترك هذا العطف. فلا يدخل في الوصل عطف مفرد على مفرد ، كما لا يدخل فيه عطف جملة على جملة بغير الواو من حروف العطف الأخرى كالفاء وثم وحتى وبل ولكن ولا وأما وأو وأم وأى .

ثم إن عدم وجود هذه الحروف بين الجمل المتجاورة لا يسمى فصلاً .

وقد انحزت بالتحديد المزدوج في تعريف الوصل والفصل إلى جمهور البلاغيين .

(عبد القاهر في الدلائل ، والقزويني في الإيضاح ، والعلوي في الطراز ، وابن القيم في الفوائد) .

أما السكاكي فقد ذهب إلى أن كلا من الوصل والفصل يأتى في عطف الجمل والمفردات وفي العطف بالواو وغيره من حروف العطف [1] .

ويظهر أنه قد وقف من الوصل والفصل عند معناهما اللغوى فعمم .

وعندى أن عطف مفرد على مفرد لا يخرج عن كونه عطف جزء على جزء ، والجزء واحداً أو متعدداً لا يؤدى معنى كاملاً لعدم تضمنه نسبة بين مسند إليه ومسند فلا يتعلق به غرض بلاغي بالمعنى الاصطلاحي للبلاغة في مقابلة المعنى الاصطلاحي للفصاحة .

وإنما اقتصرت الدراسة على الواو وجوداً في الوصل وعدماً في الفصل ، لأنها الأداة الوحيدة التى تفيد الجمع فقط أى الجمع مطلق الجمع ، أما غيرها من حروف العطف الأخرى فإن منها ما يفيد معاني أخرى غير الجمع وما يفيد مع الجمع معنى آخر هو الترتيب مع التعقيب في (الفاء) ، والترتيب مع التراخي في (ثم) وترتيب الأجزاء ترتيباً ذهنياً في (حتى) .

وقد ترتب على ذلك أن مرسل الأدب إذا وصل جملتين بالواو كان على متلقيه أن يبحث عن سر هذا الوصل ، وإذا لم يصلهما بها كان عليه أن يبحث عن سر هذا الفصل ، وهكذا جاء هذا الدرس من دروس البلاغة في علم المعاني ، وهو درس دقيق ؛ لأنه محتاج بعد الفهم العام إلى فهم خاص ، محتاج إلى ذوق وعقل .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ٨٣ هامش رقم (١) ومفتاح العلوم ص ١٢٠ وما بعدها .

مواضع الفصل

يتم الفصل بين الجملتين المتجاورتين فى خمسة مواضع :

الموضع الأول :

كمال الاتصال بينهما

وهو يتحقق فى ثلاثة مواطن هى :

(أ) أن تكون الجملة الثانية مؤكدة للجملة الأولى .

كقول الله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

يقول القزوينى : « فإن وزان (لا ريب فيه) فى الآية وزان (نفسه) فى قولك : جاءنى الخليفة نفسه، فإنه لما بولغ فى وصف الكتاب ببلوغ الدرجة القصوى من الكمال، بجعل المبتدأ (ذلك) الدال على العظمة وعلو الدرجة ، وبتعريف الخبر بأداة التعريف الدالة على الانحصار حتى صار المعنى أنه وحده الكتاب الكامل ، وأن ما عداه من الكتب ناقص ، بل ليس بكتاب أصلاً ، جاز أن يظن السامع أو القارئ أن جملة (ذلك الكتاب) مما يرمى به جزافاً من غير تحقق ، فأتبعها (لا ريب فيه) نفياً لذلك ، إتباع (الخليفة) (نفسه) إزالة لما عسى أن يتوهم السامع أنك فى قولك (جاءنى الخليفة) متجوز أو ساه »[1] .

وكالآية السابقة قوله تعالى : « كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً » ، فإن الثانية مقررة للأولى ؛ وقوله تعالى : « إنا معكم إنما نحن مستهزئون » لأن قولهم : (إنا معكم) معناه الثبوت على اليهودية ؛ وقولهم : « إنما نحن مستهزئون » رد للإسلام ودفع له .

ومن ذلك قولك : تزوج محمد هنداً عقد عليها ، وقول المتنبى :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى .·. إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وقول الآخر

يهوى الثناء مبرز ومقصر .·. حب الثناء طبيعة الإنسان

وسر بلاغة الفصل فى التوكيد أن التأكيد والمؤكد كالشئ الواحد ، فعطف التأكيد على المؤكد يكون كعطف الشئ على نفسه وهو غير وارد

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ٩٣

(ب) أن تكون الجملة الثانية بياناً للأولى .

وذلك بأن تنزل منها منزلة عطف البيان من متبوعه فى إفادة الإيضاح كقول الله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فصل جملة (قال ....) عن جملة (فوسوس ...) لأنها مبينة لها ووزانها وزان (عمر) فى قول عبد الله ابن كيسبة : أقسم بالله أبو حفص عمر .

فكما جعل (عمر) بياناً وتوضيحاً لأبى حفص لأنه كنية يقع فيها الاشتراك جعلت جملة (قال ...) بياناً لجملة (فوسوس ..) .

ومن ذلك قولك : الأستاذ أب لطلابه يحبهم . أو الطلاب أبناء لأستاذهم يحبونه ، وقول المعرى :

الناس للناس من بدو وحاضرة ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وقول الآخر :

كفى زاجراً للمرء أيام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدى

وسر بلاغة الفصل بين جملة البيان والجملة المبيَّنة هو ما سبق من سر بلاغة الفصل بين جملة التأكيد والجملة المؤكدة .

(جـ) أن تكون الجملة الثانية بدل بعض أو اشتمال من الجملة الأولى :

فمن أمثلة بدل البعض قولنا : يربى الأب أبناءه تربية إسلامية : يأمرهم بالصلاة لسبع . فإن أمرهم بالصلاة لسبع بدل بعض من تربيتهم تربية إسلامية ، وقوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون » ، فإن الأنعام والبنين والجنات والعيون بعض ما يعلمون أن الله تعالى أمدهم به ، وقوله تعالى : « يدبر الأمر يفصل الآيات » فإن تفصيل الآيات جزء من تدبير الأمر وبدل بعض منه .

وقوله تعالى : « يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم » لأن تذبيح الأبناء بعض ما يسومونهم من العذاب ، ووزان الثانية من الأولى فى الأمثلة الأربعة السابقة وزان (وجهه) فى قولك « أعجبنى الصديق وجهه » .

ومن أمثلة بدل الاشتمال :

قول الله تعالى : « اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً » .

وقول الشاعر:

أقول له (ارحل) (لا تقيمن عندنا)،، وإلا فكن فى السر والجهر مسلما

فوزان الجملة الثانية فى كل من الآية والبيت وزان (حسنها) فى قولك أعجبتنى الدار حسنها .

وسر بلاغة الفصل فى البدل أن المبدل منه فى نية الطرح ، والعطف عليه لذلك يكون كالعطف على غير مذكور .

وقد عُلل الفصل فى كمال الاتصال جملةً بأن العطف بالواو يقتضى المغايرة بين الجملتين ولا مغايرة فيما بينهما كمال الاتصال ، فلو عطفنا بالواو لحصل التنافى بين ما تقتضيه الواو من المغايرة ، وما بين الجملتين من كمال الاتصال [1] .

الموضع الثانى من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو شبه كمال الاتصال بينهما :

وهو يتحقق إذا كانت الجملة الثانية جواباً عن سؤال اقتضته الجملة الأولى فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن السؤال .

ويسمى الفصل لذلك استئنافاً ، وتسمى الجملة الثانية كذلك استئنافاً ، **والاستئناف ثلاثة أضرب** ، يقول القزوينى : لأن السؤال الذى تضمنته الجملة الأولى ، إما عن سبب الحكم فيها مطلقاً كقوله :

قال لى كيف أنت قلت عليل (سهر دائم) وحزن طويل

أى ما بالك عليلاً أو ما سبب علتك .

وإما عن سبب خاص له كقول الله تعالى:

«وما أبرئ نفس إن النفس لأمارة بالسوء».

وإما عن غيرهما بأن يكون عن شئ آخر له تعلق بالجملة الأولى غير السببية كقوله تعالى: « قالوا سلاماً قال سلام » كأنه قيل : فماذا قال إبراهيم عليه السلام ؟ فقيل : قال

---

(١) المنهاج الواضح جـ ٢ ص ١٢٣ .

سلام ، ومنه قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة صدقوا ولكن غمرتى لا تنجلى

فإنه لما أبدى الشكاية من جماعات العذال ، كان ذلك مما يحرك السامع ليسأل : أصدقوا فى ذلك أم كذبوا ؟ فأخرج الكلام مخرجه إذا كان ذلك قد قيل له ففصل .

كما أن منه قول المتنبى :

وما عفت الرياح له محلا عفاه منْ حدا بهم وساقا

فإنه لما نفى الفعل الموجود عن الرياح كان مظنة أن يُسأل عن الفاعل .

وإنما سمى هذا الضرب من أضرب الفصل بين الجملتين المتجاورتين شبه كمال الاتصال لما فيه من ارتباط الجواب بالسؤال ، وهو ارتباط شبيه بالارتباط القائم بين الجملتين المتجاورتين فى المواطن الثلاثة المكونة لكمال الاتصال ، فكما أن الجملة الأولى فى المواطن الثلاثة مستتبعة للثانية ، وكما أن الثانية لا توجد بدون الأولى ، كذلك السؤال مستتبع الجواب ، ولا يوجد الجواب بدون السؤال (١) .

* * *

والذى قعد بشبه كمال الاتصال عن أن يكون اتصالاً كاملاً إنما هو ما بين السؤال والجواب من عدم الاتحاد فى المعنى ، أجل . إنهما متلازمان لكنهما مختلفان ، فالسؤال شئ والجواب شئ آخر .

أما فى كمال الاتصال فالجملة الثانية معناها هو معنى الجملة الأولى كاملاً فى البيان والتوكيد وبدل الاشتمال ، وغير كامل فى بدل البعض .

الموضع الثالث من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو :

كمال الانقطاع بينهما

وكمال الانقطاع بينهما وصف يطلق عليهما إذا كانتا من التباعد اللفظى والمعنوى بحيث لا يصح ربطهما بعضهما ببعض ، وهذا يتحقق فى حالتين :

(١) بغية الإيضاح جـ ٣ ص ١٤٧ .

الحالة الأولى : أن تختلفا خبراً وإنشاء .

بأن تكون إحداهما خبراً لفظاً ومعنى أو معنى فقط .

وتكون الثانية إنشاء لفظاً ومعنى أو معنى فقط .

ولهذه الحالة صور كثيرة منها :

لا تطلبن بآلةٍ لك حاجةً   قلم البليغ بغير حظٍ مغزل

تم الفصل بين الجملتين فى البيت لأن الأولى إنشائية لفظاً ومعنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى . وكهذه الصورة قول الله تعالى : « وأقسطوا ؛ إن الله يحب المقسطين » ، وقول الصديق أبى بكر رضى اله عنه : « أيها الناس إنى وليت عليكم » .

ومنها :

لست مستمطراً لغيرك غيثاً   كيف يظما من قد تضمن بحرا

تم الفصل بين جملتى البيت ؛ لأن الأولى فيه خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية إنشائية لفظاً ومعنى ، أى عكس الوضع فى البيت السابق .

وكهذه الصورة قوله تعالى : « وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم » . وقولى لابنى: أخوك أخطأ انصحه .

ومنها ، نجح علاء في الامتحان وفقه الله .

والفصل هنا لأن الجملة الأولى خبرية لفظاً ومعنى ، والثانية خبرية لفظاً إنشائية معنى .

ومنها :

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوى من صديقى

فالأولى خبرية لفظاً إنشائية معنى ، والثانية خبرية لفظاً ومعنى أى عكس الوضع السابق.

والحالة الثانية أن تتفق الجملتان خبراً وإنشاء لكن لا تكون هناك مناسبة بينهما فى المعنى أو فى السياق.

الأول : مثل : محمد نجح خالد قصير ، إذ لا مناسبة بين نجاح محمد وقصر خالد .
ومنه قول الشاعر :

وإنما المرء بأصغريه كل امرئ رهن بما لديه

والثاني : كقول الله تعالى : « بسم الله الرحم الرحيم . الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

لم يعطف (إن الذين كفروا) على ما قبله مع أن بينهما مناسبة فى المعنى بالتضاد ، حيث إنه مبين لحال الكفار ، وما قبله مبين لحال المؤمنين ، لأن بيان حال المؤمنين غيرمقصود بل ذكر على سبيل الاستتباع لبيان حال الكتاب وليس بين حال الكتاب وحال الكفار مناسبة تقتضى الوصل .

* * *

ويلزم التنويه بأن سبب الفصل فى الحالتين المكونتين لكمال الانقطاع أمر ذاتى لا يمكن تفاديه وهو اختلاف الجملتين خبراً وإنشاء فى الحالة الأولى وعدم التناسب بينهما فى الحالة الثانية ، ولأن سبب الفصل بين الجملتين فى الحالتين أمر ذاتى أى مستكن فى تكوينهما وليس أمراً طارئاً عليهما كان الانقطاع كاملاً وكان عدم ربطهما بالواو واجباً ، لا نستثنى من ذلك إلا حالة واحدة هى حالة إيهام الفصل خلاف المقصود وستأتى فى مواضع الوصل.

الموضع الرابع

من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو :

شبه كمال الانقطاع بينهما

ويؤسفنى أننى لم أجد لشبه كمال الانقطاع هذا إلا مثالاً واحداً يحتمله ويحتمل أن يكون شبه كمال الاتصال أى من الضد إلى الضد ، وهذا المثال هو :

وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلا أراها فى الضلال تهيم

فبين الجملتين الرئيسيتين فى البيت وهما (وتظن سلمى أننى أبغى بها بدلاً) و (وأراها في الضلال تهيم) .

أقول بين هاتين الجملتين مناسبة مزدوجة شقها الأول : اتحاد المسندين أو شبه اتحادهما وهما (تظن) و (أراها) ، وشقها الثاني : شبه التضايف بين المسند إليه فيهما للزومهما لبعضهما ، فهما المحب والمحبوب . ولقد كانت هذه المناسبة المزدوجة مبرراً لعطف (أراها) على (تظن) لكن ترك العطف لئلا يُتوهم أنه عطف على (أبغى) فيكون من مظنونات سلمى ، وهو خلاف المقصود ، إذ المقصود تخطئة سلمى في ظنها أن الشاعر يبغي بها بدلاً .

وقد سمى هذا المثال بشبه كمال الانقطاع ، لاشتماله على المانع من العطف وهو إيهام خلاف المقصود .

والسبب في أنه شبه كمال انقطاع ، وليس كمال انقطاع هو أن المانع من الوصل فيه أمر عارض على الجملتين وليس أمراً داخلاً في تكوينهما ، ولأنه عارض عليهما ، وليس داخلاً في تكوينهما ، يمكن تلافيه بقرينة لفظية ، أو حالية وقد سمى لهذا (شبه كمال الانقطاع) ، أما المانع من الوصل في كمال الانقطاع فلأنه أمر ذاتي في الجملتين وليس أمراً خارجاً عنهما كان الانقطاع انقطاعاً كاملاً .

* * *

وعن أن هذا البيت يمكن أن يكون شاهداً على كمال الاتصال ، فلأنه يمكن أن نقطع استرسال الشاعر بعد قوله (وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً) بسؤال نوجهه إليه فحواه : وما رأيك في ظن سلمى أنك تبغي بها بدلاً ؟ ويكون جواب هذا السؤال هو (أراها في الضلال تهيم) .

وهو شبه كمال الاتصال نصاً .

الموضع الخامس

من مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين هو :

التوسط بين الكمالين كمال الاتصال وكمال الانقطاع :

وذلك بأن تكون الجملتان متناسبتين ومتفقتين خبراً وإنشاء لفظاً ومعنى أو معنى ، لكن يمنع من العطف مانع كأن يكون للأولى حكم لا يصح إعطاؤه الثانية ، أو يكون معها قيد يفسد معنى الكلام لو طال الثانية .

ومن أمثلته قوله تعالى : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم » .

لا يصح عطف جملة (الله يستهزئ بهم) على جملة (إنا معكم) أو ما بعدها ، لاقتضائه أنها من مقولة المنافقين وليس الأمر كذلك .

كما لا يصح عطفها على جملة (قالوا ...) إذ يلزم من هذا اختصاص استهزاء الله بهم بوقت خلوهم إلى شياطينهم وتحدثهم معهم .

والواقع أن استهزاء الله بهم حاصل فى كل وقت .

* * *

انتهت مواضع الفصل بين الجملتين المتجاورتين ، وإن بها لتزيداً يتمثل فى الموضعين الأخيرين ، وهما الموضعان اللذان لم نجد لأولهما فى كتب البلاغة إلا مثالاً واحداً ، ولم يخلص هذا المثال الواحد لما ضرب له كما رأينا .

ولهذا أضم صوتى إلى صوت الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى اقتراحه الخاص بإدراجهما فى الموضع الثالث قال : « وعند إمعان النظر نجد أن أقسام الفصل ثلاثة لأن موجبه إما الامتزاج التام ، وذلك هو الصورة الأولى (كمال الاتصال) ، وإما التباين التام وهو الصورة الثانية (كمال الانقطاع) وإما قوة الرابطة بالأولى لكونها كالجواب عن سؤال يفهم منها وتلك هى الصورة الثالثة (شبه كمال الاتصال) وأما الحالتان الرابعة والخامسة (شبه كمال الانقطاع ، التوسط بين الكمالين) فيندرجان فى الثالثة ، وظاهر فيهما أنهما جواب سؤال مقدر ، صرح بذلك السكاكى والقزوينى فى الرابعة بقولهما بعد البيت (وتظن سلمى ..) . (ويحتمل الاستئناف) وصرح عبد القاهر بذلك فى الخامسة [1] .

ونعزز كلام المراغى بأن القزوينى سيجعل السبب الخامس للفصل سبباً للوصل بعد ألا يمنع من العطف مانع طبعاً [2] .

---

(١) علوم البلاغة ص ١٥٧ هامش رقم / ٣ .

(٢) انظر بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٠٧ .

مواضع الوصل

يتم الوصل بين الجملتين المتجاورتين فى ثلاثة المواضع الآتية :

الموضع الأول :

إذا قصد المتكلم بإيرادهما فى إثر بعضهما إشراكهما فى الحكم الإعرابى مثل : علاء نجح وتفوق ، ومحمد باع واشترى ، وناصر زار الحرم المكى وزار الحرم المدنى . والجملتان هنا محلهما الرفع على الخبرية للمبتدأ .

ومثل : « عاد فيصل من أمريكا وقد حصل على الدكتوراه وتزوج وأنجب ووفر بعض المال » فالجمل : (تزوج) و (أنجب) و (وفر بعض المال) موصولة ببعضها ومعطوفة على جملة (حصل على الدكتوراه) قبلها لاشتراكها معها فى الحكم الإعرابى لها وهو النصب على الحالية من الفاعل (فيصل) .

ومثل : « التقيت فى أوربا بطالب عربى يعمل في الصباح ويدرس فى المساء » فجملة (يدرس فى المساء) معطوفة على جملة (يعمل فى الصباح) لاشتراكها معها فى الحكم الإعرابى وهو هنا الجر صفة للطالب العربى .

الموضع الثانى :

من مواضع الوصل بين الجملتين المتجاورتين .

أن يكون بين الجملتين كمال الانقطاع مع إيهام الفصل خلاف المقصود .

وهذه هى الحالة التى نوهنا بها فى الموضع الثالث من مواضع الفصل ، وهى تتحقق - كما سبق أن قلنا فى كمال الانقطاع - بأن تختلف الجملتان خبراً وإنشاء أو بألا يكون بينهما تناسب فى المعنى أو فى السياق ، ولكن فصل إحداهما عن الأخرى يوهم خلاف المقصود ؛ ويعطى معنى مضاداً للمعنى الذى أراده المتكلم .

يسألك عائدك وهو منصرف عنك قائلاً : أتريد شيئاً فترد لا وحفظك الله .

أو : لا وبورك فيك . أو لا وعافاك الله .

(لا) هنا فى معنى جملة خبرية تقديرها (لا أريد شيئاً) أما (حفظك الله) ونحوها ،

فهى وإن كانت خبرية لفظاً إلا أنها إنشائية معنى ، ولما كانت العبرة بالمعنى فإن بين الجملتين (لا ، وما بعدها) كمال الانقطاع ، لكن لو فصلنا لأوهم الفصل الدعاء على المخاطب لا الدعاء له ، ولما كان الدعاء له هو مقصود المتكلم ومراده وجب الوصل .

الموضع الثالث من مواضع الوصل بين الجملتين المتجاورتين :

هذا الموضع لا يتحقق إلا بثلاثة شروط هى :

(أ) أن تتفق الجملتان خبراً أو إنشاء لفظاً ومعنى أو معنى فقط .

(ب) أن يكون بينهما تناسب فى المعنى .

(جـ) عدم وجود سبب من أسباب الفصل السابقة ، وهى كمال الاتصال وشبهه ، وكمال الانقطاع وشبهه والتوسط بين الكمالين .

مثال الخبريتين لفظاً ومعنى قوله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » .

ومثال الإنشائيتين لفظاً ومعنى قوله تعالى : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

ومثال المتفقتين خبراً معنى فقط قوله تعالى : « إنى أشهد الله واشهدوا » إذ التقدير : إنى أشهد الله وأشهدكم .

ومثال المتفقتين إنشاء معنى فقط : اركب الطائرة وتجلس فى مقعدك . إذ التقدير اركب الطائرة واجلس فى مقعدك .

والتناسب بين الجملتين هو التلاؤم بينهما كالتوافق فى (يأكل ويشرب) ، وكالتضاد فى (يضحك ويبكى) .

ولنحرص على ألا تكون هناك فروق صارخة بين المسند إليه فى الجملتين ، ولا بين المسندين .

فلا نقول : علاء ناجح والسماء ممطرة ، لعدم التناسب بين (علاء) و (السماء) فى الجملتين ، وبين (ناجح) و (ممطرة) فيهما ، وقد عيب لهذا قول أبى تمام :

لا والذى هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

إذ لا تناسب بين مرارة النوى وكرم أبى الحسين .

محسنات الوصل

قال القزويني « ومن محسنات الوصل تناسب الجملتين فى الاسمية والفعلية ، وفى المضي والمضارعة إلا لمانع ، كما إذا أريد بإحداهما التجدد ، وبالأخرى الثبوت كما إذا كان زيد وعمرو قاعدين ثم قام زيد دون عمرو ، وقلت : « قام زيد وعمرو قاعد » [1]

انتهى كلام القزويني

ومن تناسب الجملتين فى الاسمية

أعز مكان في الدنا سرج سابح وخـــير جليس فى الزمان كتاب

ومن تناسبهما فى المضى

أعطيت حتى تركت الريح حاسرة وجدت حتى كأن الغيث لم يجد

ومن تناسبهما فى المضارعة

نــروح ونغــدو لحاجــاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى

ومن تناسبهما فى الأمر قول الشاعر

فكل إن أكلت وأطعم أخــا ك فــلا الزاد يبقى ولا الآكل

وقول الآخر

سافر تجد عوضــاً عمن تفارقه وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب

ومن اختلاف الجملتين فى الاسمية والفعلية ، للدلالة على الثبوت والتجدد ، قول الله تعالى: « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خيراً لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين » ، وقوله تعالى « أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين » صدق الله العظيم.

* * *

---

(١) بغية الإيضاح - جـ ٢ ص ١١٦

الإيجاز والإطناب والمساواة

لما كان الإيجاز والإطناب والمساواة من الأمور النسبية التى يتوقف تصورها على تصور أمر آخر تضاف إليه وتقاس عليه ، جعل السكاكى ذلك الأمر (متعارف الأوساط) أى أوساط الناس ، وهم الذين يأتى كلامهم صحيح الإعراب لكنه لا يرتفع إلى البلاغة ، ولا ينحط إلى الفهاهة ، وعرف الإيجاز ـ لهذا ـ بأنه أداء المعنى المقصود بأقل من عبارات متعارف الأوساط ، وعرف الإطناب بأنه أداؤه بأكثر من عباراته .

ولم يرتض الجرجانى ولا القزوينى هذا المقياس ، وارتضيا أن يكون المعنى المقصود نفسه هو الأمر المقيس عليه .

فإن كانت العبارة وافية بأدائه وهى أقل منه فهى الإيجاز .

وإن كانت أكثر على وجه التطويل والحشو فهى الإطناب وإن كانت مثله فهى المساواة[1] .

وما ذهبا إليه هو الحق ، فمصطلحات الإيجاز والإطناب والمساواة لا تُفهم دون التنظير بين حجم الكلام ومعناه .

فإن كان الكلام مساوياً لمعناه هكذا
فهو مساواة .

{ ______________ خط المعانى
{ ______________ خط الألفاظ

وإن كان أقل من معناه هكذا
فهو إيجاز

{ ______________ خط المعانى
{ _________ خط الألفاظ

وإن كان أكثر من معناه هكذا

{ _________ خط المعانى
{ ______________ خط الألفاظ

ننظر :

فإن كانت زيادة الألفاظ على المعانى لفائدة فهو الإطناب .

وإن كانت زيادة الألفاظ على المعانى لغير فائدة وغير متعينة فهو التطويل .

وإن كانت زيادة الألفاظ على المعانى لغير فائدة ومتعينة فهو الحشو .

والخلاصة أن حجم الكلام بالنظر إلى معناه تتعاقب عليه مصطلحات المساواة والإيجاز والإطناب والتطويل والحشو .

---

(١) المفتاح ص ١٥٠ وبغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٣٢ والإشارات والتنبيهات ص ١٤٢ .

المساواة

جعلها الجرجانى آخر الباب ، وعرفها بأنها الكلام الذى لا يحتاج إلى زيادة لفظ ، ولو حذف شئ من لفظه اختل معناه [1] .

والمراد بها عند القزوينى أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عنه بحذف أو غيره ولا زائداً عليه بنحو تكرير أو تتميم أو اعتراض [2] .

والمساواة هى الأصل المقيس عليه عند السكاكى ؛ لأنها متعارف الأوساط الذى قال به وجعلها نصب عينه وهو يعرف الإيجاز والإطناب .

ومن أمثلتها قول الله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » .

وقوله تعالى : « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » .

وقوله تعالى : « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » .

وقول الرسول ﷺ : « الحلال بين والحرام بين ، وبين ذلك مشتبهات » .

وقول زهير :

ومهما يكن عند امرئ من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وقول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقول الحكيم :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا ... أصبت حليماً أو أصابك جاهل

وقوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننا ... إن الجمال جمال العلم والأدب

---

(١) الإشارات ص ١٦٦ .

(٢) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٣٤ .

الإيجاز

الإيجاز على ضربين : إيجاز قِصَر ، وإيجاز حذف

الضرب الأول : إيجاز القِصَر :

وهو التعبير عن المعنى المراد بلفظ أقل منه مع الوفاء به .

فإن لم يف به كان إخلالاً لا إيجازاً .

ومن الإخلال قول عروة بن الورد :

عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أعذرا

أراد يقتلون نفوسهم فى السلم فأخل .

وقول الحارث بن حلزة :

والعيش خير فى ظلا ل النوك ممن عاش كدا

أراد أن العيش الطيب فى ظلال الحمق خير من العيش الخشن فى ظلال العقل فأخلَّ .

وأمثلة إيجاز القصر كثيرة منها :

« ولكم في القصاص حياة » ، « ألا له الخلق والأمر » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « إنما الأعمال بالنيات » ، « الضعيف أمير الركب » ، « مطل الغنى ظلم » ، « خير عادة ألا تكون للمرء عادة » ، « الأسلوب هو الشخص » ، « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » .

ومن إيجاز القصر أن النبى ﷺ سئل عن جمال المرأة فيم يكون ؟

فأجاب : « فى لسانها » ، ومنه ما كتبه عمرو بن مسعدة إلى بعض العمال قال : « كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله » .

الضرب الثانى إيجاز الحذف :

يقول القزوينى : وهو ما يكون بحذفٍ .

ويقول الجرجانى : « هو حذف بعض متعلق الكلام للقرينة » [1] .

وتعريف الجرجانى أدق ، لنصه فيه على شرط الحذف وهو القرينة .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٤٤ والإشارات ص ١٤٨ .

ثم المحذوف :

إما حرف : كقول الله تعالى « ولم أك بغياً » أصله : ولم أكن ، وقوله تعالى « تالله تفتأ تذكر يوسف » أي لا تفتأ تذكر يوسف . وكقول عاصم المنقرى :

رأيت الخمر جامدة وفيها ... خصال تفسد الرجل الحليما

فلا والله أشربها حياتى ... ولا أسقى بها أبداً نديما

أراد : لا أشربها .

وقول امرئ القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعداً ... ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

أراد لا أبرح .

أو اسم مضاف :

نحو « وجاهدوا فى الله حق جهاده » أى فى سبيل الله .

أواسم مضاف إليه نحو « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر » أى بعشر ليال .

أو اسم موصوف : نحو ، أنا ابن جلا ، أى ابن رجل جلا .

أو اسم صفة : نحو « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » أي سفينة صالحة .

أو قسم : نحو : لأجتهدن . أى والله لأجتهدن .

أو جواب قسم : نحو ، « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم » إذ التقدير ، « ق والقرآن المجيد (لتبعثن) بل عجبوا » . ونحو « والفجر وليال عشر والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر » و . جواب القسم المحذوف هو : لتعذبن يا كفار مكة .

أو شرط :

نحو « اتبعونى يحببكم الله » أى فإن تتبعونى يحببكم الله .

أو جواب شرط :

وحذف جواب الشرط إما أن يكون لمجرد الإيجاز كقوله تعالى : « وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون » أى أعرضوا ، لقرينة قوله بعدها « إلا كانوا عنها معرضين »

وإما للدلالة على أنه شئ لا يحيط به الوصف قصداً إلى المبالغة حتى تذهب النفس فيه كل مذهب كقوله تعالى ، « ولو ترى إذ وقفوا على النار » .

وقوله تعالى ، « ولو ترى إذ وقفوا على ربهم » ، وقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم » إذ التقدير : لرأيت أمراً مهولا لا يحيط به الوصف .

أو اسم معطوف كقوله تعالى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل » .

التقدير : لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعده وقاتل .

بدليل قوله تعالى بعده : « أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » .

أو المسند :

نحو : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » أى خلقهن الله .

أو المسند إليه كقول حاتم :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

أى إذا حشرجت الروح يوماً

أو المفعول به - أو الجار والمجرور : وقد جمعهما معاً قول الشاعر :

ألمتْ فحييتْ ثم قامت فودعت   فلما تولت كادت النفس تزهق

أراد ألمت بنا فحيتنا ثم قامت عنا فودعتنا ، فلما تولت عنا كادت النفس منا أن تزهق .

أو جملة تامة :

نحو « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » أى فاختلفوا فبعث الله النبيين .

والجملة التامة المحذوفة قد تكون معللة بالمذكورة كقوله تعالى · « ليحق الله الحق ويبطل

الباطل » أى فعل ما فعل ليحق الحق ويبطل الباطل .

وكقول المتنبى :

أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

أى فساءنا .

وقد تكون علة للمذكورة كقول الله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم » أى فاقتتلتم فتاب عليكم .

أو أكثر من جملة :

كقول الله تعالى فى سورة يوسف : « أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ... يوسف أيها الصديق أفتنا » إذ التقدير : فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا فأرسلوه فأتاه فقال : يوسف أيها الصديق .

وقوله تعالى فى قصة موسى مع ابنتى شعيب « فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير .. فجاءته إحداهما تمشى على استحياء » .

التقدير : عادت الفتاتان مبكرتين خلافاً لعادتهما كل يوم فاستفسر منهما والدهما عن سبب ذلك فقصتا عليه قصة الغريب معهما وسقيه لهما واقترحت عليه إحداهما أن يدعوه ليجزيه أجر ما سقى لهما فوافق شعيب وأرسلها فى طلبه فمثلت بين يديه وقالت :

« إن أبى ... » .

وقوله تعالى فى قصة سليمان والهدهد وبلقيس ملكة سبأ : « اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون * قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم » التقدير : فذهب بالكتاب وألقاه إلى بلقيس فلما قرأته قالت : « يأيها الملأ ... » .

والحذف على وجهين :

أحدهما : ألا يقام شئ مقام المحذوف اكتفاء بالقرينة الدالة عليه ، وجمهرة الأمثلة السابقة من هذا الوجه .

والثانى : أن يقام شئ مقامه يدل عليه كقوله تعالى : « فإن تولوا فقد أبلغتكم ما

أرسلت به إليكم » . ليس الإبلاغ هو الجواب لتقدمه على توليهم ، والتقدير : فإن تولوا فلا لوم على لأنى قد أبلغتكم ، أو فلا عذر لكم عند ربكم ، لأنى قد أبلغتكم ...

وقوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك » أى فلا تحزن واصبر فإنه قد كذبت رسل من قبلك ، وقوله تعالى : « وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين » أى فيصيبهم مثل ما أصاب الأولين (١) .

والحذف الذى لا يقام فيه شئ مقام المحذوف أدلة منها :

العقل ، والمقصود الأظهر ، والعادة ، والشروع فى الفعل ، والاقتران بالفعل .

وهذه الأدلة تعمل أكثر ما تعمل بشكل ثنائى كالآتى :

(١) أن يدل العقل على الحذف ، والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف كقوله تعالى : «حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ..» وقوله تعالى : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم .... » . فإن العقل يدل على الحذف لما هو مسلم به من أن التحريم يتعلق بالأفعال لا بالذوات .

والمقصود الأظهر يرشد إلى أن التقدير : حرم عليكم أكل الميتة وحرم عليكم نكاح أمهاتكم.

إذ الغرض الأظهر من هذه الأشياء تناولها ومن النساء نكاحهن .

(٢) أن يدل العقل على الحذف والتعيين معاً كقوله تعالى : « وجاء ربك » أى أمر ربك أو عذابه أو بأسه ، وقوله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » أي عذاب الله أو أمره (٢) .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٥١ .

(٢) قال الإمام أحمد بن حنبل قال الله تعالى : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام » فهل يجئ الله ؟!! إنما يجئ أمره . والمشهور عن أصحاب الإمام أحمد أنهم لا يتأولون الصفات التى من جنس الحركة كالمجئ والإتيان والنزول والهبوط والدنو والتدلى كما لا يتأولون غيرها متابعة السلف الصالح وكلام السلف الصالح فى هذا الباب يقتصر على إثبات المعنى المتنازع فيه أى دون الدخول فى شرحه أو كيفيته . وانظر (الاستقامة) لابن تيمية جـ ١ ص ٧٤ - ٧٦ . تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ط (١) سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٣) أن يدل العقل على الحذف ، والعادة على التعيين ، كقوله تعالى حكاية عن زليخا : « فذلكن الذى لمتننى فيه » .

دل العقل على الحذف ، لأنه لا معنى للوم فى ذات الشخص ، ولما بحثنا عن المحذوف ترددنا بين أن يكون :

(أ) (فى مراودته عن نفسه) بدليل : « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » ، وأن يكون :

(ب) (فى حبه) بدليل « قد شغفها حباً » ، وأن يكون .

(جـ) (فى شأنه) ليشمل الحب والمراودة جميعاً .

ودلتنا العادة على تعيين المراودة ، فالإنسان ـ عادة ـ لا يلام على حبه ، لأنه ليس من كسبه ، وإنما يلام على المراودة التى يقدر أن يدفعها عن نفسه .

(٤) أن يدل العقل على المحذوف ، والشروع فى الفعل على تعيينه كقول المؤمن عند الشروع فى أى فعل « بسم الله الرحمن الرحيم » أى باسم الله أقرأ أو أكتب أو آكل أو نحوه .

(٥) أن يدل العقل على المحذوف ، واقتران الكلام بالفعل على تعينه ، تقول لمن أعرس : بالرفاء والبنين ، فيكون التقدير : بالرفاء والبنين أعرست .

(٦) أن تدل العادة على الحذف والتعيين جميعاً ، كقول الله تعالى : « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » قالوا ذلك مع أنهم كانوا أخبر الناس بالحرب ، فلابد من تقدير الحذف ، وتعيين المحذوف وهو هنا مكان القتال .

والمعنى أنكم تقاتلون فى موضع لا يصلح للقتال ، ويخشى عليكم منه ، ودليل ذلك أنهم كانوا قد أشاروا على رسول الله ﷺ بالبقاء فى المدينة والتحصن بها [١] .

* * *

ومن لطائف الإيجاز وطرائفه أن شمس الدين النواجى قد أطلق على إيجاز الحذف اسم (الاكتفاء) وألف فيه كتاباً سماه (الشفاء فى بديع الاكتفاء) وهو مطبوع بتحقيق الدكتور محمد أبو ناجى بيروت د . ت .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٥١ – ١٥٢ .

وقد أسرف النواجي على نفسه وعلينا وعلى الواقع البلاغي وهو يفتعل تفرقة لا تقوم بين (إيجاز الحذف) و (الاكتفاء) هي :

إن الاكتفاء ما دُلَّ على الحذف فيه بدلالة لفظية ، أما الإيجاز ، فما دُلَّ عليه فيه بدلالة لفظية أو عقلية .

ورتب على ذلك أن كل ما صح أن يكون شاهداً للاكتفاء . صح أن يكون شاهداً للإيجاز من غير عكس .

ومن أمثلة الاكتفاء عنده قول الشاعر :

ما أحسن الصبر وأما على ألا أرى وجهك يوما فلا

أي فلا يحسن .

وقوله تعالى : « سرابيل تقيكم الحر » قال أهل المعاني : أراد الحر والبرد لكنه اكتفى بذكر أحدهما لدلالة الكلام على الآخر .

ومن يدري فقد تكون كلمة (اكتفى) في قول أهل المعاني هي التي دعت النواجي إلى أن يعطي لإيجاز الحذف مصطلحاً جديداً هو الاكتفاء [1] . ولولا أن الزمن قد سبق بـ (إيجاز الحذف) لفضلنا مصطلح النواجي عليه ، إن لم يكن اختصاراً وطرافة فعصبية نواجية ، وقبل النواجي عبر السكاكي عن الإيجاز والإطناب بـ (طي الجمل ، ولا طيها) [2]

زيادة الألفاظ على المعاني

سبق القول بأن هذه الزيادة تشمل ثلاثة أنواع هي التطويل والحشو والإطناب ، لأن هذه الزيادة إما أن تكون لفائدة ، وإما أن تكون لغير فائدة ، فإن كانت لفائدة فهي الإطناب وسيأتي .

وإن لم تكن لفائدة ، ولم تكن متعينة فهي التطويل .

مثل : نزلت بصديقي فوجدت منه كل خير وفضل ، والتطويل منحصر في (خير وفضل)، فإن معناهما واحد ، ولأن معناهما واحد ، فإن واحدة منهما زائدة دون فائدة ، ولو اخترنا بينهما لاحترنا لأن الزيادة غير متعينة .

---

(١) الشفاء في بديع الاكتفاء ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) المفتاح ص ١٣٣ ـ والنواجي نسبة إلى (نواج) مركز طنطا غربية وهي قريتي التي ولدت ونشأت بها ومن سراتها آل قلقيلة .

وكقول عنترة :

حييت من طلل تقادم عهده   أقــوى وأقفر بعد أم الهيثم

الشاهد فى (أقوى وأقفر) فهما كخير وفضل .

وكقول الآخر :

ألا حبذا هند وأرض بها هنــد   وهند أتى من دونها النأى والبعد

والشاهد فى (النأى والبعد) فهما كأقوى وأقفر .

وقول عدى بن زيد العبادى فى جذيمة الأبرش لما خدعته الزباء وصرعته :

وقددت الأديم لراهشيه   وألفى قولها كذباً وميناً

والشاهد في (كذباً وميناً) فهما كالنأى والبعد .

(قددت : قطعت ، والأديم ، الجلد ، والراهشان : عرقان فى باطن الذراع إذا فصد الإنسان منهما مات لتوه) .

وإذا كانت الزيادة لغير فائدة ومتعينــة فإنها تسمى حشــواً

وهو نوعان :

حشو مفسد للمعنى ، وحشو غير مفسد له .

مثال الحشو المفسد للمعنى قول المتنبي :

ولا فضل فيها للشجاعة والندى   وصـــبر الفتــى لولا لقــاء شعوب

يقول القزويني :

فإن لفظ (الندى) فيه حشو مفسد للمعنى ، لأن المعنى أنه لا فضل فى الدنيا للشجاعة والصبر والندى لولا الموت ، وهذا الحكم صحيح فى (الشجاعة) وفى الصبر دون (الندى) لأن الشجاع لو علم أنه يخلد فى الدنيا لم يخش الهلاك فى الإقدام فلم يكن لشجاعته فضل ، بخلاف الباذل ماله ، فإنه إذا علم أنه يموت هان عليه بذله ، فلو علم أنه يخلد ثم جاد بماله ، كان جوده أفضل ، فالشجاعة لولا الموت لم تحمد والندى بالضد .

ومثال الحشو غير المفسد للمعنى قول أبى العيال الهذلى :

ذكرت أخى فعاودنى صداع الرأس والوصب

فإن لفظ (الرأس) فيه ، حشو غير مفسد للمعنى ، وقول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم مافى غد عم

فإن قوله (قبله) مستغنى عنه غيرُ مفسد .

وقول أبى عدى عبد الله بن عمر بن عبد الله العبلى :

نحن الرؤوس وما الرؤوس إذا سمت فى المجد للأقوام كالأذناب

فإن قوله (« للأقوام ») حشو لا فائدة فيه مع أنه غير مفسد (١) .

* * *

انتهى كلام القزوينى ، وقد رووا عن بدر الدين بن مالك قوله :

يكثر الحشو بلفظ (أصبح) و (أمسى) و (عدا) و (ألا) و (قد) و (اليوم) و (لعمرى) و (يا صاحبى) قال أبو تمام :

أقروا (لعمرى) بحكم السيو ف وكانت أحق بفصل القضا

وقال البحترى :

ما أحسن الأيام إلا أنها (يا صاحبىَّ) إذا مضت لم ترجع (٢)

ويظهر أن بدر الدين لم يكن يقصد الحشو بالمعنى الذى شرحناه هنا ، بل كان يقصد ما يمكن أن نسقطه من الكلام دون أن نخل بالمعنى الأصلى ولو أننا التمسنا دلالات للكلمات التى ذكرها لوجدنا أنها تؤدى وظائف ذهنية وشعورية ، وأن الكلام بها أحسن منه بدونها والله أعلم .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٢) علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغى ص ١٧٤ طبعة دار القلم لبنان ط (١) . ١٩٨٠ .

الإطناب

تكرر القول بأنه زيادة اللفظ على المعنى لفائدة .

ومن وجهة نظر السكاكي : هو تأدية المعنى بعبارة زائدة على متعارف الأوساط لأغراض يسعى الأديب الأريب إلى تحقيقها .

والإطناب أنواع كثيرة منها :

١ - الإيضاح بعد الإبهام :

وأسرار بلاغته تتردد بين أن تكون :

(أ) رؤية المعنى المقصود التعبير عنه فى صورتين مختلفتين ، بمجيئه لابسا كسوتين : كسوة الغموض والإبهام ، وكسوة الوضوح والبيان.

وهذا يؤدى إلى تمكنه فى النفس ؛ فإن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا أُلقِيَ كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم .

(ب) حصول المتعة الكاملة بإدراكه على مرحلتين : فإن الشئ إذا حصل كمال العلم به دفعة واحدة ؛ لم يتقدم حصول اللذة به ألم ، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول ، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة ، وبسبب حرمانها من الباقى ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى ، واللذة عقب الألم أقوى من اللذة التى لم يتقدمها ألم .

(جـ) تفخيم الأمر وتعظيمه :

كقول الله تعالى : « وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين » .

ففى إبهام الأمر أولاً ، وتوضيحه ثانياً تفخيم له أى تفخيم .

وقوله تعالى : « رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى » .

فإن قوله : « اشرح لى » يفيد طلب الشرح لشئ ما ، وقوله : (صدرى) يفيد تفسيره ومثله « ويسر لى أمرى » .

ومن الإطناب بالإيضاح بعد الإبهام باب : نعم وبئس

على قول من يجعل المخصوص خبراً لمبتدأ محذوف ، أو يجعله مبتدأ حُذف خبره لدلالة ما قبله عليه .

أما على قول من يجعله مبتدأ والجملة قبله خبره فلا يكون من الإيضاح بعد الإبهام لأن المخصوص من وجهة نظر أصحاب هذا القول مقدم فى التقدير .

تقول : نعم الرجل محمد أو نعم رجلاً محمد

وبئس الرجل مسيلمة أو بئس رجلاً مسيلمة

وتقول : نعم خلق المرء الإخلاص ، وبئس خلق المرء النفاق .

ووجه حسنه سوى الإيضاح بعد الإبهام أمران :

أحدهما : إبراز الكلام فى معرض الاعتدال نظراً إلى إطنابه بالإيضاح بعد الإبهام ، وإلى إيجازه بحذف المبتدأ .

والثانى : هو إيهام الجمع بين المتناقضين وهما الإطناب والإيجاز .

* * *

وأيضاً من الإطناب بالإيضاح بعد الإبهام :

التوشيع

وهو أن يؤتى فى الكلام بمثنى مفسر باثنين أو بجمع مفسر بثلاثة .

فمن الأول : هذه الأقوال لرسول الله ﷺ .

منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال .

خصلتان لا تجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق .

يشيب ابن آدم وتشب معه خصلتان : الحرص وطول الأمل .

الخمر من هاتين الشجرتين : النخلة والعنب .

وقولهم ، العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان .

وقول ابن الرومى :

إذا أبو قاسم جادت لنا يده لم يحمد الأجودان : البحر والمطر
وإن أضاءت لنا أنوار غرته تضاءل النيران : الشمس والقمر

وقول ابن المعتز :

سقتنى فى ليل شبيه بشعرها　　شبيهة خديها بغير رقيب

فمازلت فى ليلين ، شعر وظلمة　　وشمسين من خمر ووجه حبيب

وقول البحترى :

لما مشين بذى الأراك تشابهت　　أعطاف قضبان به وقدود

فى حلتى حبر وروض فالتقى　　وشيان ، وشى ربى ووشى برود

وسفرن فامتلأت عيون راقها　　وردان ، وردجنى وورد خدود

وقول شوقى :

بأيديهم نوران ، ذكر وسنة　　فما بالهم فى حالك الظلمات

وقول محمود حسن إسماعيل :

نوران نور هدى ونور تبسم　　سطعا فراح الشعر يسطع من فمى

ومن الثانى قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها　　شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

وقول غانم المالقى :

ثلاثة يجهل مقدارها　　الأمن والصحة والقوت

وقول الآخر :

ثلاثة تنفى عن المرء الحزن　　الماء والخضرة والوجه الحسن

(٢) ذكر الخاص بعد العام :

للتنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام ، تنزيلاً للتغاير فى الوصف منزلة التغاير فى الذات كقوله تعالى : « من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال » .

وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر » وقوله تعالى : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » .

(٣) ذكر العام بعد الخاص :

لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص بذكره مرتين : مرة وحده ، ومرة ضمن العام

كقوله تعالى: « رب اغفرلي ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات » وقوله تعالى . « إن صلاتى ونسكى ... » .

فالنسك العبادة وهى أعم من الصلاة ، وقوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » وقوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » (١) .

(٤) **التكرار**: وهو ذكر الشئ أكثر من مرة لداع بلاغى .

أ ـ كتاكيد الإنذار فى قوله تعالى : « كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون » .

ب ـ وكزيادة التنبيه على ما ينفى التهمة ليكمل تلقى الكلام بالقبول فى قولـه تعـالى : « وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع »

جـ ـ وكالتلذذ بذكر المكرر فى بيت مروان بن أبى حفصة :

سقى الله نجداً والسلام على نجد ويا حبذا نجد على القرب والبعد

وفى الشاهد النحوى :

سعاد التى أضناك حب سعادا

د ـ وكإظهار التحسر فى قول الحسن بن مطر يرثى معن بن زائدة :

فيا قبر معن أنت أول حفـرة من الأرض خطت للسماحة موضعاً
ويا قبر معن كيف واريت جـوده وقـد كان منه البر والبحر مترعا

هـ ـ وكالدلالة على الاستيعاب فى قولك : عرفت الرياض حيا حيا ، وشارعاً شارعاً ، وقرأت الكتاب باباً باباً وفصلاً فصلاً .

و ـ ومن دواعى التكرار كذلك طول الفصل بين ركنى الجملة فى قول الله تعالى :

« ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

وفى قوله تعالى : « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ، إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ ص ٤٧١ .

ز ـ وقد يكون التكرار لتعدد المتعلق تعظيماً لشأنه كالذى نجده فى سورة الرحمن من تكرار آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وكقولهم ، « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة »[1] .

(٥) الإيغال:

والإيغال فى اللغة المبالغة ، تقول أوغل فى الأمر إذا أمعن فيه وبالغ ، أما فى الاصطلاح البلاغى ، فقد عرفه القزوينى بأنه ختم البيت بما فيه نكتة يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة فى قول الخنساء :

وإن صخراً لتأتم الهداة به　　كأنه علم فى رأسه نار

لم ترض أن تشبهه بالعلم الذى هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية ، حتى جعلت فى رأسه ناراً .

وفى قول ذى الرمة :

قف العيس فى أطلال مكة واسأل　　رسوماً كأخلاق الرداء المسلسل

أظن الذى يجدى عليك سؤالها　　دموعاً كتبذير الجمان المفصل

العيس : الإبل يخالط بياضها سواد خفيف جمع أعْيَس ، والأخلاق : جمع خَلَق وهو البالى ، والمسلسل : الردئ النسج ، والتبذير : التفريق ، أما الجمان المفصل فهو اللؤلؤ المنظوم .

وزيادة المبالغة فى البيتين تمت بالوصفين (المسلسل) و (والمفصل) .

وكزيادة المبالغة فى الإيغال :

تحقيق التشبيه

وهو إظهار التساوى بين الطرفين فى وجه الشبه كقول امرئ القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا　　وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

فإنه لما أتى على التشبيه قبل ذكر القافية ، واحتاج إليها جاء بزيادة حسنة فى قوله « لم يثقب » ، لأن الجزع إذا كان غير مثقوب كان أشبه بالعيون .

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧

ومثله قول زهير :

كأن فتات العهن فى كل منزل نزلن به حَبُّ القنا لم يحطم

فإن حب القنا أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فهو لا يشبه الصوف الأحمر إلا مالم يحطم، وكذا قول امرئ القيس :

حملت ردينياً كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان

* * *

ولما كان تعريف القزويني للإيغال في أول كلامه عنه نصاً أو كالنص على أنه خاص بالشعر ، فإنه لم يفادره حتى ذكر ما يدل على أنه كما يأتي في الشعر يأتي في النثر ، ومثل له في النثر بقول الله تعالى : « اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون » .

فقوله تعالى : « وهم مهتدون » إيغال ، لأن المعنى يتم بدونه ، إذ الرسل مهتدون لامحالة ، فذكر هدايتهم ـ والحالة هذه ـ تصريح بما علم التزاماً .

* * *

ومن الإيغال في النثر أيضاً قوله تعالى : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » .

فقد تم المعنى بقوله تعالى : « ومن أحسن من الله حكماً » وجاء قوله تعالى : « لقوم يوقنون » إيغالاً لإفادته معنى زائداً هو أنه لا يعلم أن حكم الله أحسن من كل حكم إلا من أيقن أنه سبحانه وتعالى حكيم عادل (١) .

(٦) التذييل:

التذييل تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها تقوية لها .

وهو ضربان :

(١) ضرب لا يجري مجرى المثل ، لأنه لا يستقل بمعناه ، بل يتوقف على ما قبله كقوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور » أي وهل نجازي الجزاء المذكور فيما قبل ، وهو إرسال سيل العرم وتبديل الجنتين ، إلا الكفور ، وكقول المتنبي :

تمسي الأماني صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي

وقول ابن نباتة :

لم يبق جودك لي شيئاً أؤمله تركتني أصحب الدنيا بلا أمل

---

(١) بديع القرآن ص ٧٢ .

وقد تم التذييل بالشطرة الثانية فى كل من البيتين .

(ب) **وضرب يجرى مجرى المثل** فى الاستقلال بنفسه وفى التمثل به كقوله تعالى: « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » ، فقوله تعالى « إن الباطل كان زهوقاً » تذييل جار مجرى المثل ، لتضمنه معنى كلياً قائماً بنفسه هو أن الباطل لا محالة زائل ، وقوله تعالى : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » . فـ « إن النفس لأمارة بالسوء » تذييل جار مجرى المثل .

وكقول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمــه على شعث أى الرجال المهذب

قوله « أى الرجال المهذب » تذييل يمكن التمثل به .

وقول الحطيئة :

تزور فتى يعطى على الحمد ماله ومن يعــط أثمــان المحامد يحمد

والشاهد فى الشطرة الثانية ، فهى تذييل جار مجرى المثل .

وقد اجتمع الضربان فى قول الله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت » .

فإن قوله تعالى : « أفئن مت فهم الخالدون » تذييل غير جار مجرى المثل .

وقوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت » تذييل جار مجرى المثل .

وتقسيم آخر للتذييل :

هو أنه إما أن يكون لتاكيد منطوق الجملة السابقة كقوله تعالى : « إن الباطل كان زهوقا» ، فهى مسبوقة بمنطوقها وهو« وزهق الباطل » .

وكقول الحطيئة : « ومن يعط أثمان المحامد يُحمد» فهو مسبوق بمنطوقه قبله وهو « يعطى على الحمد ماله » .

وإما لتاكيد مفهومها فقط ، وذلك كبيت النابغة ، فإن صدره قد دلَّ بمفهومه على نفى الكامل من الرجال ، وجاء عجزه فقرر ذلك وأكده (١) .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٥٩ – ١٦٠ .

٧ – التكميل ويسمى الاحتراس أيضاً :

وهو أن يؤتى فى كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه .

وقد فرق الجرجانى بينه وبين التذييل بأن الكلام الثانى فى التكميل لا يكون بمعنى الأول بخلاف التذييل (١) .

والتكميل ضربان :

ضرب يتوسط الكلام كقول طرفة :

فسقى ديارك (غير مفسدها) صـوب الربيـع وديمـة تهمـى

فإن قوله (فسقى ديارك) كما يحتمل أن يكون على وجه الإصلاح ، يحتمل أن يكون على وجه الإفساد ، وقد أزال الشاعر الاحتمال غير المقصود بقوله (غير مفسدها) ، وكقول ابن المعتز :

صببنا عليها (ظالمين) سياطنا فطـارت بها أيـدٍ سراع وأرجل

والاحتراس هنا فى قوله (ظالمين) فقد دفع به توهم أن فرسه بليدة تستحق الضرب .

وضرب يأتى فى آخر الكلام :

كقول الله تعالى : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ، فإنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة على المؤمنين لتوهم أن ذلتهم لضعفهم ، فلما قيل « أعزة على الكافرين » علم أنها منهم تواضع لهم .

وكذا قول الحماسى :

رهنت يدى بالعجز عن شكر بـره وما فـوق شكـرى للشكـور مزيد

الاحتراس هو الشطرة الثانية ، فقد دفع بها ما توهمه الشطرة الأولى من عجزه عن شكر من أبَرَّه .

وقول كعب بن سعد الغنوى :

حليم إذا ما الحلـم زيَّن أهله مـع الحلـم فى عيـن العدو مهيب

---

(١) الإشارات ص ١٦١ .

فإنه لو اقتصر على وصف ممدوحه بالحلم لأوهم أن حلمه عن عجز ، فلم يكن صفة مدح ولما قال : « إذا ما الحلم زين أهله » أزال هذا الوهم ، أما بقية البيت فتأكيد للازم ما يفهم من الاحتراس كما قال القزوينى [1] .

وقول السموءل بن عادياء :

وما مات منا سيد فى فراشه ولا طل منا حيث كان قتيل

فإنه لو اقتصر على وصف قومه بشمول القتل إياهم لأوهم أن ذلك لضعفهم وقلتهم ، فأزال هذا الوهم بقوله : « ولا طل منا حيث كان قتيل » يقصد أنه لم يمض قتيل لهم دون ثأر .

وقول المتنبى :

أشد من الرياح الهوج بطشا وأسرع فى الندى منها هبوبا

فإنه لو اقتصر على وصفه بشدة البطش لأوهم أنه عنف كله ، فأزال هذا الوهم بالشطرة الثانية .

٨ – التتميم:

وهو أن يُؤتى فى كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة ، كالمبالغة فى قول الله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً » أى مع حبه لحاجتهم إليه واشتهائهم له .

ونحوه « وآتى المال على حبه » ، « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » « حتى تنفقوا » أى حتى يقع منكم إنفاق ، و« مما تحبون » تتميم .

ومن التتميم قول زهير فى مدح هرم بن سنان :

من يلق يوماً على علاته هرماً يلق السماحة منه والندى خلقا

فقوله (على علاته) أى فى جميع أحواله ، تتميم .

٩ – الاعتراض:

وهو أن يُؤتى فى أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنىً بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لفائدة سوى دفع الإيهام .

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٦٣ .

(أ) كالتنزيه فى قوله تعالى : « ويجعلون لله البنات ـ سبحانه ـ ولهم ما يشتهون » .

(ب) وكالدعاء فى قول المتنبى :

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب يرى كل ما فيها ـ وحاشاك ـ فانيا

يقول القزوينى فإن قوله (وحاشاك) دعاء حسن فى موضعه، وعندى أنهاكسابقتها تنزيه. أما الدعاء فكقول عوف بن محلم الشيبانى:

إن الثمانين ـ وبلغتها ـ قد أحوجتْ سمعى إلى ترجمان

(جـ) وكالتنبيه فى قول الشاعر :

واعلم (فعلم المرء ينفعه) أن سوف يأتى كل ما قدرا

فـ (علم المرء ينفعه) جملة اعتراضية قصد بها تنبيه المخاطب إلى أن ما مرَّ به نافع له.

(د) وكتخصيص أحد المذكورين بزيادة التأكيد فى أمر متعلق بهما كقوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه (حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين) أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير » .

والشاهد فى (حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين) والاعتراض فيه بجملتين : فعلية واسمية .

(هـ) وكالمطابقة مع الاستعطاف فى قول المتنبى :

وخفوق قلب لو رأيت لهيبه يا جنتى لرأيت فيه جهنما

الشاهد فيه (يا جنتى) ، فهى مسبوقة باللهيب ، وملحوقة بجهنم وهذا هو الطباق ، ثم إن مناداته حبيبه بـ (يا جنتى) استعطاف رقيق .

(و) وكالتنبيه على سبب أمر فيه غرابة كقول ابن ميادة :

فلا هجره يبدو (وفى اليأس راحة) ولا وصله يبدو لنا فنكارمه

فإن قوله : (فلا هجره يبدو) يشعر بأن هجر الحبيب أحد مطلوبيه : ولما كان من الغريب طلب هجر الحبيب قال : « وفى اليأس راحة » لينبه على سببه .

(ز) وكالمبادرة إلى اللوم فى قول كثير عزة :

لو ان الباخلين ــ وأنت منهم ــ رأوك تعلمــوا منــك المطــالا

عجل بالاعتراض تعبيراً عن ضيقه بها ، وإسراعاً منه إلى لومها .

(ح) وكالتعظيم فى قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم » .

قوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) اعتراضـان : أحدهمـا (وإنه لقسـم عظيم) والآخر (لو تعلمون) هو اعتراض داخل اعتراض ، وغرضه مزدوج فشق لتعظيم المقسوم به وهو مواقع النجوم ، وشق لتعظيم المقسوم عليه وهو القرآن الكريم .

(ط) وكالتحسر فى قول إبراهيم بن المهدى يرثى ابنه :

وانى ــ وإن قُدمتَ قبلى ــ لعالم بأنــى ــ وإن أُخرتُ منك ــ قريب

ففى البيت إطناب بالاعتراض فى كلٍّ من شطريه .

والغرض الذى قصد الشاعر إليه إنما هو إظهار الأسى والتحسر على أن الموت قد سبق إلى ابنه .

* * *

ومن الاعتراض بجملتين بين كلامين متصلين معنى قوله تعالى : « وأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين * نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم ... » .

فأولاً : قد تم الاعتراض بجملتين هما (إن الله يحب التوابين) ، (ويحب المتطهرين) .

وثانياً : « نساؤكم حرث لكم » بيان لقوله : « فأتوهن من حيث أمركم الله » يعنى أن المأتى الذى أمركم الله به هو مكان الحرث ، دلالة على أن الغرض الأصلى من الإتيان هو طلب النسل لاقضاء الشهوة ، وإذاً فلا تأتوهن إلا من حيث يتحقق هذا الغرض .

ومثله فى كون الاعتراض بجملتين قول الله تعالى : « قالت : رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى . وإنى سميتها مريم » .

فإن قوله : « والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى » ليس من قول أم مريم .

* * *

أما بعد : فتسعة الأنواع السابقة ليست كل الإطناب .

وها هو ذا القزوينى يسوق نماذج أخرى له كقولهم : رأيته بعينى وسمعته بأذنى . وكقول البحترى :

تأمل من خلال السجف وانظر بعينك ما شربت ومن سقانى
تجد شمس الضحى تدنو بشمس إلىَّ من الرحيق الخسروانى

ومنه قول الله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم » أى هذا الإفك ليس إلا قولا يجرى على ألسنتكم ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم فى القلب كما هو شأن المعلوم إذا ترجم عنه اللسان .

وقوله تعالى : « تلك عشرة كاملة » بعد قوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم » إطناب فائدته أن يعلم العدد جملة كما علم تفصيلاً ، ليحاط به من جهتين فيتأكد العلم به ، فى أمثال العرب « علمان خير من علم » وقوله (كاملة) تاكيد آخر .

وقيل أريد به تأكيد الكيفية لا الكمية ، حتى لو وقع صوم العشرة على غير الوجه المذكور وهو أن يكون ثلاثة منها فى الحج وسبعة عند الرجوع لم تكن كاملة [1] .

ومقياس آخر للإيجاز والإطناب :

ختم القزوينى علم المعانى به وهو أنه قد يوصف الكلام بالإطناب أو بالإيجاز باعتبار كثرة حروفه أو قلتها بالنسبة إلى كلام آخر مساو له فى أصل المعنى كالشطر الأول من قول أبى تمام :

يصد عن الدنيا إذا عنَّ سؤدد ولو برزت فى زى عذراء ناهد

وقول المعذَّل بن غيلان ـ وقيل إنه لأبى سعيد المخزومى ـ :

ولست بنظار إلى جانب الغنى إذا كانت العلياء فى جانب الفقر

ومنه قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠ .

وقول بشر بن أبى خازم :

إذا ما المكرمات رفعن يوما　　وقصَّر مبتغوها عن مداها

وضاقت أذرع المثرين عنها　　سما أوس إليها فاحتواها

ويقرب من هذا الباب قوله تعالى : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

وقول السموءل بن عادياء :

وننكر إن شئنا على الناس قولهم　　ولا ينكرون القول حين نقول

وكذا ما ورد فى الحديث « الحزم سوء الظن » وقول العرب (الثقة بكل أحد عجز)[1] .

---

(١) بغية الإيضاح جـ ٢ ص ١٧١ - ١٧٢ .

« ٣ »

علم البديع

علم البديع

علم البديع فى اصطلاح البلاغيين قدماء ومحدثين هو العلم الذى يعرف الأديب به وجوه تحسين كلامه بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال ، ورعاية وضوح الدلالة على ما يريد التعبير عنه .

وهذه الرعاية المزدوجة تعنى فى شقها الأول علم المعانى ، وفى شقها الثانى علم البيان .

فوجوه تحسين الكلام لا تجئ قبلهما ولا بدونهما ، وإلا كانت كتعليق الدر فى أعناق الخنازير ـ على حد قول المغربى ـ [1] .

وهذا هو السبب فى أن النفر الذين قصدوا من الخوض فى البلاغة ، ومن التلبس بها بيان إعجاز القرآن من جهتها ـ كعبد القاهر والزمخشرى والرازى ـ قد جعلوا علم البديع تابعاً لعلمى المعانى والبيان .

وسر التبعية أنه لا يكون بنية قائمة بنفسها فى الهيكل العام للنظم القرآنى ، كما أنه هو السبب فى أن إلمامه به قد جاء جزئياً لا كلياً ، واستطراداً لا تأسيساً .

أما من تكلموا فى البلاغة لذاتها وهم الأكثرية العظمى من رجالها ـ كابن المعتز وقدامة والعسكرى وابن رشيق وابن سنان وابن منقذ والتيفاشى وابن أبى الإصبع ـ فقد تناولوا البديع تناولاً مسهباً واستكثروا منه حتى أضجروا به .

* * *

ونذكر بما قلناه فى صدر هذه الدراسة من أن (البديع) ـ شأنه فى ذلك شأن (البيان) ـ كان يطلق ويراد به علوم البلاغة الثلاثة ، ومن أنه كان كذلك حتى فى البديعيات [2] لكنه

(١) مواهب الفتاح جـ ٣ ص ٣ . الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢هـ .

(٢) المشهور أن البديعيات قصائد فى مدح الرسول ﷺ من بحر البسيط وعلى قافية الميم المكسورة ، وكل بيت من البديعية مثال للون بلاغى أو أكثر دون التورية باسمه أو بها ، وقد صارت [البديعية] مصطلحاً علمياً وفنياً . أما (علمياً) فلما فيها من علوم البلاغة الثلاثة تحت اسم البديع . وأما (فنياً) فلما فيها من خصائص فن المدح بعامة ، وفن مدح الرسول ﷺ بخاصة . وانظر : أنوار الربيع فى أنواع البديع للسيد على صدر الدين بن معصوم المدنى جـ ١ ص ٣١ - ٣٢ بتحقيق شاكر هادى شكر . الطبعة الأولى . النجف الأشرف ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨م ، والصبغ البديعى للدكتور أحمد موسى ص ٢٧٠ وما بعدها القاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩م ، وخط سير الأدب العربى للدكتور عبده قلقيلة ص ٤٣٠ - ٤٣٣ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٧ م .

قبل البديعيات وبعدها قد استأثر بالدراسة المستقلة وعرفت وجوهه باسم (المحسنات البديعية) .

وهذه المحسنات نوعان :

(١) محسنات معنوية:

وهى التى يكون التحسين بها راجعاً إلى المعنى قصداً وإلى اللفظ عرضاً لأنه كلما أفيد باللفظ معنى حسن ، تبعه حسن اللفظ الدال عليه ، كالطباق بين (يسر) و (يعلن) فى قول الله تعالى « يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

والعلامة المميزة لهذا النوع أننا لو عدلنا عن اللفظ فيه إلى ما يرادفه ، فقلنا مثلاً « يعلم ما يخفون وما يعلنون » بقى المحسن المذكور وكأن لم يحصل تغيير .

(٢) محسنات لفظية:

وهى التي يكون التحسين بها راجعاً إلى اللفظ قصداً وإلى المعنى عرضاً : لأنه كلما عبر عن معنى بلفظ حسن ، استحسن معناه تبعاً ، وذلك كالجناس فى قول الله تعالى : « يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة » .

والعلامة المميزة لهذا النوع أننا لو عدلنا عن اللفظ فيه إلى ما يرادفه فقلنا مثلاً ، (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا إلا وقتاً قصيراً) أو (ويوم تقوم القيامة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) ؛ زال ذلك المحسن وكأنه لم يكن .

وسنبدأ بالمحسنات المعنوية ، لأن المقصود الأصلى للمتكلم إنما هو المعانى .

أما الألفاظ : فإنها أوعيتها ، وهى لذلك توابع لها يقال :

لولا المعانى ما احتجنا إلى الألفاظ ، ولا يقال : لولا الألفاظ ما احتجنا إلى المعانى .

إذ كلما توصل الإنسان إلى المعنى ألفى اللفظ وليس العكس [1] .

هذا ما قالوه . والحقيقة أننا نفكر باللغة ، وأن الفصل بين الألفاظ والمعانى فصل افتراضى هدفه بيان أوجه حسن كل منهما أو قبحه على حدة لنراعى ذلك فى إبداع الأدب ونقده تحلية وتخلية .

---

(١) انظر مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى جـ ٣ ص ٤ وعلوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغى ص ٢٩٦ الطبعة الأولى دار القلم بيروت ١٩٨٠ م .

المحسنات المعنوية

المطابقة - الطباق - التضاد :

ثلاثة مصطلحات لمسمى فرد هو الجمع فى الكلام الواحد بين الشئ الواحد وضده أو مقابله ظاهراً كان ذلك الجمع أو خفياً وبالإيجاب فى الطرفين أو فى أحدهما ، وسواء كان الطرفان حقيقيين أو مجازيين ، اسمين أو فعلين أو حرفين أو مختلفين .

فمن الطباق الظاهر بالإيجاب فى الطرفين الحقيقيين وهما اسماى:

قول الله تعالى : « وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود » وقوله تعالى : « يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى » وقوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور » وقوله تعالى : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » وقوله تعالى : « هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً » وقوله تعالى : « له الحمد فى الأولى والآخرة» .

وقوله ﷺ : « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة للكبر ، ومن الحياة للممات ، والذى نفسى بيده ما بعد الحياة من مستعتب ، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » وقوله عليه الصلاة والسلام « لعن الله بائع العرة ومشتريها »[1].

وقوله أيضاً : « أهل المعروف فى الدنيا أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا أهل المنكر فى الآخرة » .

وقول امرئ القيس :

مكر مفـر مقبـل مدبـر معـا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

وقول أبى الحسن التهامى :

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذاء والأكدار

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

وقول السموءل :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم ... فليس سواء عالم وجهول

* * *

---

(١) العرة : ما يغله الوصى مما تحت يده لليتيم قالت عائشة رضى الله عنها : « مال اليتيم عرة لا أدخله فى مالى ولا أخلطه به » .

ومن الطباق الظاهر بالإيجاب فى الطرفين الحقيقيين وهما فعل

قول الله تعالى : « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير » .

وقوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا »

وقول النبى ﷺ « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتصفح عمن شتمك » .

وقول الحصين المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم اجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وقول الفرزدق فى هجاء بنى كليب :

يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنام أعينهم عن الأوتار

وقول أبى صخر الهذلى :

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر

لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى أليفين منه لا يروعهما الذعر

وقول بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا فنبه لها عمراً ثم نم

ومن الطباق الظاهر بالإيجاب في الطرفين الحقيقيين وهما حرفان:

قول الله تعالى : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » وقوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وقول مجنون ليلى :

على أننى راض بأن أحمل الهوى وأخرج منه لا علىَّ ولا ليا

وقول الآخر :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

* * *

ومن الطباق الظاهر بالإيجاب والطرفان مجازيان :

قول الله تعالى : « أومن كان ميتاً فأحييناه » أى ضالاً فهديناه .

وقوله تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » .

وقول الشاعر

حلو الشمائل وهو مر باسل يحمى الذمار صبيحة الإرهاق

فقوله (حلو) و (مر) جار مجرى الاستعارة ؛ إذ ليس فى الإنسان ولا فى شمائله ما يدرك بحاسة الذوق .

وقول الآخر :

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب تحرك يقظان التراب ونائمه

الشاهد فى المطابقة بين (يقظان) و (نائم) فنسبتهما إلى التراب ليست حقيقية بل على سبيل الاستعارة المكنية .

وقدامة وابن أبى الإصبع يطلقان على الطباق بالطرفين المجازيين اسم (التكافؤ) أو (المتكافئ) [1] .

* * *

وقد ألحق البلاغيون بالطباق المجازى ما أسموه : إيهام الطباق .

وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين لكن عُبر عنهما بلفظين يتقابل معناهما الحقيقى .

ومما مثلوا له به قول دعبل :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

(ضحك المشيب برأسه) أى ظهر ظهوراً تاماً ، أما (فبكى) فهى (بكى) حقيقة ، ولما كان ظهور المشيب لا يقابل البكاء عبر عنه بالضحك الذى معناه الحقيقى مقابل للبكاء [2] .

ومن الطباق الخفى بالإيجاب :

قول الله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً » .

توضيح ذلك أن إدخال النار ليس ضد الإغراق فى المعنى ، ولكنه يستلزم ما يقابله وهو الإحراق ، وقوله تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » بيانه أن رحماء ليست ضداً فى المعنى لـ (أشداء) ولكن الرحمة تستلزم اللين المقابل للشدة .

* * *

---

(١) انظر نقد الشعر ص ٨٥ وتحرير التحبير ص ١١١ والتصوير البيانى ص ٣١٢

(٢) المختصر للتفتازانى جـ ٢ ص ٨ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ والإيضاح للقزوينى جـ ٦ ص ١٥

* تحقيق الدكتور خفاجى

ومن تحسين التحسين بالمطابقة ما سموه :

التدبيج

من دبج الماطر الأرض إذا زينها

والتدبيج هو اقتران المطابقة بلون بلاغي آخر من علم البيان أو من علم المعانى أو من علم البديع .

فمن تدبيج المطابقة بلون بلاغى من علم البيان هو الكناية .

قول أبى تمام فى رثاء محمد بن حميد :

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى لها الليل إلا وهى من سندس خضر

معنى البيت أن ثياب الشهيد التى تلطخت بدمه فصارت حمراء ، لم ينقض يوم قتله ، ولم تدخل ليلته إلا وقد صارت من الحرير الأخضر الذى هو لباس أهل الجنة . قابل الشاعر بين الحمرة والخضرة ، وهذا طباق لكنه دبجه بالكناية عن القتل بالحمرة ، وعن دخول الجنة بالخضرة ، وهذا من تحسين التحسين كما قلت .

* * *

ومن تدبيج المطابقة بلون بلاغى من علم المعانى هو الإيغال .

قول الفرزدق :

لعن الإله بنى كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار

« فإن غرضه وصفهم بالعجز ، ولذلك جمع بين المتقابلين ، وقد تم غرضه بنفى الغدر والوفاء عنهم بالإطلاق ، ولكنه كمله بقوله (لجار) وهو الإيغال »[1].

* * *

ومن تدبيج المطابقة بلون بلاغى من علم البديع هو التورية :

قول الحريرى :

« فمذ اغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر . اسود يومى الأبيض وابيض فودى الأسود ، حتى رق لى العدو الأزرق ، فيا حبذا الموت الأحمر » .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٢٦١ .

النص طباق ، والألوان كنايات عن صفات باستثناء (المحبوب الأصفر) فإنه تورية ، إذ له معنيان : قريب ظاهر غير مراد هو حبيبته الصفراء وبعيد خفى مراد هو الذهب .

* * *

يقول محمد الجرجاني « وقد تكون مع المطابقة المناسبة كقول ابن رشيق :

وقد أطفأوا شمس النهار وأوقدوا نجـــوم العـــوالى فى سمـــاء عجاج

ففيه مطابقة لتقابل (أطفأوا) و (أوقدوا) ، ومناسبة ، لتناسب الشمس والنجوم والسماء ، ولذلك جاء سحراً فى الحسن والبلاغة »[1] .

انتهى كلام الجرجانى .

والجمع فى الكلام بين مناسبة وطباق هكذا له مصطلح خاص به سماه هو **التفويف** قال : « وقد يركب الكلام من المطابقة والمناسبة فيختص باسم التفويف »[2].

أما المناسبة وحدها فها هو ذا يعرفها بقوله : « هى أن يجمع فى الكلام بين كلمات متناسبة كقوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان » فإن القمر يناسب الشمس ، والشجر يناسب النجم »[3] .

وأما الائتلاف والتوفيق والتناسب ومراعاة النظير :

فمن عجب بل من عبث أنها مصطلحات مترادفات أى مصطلحات ذات مدلول واحد هو أن يجمع الإنسان فى كلامه بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد .

كقول أسيد الفزارى :

كأن الثريـــا علقـــت فى جـــبينه وفى خـــده الشعرى وفى وجهه القمر

وكقول أبى القاسم الزاهى :

سفـــرن بدوراً وانتقبـــن أهلـــة ومِسْنَ غصونا والتفتن جاذرا

وكقول ابن رشيق :

أصح وأقوى ما سمعناه فى الندى عـــن الخبـــر المأثـــور منذ قديم

أحاديث ترويها السيول عن الحيا عـــن البحـــر عن كف الأمير تميم

---

(١) الإشارات ص ٢٦١ والعوالى : أعالى السيوف ، والعجاج : الغبار .

(٢) السابق نفسه ص ٢٦٦ .

(٣) السابق نفسه ص ٢٦٤ .

فإنه ناسب بين (الصحة) و (القوة) ، و (السماع) و (الخبر المأثور) و (الأحاديث) و (الرواية) ثم بين (السيل والحيا والبحر وكف تميم) مع ما فى البيت الثانى من صحة الترتيب فى العنعنة ، إذ جعل الرواية لصاغر عن كابر كما يقع فى سند الأحاديث ، فإن السيول أصلها المطر ، والمطر أصله البحر وقد جعل كف الممدوح أصلاً للبحر مبالغة [1] .

المقابلة

جعلها السكاكى والقزوينى شعبة من الطباق .

جاء فى الإيضاح : « ودخل فى المطابقة ما يخص باسم المقابلة : وهى أن يؤتى بمعنيين متوافقين ، أو معان متوافقة ثم يؤتى بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب » [2] .

وهى إما ثنائية :

كقول الله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً » وقوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » ، وقول النبى ﷺ : « إن الرفق لا يكون فى شئ إلا زانه ، والخرق لا يكون فى شئ إلا شانه » .

وقوله عليه السلام : « إن لله عباداً جعلهم مفاتيح الخير مغاليق الشر » .

وقوله ﷺ للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » .

وقول الإمام على كرم الله وجهه : « احذروا صولة الكريم إذا جاع واللئيم إذا شبع » ، وقول مسلمة بن عبد الملك : « الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة » .

وقول النابغة الجعدى :

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وقول البحترى :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريق الغيث أحياناً يباكيها

وقول المعرى :

يا دهر يا منجز إيعاده ... ومخلف المأمول من وعده

وقول الآخر :

فواعجبا كيف اتفقنا فناصح ... وفيٌّ ومطويٌّ على الغل غادر

فإن الغل ضد النصح ، والغدر ضد الوفاء .

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ٢٠ .

(٢) الإيضاح جـ ٦ ص ١٦ والمفتاح ص ١٧٩ .

أو ثلاثية :

كقول الله تعالى : « يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » وقول على رضى الله عنه : « إن الحق ثقيل وبىّ ، والباطل خفيف مرى » .

وقول أبى دلامة :

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وقول البحترى :

فإذا حاربوا أذلوا عزيزاً وإذا سالموا أعزوا ذليلا

وقول المتنبى :

فلا الجود يفنى المال والجد مقبل ولا البخل يبقى المال والجد مدبر

أو رباعية :

كقول الله تعالى : « فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى » .

يقول القزوينى : « فإن المراد باستغنى أنه زهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتق ، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة فلم يتق » ، وقد اقتصر الجرجانى على المعنى الثانى للفعل (استغنى) [1] .

وقول أبى بكر رضى الله عنه فى وصيته قبيل موته « هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها » .

فقد قابل (أول) بـ (آخر) و (الآخرة) بـ (الدنيا) و (داخلاً) بـ (خارجاً) و (فيها) بـ (منها) .

وقول الطغرائى :

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة البأس منه رقة الغزل

قابل الحلو والفكاهة بالمر والجد فى صدر البيت ، وقابل الشدة والبأس بالرقة والغزل فى عجزه .

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ١٨ والإشارات ص ٢٦٣ .

وقول جرير :

وباسط خير فيكم بيمينه   وقابض شرعنكم بشماله

قابل بين (باسط وقابض) و (خير وشر) و (فيكم وعنكم) و (بيمينه وبشماله) .

وقول أبى تمام :

يا أمة كان قبح الجور يسخطها   دهراً فأصبح حسن العدل يرضيها

قابل بين (كان وأصبح) و (قبح وحسن) و (الجور والعدل) و (يسخطها ويرضيها) .

وقول ابن حجة :

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً   ولّوا غضابا فوا حربى لغيظهم

قابل بين (قابلتهم وولوا) و (الرضى والغضب) و (السلم والحرب) و (الانشراح والغيظ) .

أو خماسية :

كقول صفى الدين الحلى :

كان الرضا بدنوى من خواطرهم   فصار سخطى لبعدى عن جوارهم

والمقابلة بين (كان وصار) و (الرضا والسخط) و (الدنو والبعد) و (من وعن) و (خواطرهم وجوارهم) .

وقول المتنبى :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى   وأنثنى وبياض الصبح يغرى بى

فقد تمت المقابلة بين (أزورهم وأنثنى) و (سواد وبياض) و (الليل والصبح) و (يشفع ويغرى) و (لى وبى) .

وقول الآخر :

بواطئ فوق خد الصبح مشتهر   وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

قابل بين (واطئ وطائر) و (فوق وتحت) و (خد وذيل) و (الصبح والليل) و (مشتهر ومكتتم) .

أو سداسية :

كقول شرف الدين الأربلى :

على رأس عبد تاج عز يزينه وفى رجل حر قيد ذل يشينه

قابل بين (على وفى) و (رأس ورجل) و (عبد وحر) و (تاج وقيد) و (عز وذل) و (يزينه ويشينه) .

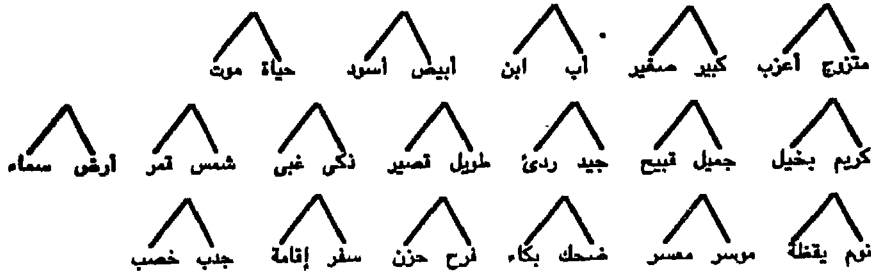
ويمكن المضي بالمقابلة إلى ما شاء الله تعالى نقول :

محمد كريم وذكى وصالح ومتزوج وناجح وشجاع ورزين ومتفائل ووسيم وطويل وممتلئ ومتحضر ....

أما فلان فبخيل وغبى وطالح وأعزب وفاشل وجبان وخفيف ومتشائم وقبيح وقصير ونحيف وهمجى ....

بلاغة الطباق والمقابلة

فى رأيى أن سر بلاغة كل من المطابقة والمقابلة إنما هو تداعى المعانى ، فالضد أو المقابل يجلب إلى الذهن ضده أو مقابله ، لأنهما متضايفان ، ويستند أحدهما على الآخر هكذا :



فإذا كتب الأديب أو نطق أحد المتساندين وقع مقابله فى ذهن متلقى الأدب قبل أن يقرأه أو يسمعه ، وبهذا يتحول متلقى الأدب إلى مرسل له ، ويمكن ـ على التجوز ـ أن نقول : يتحول من سالب إلى موجب .

وقد جعل نقاد الأدب هذا التحول فى موقف مستقبل الأدب مقياساً لجودة الأدب ولنجاح الأديب .

وسيتأكد ذلك بدراستنا لما سموه :

الإرصاد أو التسهيم

فميزته أنه يُقدر القارئ أو السامع على التنبؤ بما يختلج داخل الأديب حتى ليمكنه متى عرف أوله أن يكمله بما كان الأديب قد كمله به وهو ما عناه ابن نباتة بقوله :

خذها إذا أنشدت فى القوم من طرب صدورها عرفت منها قوافيها

ينسى بها الراكب العجلان حاجته ويصبح الحاسد الغضبان يطريها

قال القزوينى :

الإرصاد

ويسمى التسهيم أيضاً :

وهو أن يُجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروى كقول الله تعالى : « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وقوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما كانوا فيه يختلفون » ، وقوله تعالى : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » وقوله تعالى: « ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » . وقوله تعالى : « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » .

وكقول النابغة الذبياني :

ولو كفى اليمين بغتك خوناً ... لأفردت اليمين من الشمال

وقول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

وقول عمرو بن معد يكرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

وقول البحتري :

أبكيكما دمعاً ولو أنى على ... قدر الجوى أبكى بكيتكما دما

وقوله :

أحلت دمى من غير جرم وحرمت ... بلا سبب يوم اللقاء كلامى

فليس الذى حللته بمحلل ... وليس الذى حرمته بحرام

وإذ نكتفى فى التمثيل للإرصاد بما مثلنا له به ، ننبه إلى أنه من حسن التأليف ولا عجب ، فخير الكلام ما دل بعضه على بعض .

المشاكلة

خالفت البلاغيين قدماء ومحدثين بجعلها من المحسنات اللفظية لا المعنوية . وهى وجهة نظر اقتنعت بها فنفذتها ، وستجدها مع لداتها من المحسنات اللفظية .

التورية

التورية فى اللغة مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره .

وفى الاصطلاح البلاغى : هى إيراد لفظ له معنيان :

أحدهما قريب ظاهر غير مقصود وهو المورَّى به .

والآخر بعيد خفى مقصود وهو المورَّى عنه .

ولا فرق بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى .

والتورية فى كتب البلاغة أقسام ، وهذه الأقسام قد تكون اثنين وقد تكون ثلاثة وقد تكون أربعة ، والأقسام ذاتها تتردد بين أن يظل القسم قسماً واحداً وأن يصير قسمين أو ثلاثة ، وبهذه الأقسام ـ أصلية أو فرعية ـ يدخل دارس التورية فى متاهات لا داعى لها ، فهى تبهم أكثر مما توضح ، وتربك فى فهمها أكثر مما تسعف بهذا الفهم .

وتسهيلاً للموضوع نقول : إن أساس التقسيم هو المعنى المزدوج فى التورية بشقيه وهما المعنى المورى به ، والمعنى المورى عنه .

وبالنسبة للمعنى المورى به تنقسم التورية قسمين هما :

(أ) التورية المجردة .

(ب) والتورية المرشحة .

والتورية المجردة هى مالم يصحبها شئ يلائم المعنى المورى به كقول الله تعالى :

« الرحمن على العرش استوى » .

وبيان أنها تورية مجردة هو أن لكلمة (استوى) معنيين :

أحدهما قريب ظاهر غير مقصود وهو استوى بمعنى استقر فى المكان أى لبث فيه ومكث به والآخر بعيد خفى مقصود وهو استوى بمعنى استولى وملك .

وإنما كان المعنى الأول غير مقصود ، لأنه لا يلائم الحق تبارك وتعالى فالله جل جلاله منزه عن ذلك ، وقد جاءت الآية الكريمة فى كتب البلاغة مثالاً للتورية .

قال الزمخشرى وهو بإزائها على أنها تورية :

« ولا ترى فى باب البيان (البيان هنا بمعنى البلاغة) أدق ولا ألطف من هذا الباب ولا أعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله وكلام رسوله وكلام صحابته رضى الله عنهم أجمعين منه » وقال السكاكى : « أكثر مشتبهات القرآن من التورية » لكن للأستاذ أحمد مصطفى المراغى رأياً وجيهاً فى هذه الآية عبر عنه بقوله :

« والتحقيق أنها استعارة تمثيلية ، بأن شبهت الهيئة الحاصلة من تصرف المولى فى الممكنات بالإيجاد والإعدام بالهيئة الحاصلة من استقرار الملك على عرشه بجامع أن كلاً منهما ينبئ عن الملك التام ، واستعير التركيب الدال على المشبه به للمشبه على طريق الاستعارة التمثيلية »(1) .

وقد كان هذا الرأى وجيهاً لأن المعنى الأول للفعل (استوى) بمعنى استقر فى المكان وشغله ، هذا المعنى مستحيل على الله تعالى ، ولأنه مستحيل فهو غير وارد أصلاً ويكون لكلمة (استوى) معنى واحد تخرج به الآية عن حد التورية .

وخروجاً من الخلاف بل تفادياً للحرج نمثل للتورية المجردة بقوله تعالى : « وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » .

أراد بقوله تعالى (جرحتم) معناه البعيد الخفى وهو اقتراف الذنوب ، ولم يرد معناه القريب الظاهر وهو شق الجلد .

وكالآية السابقة قول إبراهيم لفرعون لما سأله عن زوجته سارة « هى أختى » مورياً بالأخوة الحقيقية عن الأخوة الدينية .

وقول محمد ﷺ وقد سئل : ممن أنتم : « من ماء » .

مورياً بالمعنى القريب وهو القبيلة عن المعنى البعيد الماء وهو الذى جعل الله منه كل شئ حى .

وقول أبى بكر وقد سئل عن النبى فى رحلة الهجرة « هاد يهدينى » قصد رضى الله عنه هادياً يهدينى إلى الإسلام لكنه ورى عنه بهادى الطريق وهو الدليل فى السفر .

* * *

---

(1) علوم البلاغة ص ٣٠٥ هامش رقم (٢) .

وقد سميت التورية الخالية مما يلائم المعنى المورى به مجردة لتجردها مما يقوى بهذا المعنى والتوجيه إليه .

ولعل تسمية التورية بالتورية وبالإيهام والتوجيه قد أتت من هنا ، فعل ذلك القزوينى وابن أبى الإصبع وابن حجة وغيرهم .

وإذا كان السبب فى الإيهام وفي التوجيه غير موجود فى التورية المجردة فإنه موجود فى :

التورية المرشحة :

وهى التى صحبها شئ يلائم المورى به (عكس المجردة) .

وقد سميت مرشحة لأنها تقوّت بملائم هذا المعنى على الإيهام به وعلى التوجيه إليه من جهة ، وعلى إبعاد الذهن نوعاً ما عن المعنى المورى عنه من جهة .

والشئ الملائم للمعنى المورى به إما أن يأتى قبل كلمة التورية ، وإما أن يأتى بعدها .

فالأول : وهو الذى يأتى فيه الملائم قبل كلمة التورية كقول الله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » .

التورية فى كلمة (أيد) والمعنى المورى به هو الجارحة ، والمعنى المورى عنه هو القدرة ، وقد ذكر قبل كلمة (أيد) ملائم المعنى المورى به ، وهذا الملائم هو جملة (بنيناها) .

وكقول يحيى بن منصور الحنفى :

فلما نأت عنا العشيرة كلها أنخنا فخالفنا السيوف على الدهر

فما أسلمتنا عند يوم كريهة ولا نحن أغضينا الجفون على وتر

التورية فى كلمة (الجفون) ، فإنها تحتمل أن تكون جفون العيون ، وهذا هو المعنى المورى به ، وتحتمل أن تكون جفون السيوف أى أغمادها وهذا هو المعنى المورى عنه ، وقد سبقت كلمة (الجفون) بملائم المعنى المورى به ، وهذا الملائم هو جملة (أغضينا) .

وكقول صلاح الدين الصفدى :

وصاحب لما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماحه

وقيل هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت ولا راحه

التورية فى كلمة (راحة) والمعنى المورى به هو (الكف) ، والمعنى المورى عنه هو الراحة المضادة للتعب ، والترشيح قد تم بذكر الملائم للمعنى المورى به قبل كلمة التورية ، وهذا الملائم هو (يدا تشكرها) .

ومن ذلك قول الشاعر :

أيها المعرض عنا حسبك الله تعال

التورية فى كلمة (تعال) والمعنى المورى به هو تنزيه الله (فعل ماض) والمعنى المورى عنه هو طلب إقبال المعرض ، وملائم المعنى المورى به قد سبق كلمة التورية : وهذا الملائم هو لفظ الجلالة .

وقول الآخر :

حملناهم طرا على الدهم بعدما خلعنا عليهم بالطعان ملابسا

كلمة التورية هى (الدهم) والمعنى المورى به الخيول السود ، والمعنى المورى عنه هو القيود الحديدية ، وقد سبق الملائم كلمة التورية ، وهذا الملائم هو جملة (حملناهم) .

* * *

والثانى من المرشحة :

وهوى الذى يأتى فيه الملائم للمورى به بعد كلمة التورية :

كقول القاضى عياض يصف صيفاً بارداً ·

كأن كانون أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت فما تفرق بين الجدى والحمل

(كانون) من أشهر البرد و (تموز) من أشهر الـ[illegible] ، و (الجدى والحمل) برجان ، ونوعان من النعم قال تعالى : « ومن الأنعام حمولة وفرشاً » ويقولون : « أكل الجداء قليل الجداء »[1].

والتورية فى كلمة (الغزالة) فمعناها البعيد المورى عنه هو الشمس ، ومعناها القريب المورى به هو الحيوان المعروف ، وقد أتى بعد كلمة (الغزالة) بملائم المعنى المورى به وهذا الملائم هو كلمة (خرفت) ، التى بهتت على كلمتى (الجدى) و (الحمل) فحددت معناهما بما جعلناه المعنى الثانى لهما .

(١) انظر أساس البلاغة ص ٥٣ وص ٩٥ .

وكقول شاعر مسن :

مذهمت من وجدى فى خالها ولم أصل منه إلى اللثم

قالت قفوا واستمعوا ما جرى لخالى قد هام به عمى

التورية فى لفظ (خالها) فإنه يحتمل خال النسب وهو المعنى القريب المورى به .

وقد ذكر ملائمه بعد كلمة التورية ترشيحاً للتورية وهذا الملائم هو كلمة (العم) ، ويحتمل أن يكون الشامة السوداء التى تظهر غالباً فى الوجه وتكون مظهر حسن ، وهذا هو المعنى البعيد الخفى المورى عنه .

* * *

بقى أن يصحب كلمة التورية ملائم المعنى المورى عنه منبئاً به ومبيناً له حتى ليكاد يقوله بل إنه فى بعض الأمثلة قد قاله ، وهذا الملائم يضعف التورية ، لأنه يجعل البعيد قريباً والخفى ظاهراً : ويترتب على ذلك أن يدرك متلقى الأدب المعنى المورى عنه دون تعب ، ولا عجب ، فالتورية مكشوفة ، لكأنها غير موجودة وقد سماها البلاغيون لهذا :

التورية المبينة : وهو اسم على مسمى حقاً .

والملائم المبين للمعنى المورى عنه مكانه أحد الموقعين السابقين فى التورية المرشحة ، وهما ما قبل كلمة التورية ، وما بعدها .

مثال ما قبلها قول البحترى :

ووراء تسدية الوشاح ملية بالحسن تملح فى القلوب وتعذب

التورية فى الفعل (تملح) فإنه يحتمل أن يكون من الملوحة الى هى ضد العذوبة ، وهو المعنى المورى به ، ويحتمل أن يكون من الملاحة بمعنى الجمال وهو المعنى المورى عنه ، والذى ذكر ملائمه قبل كلمة التورية ، وهذا الملائم هو (ملية بالحسن) .

ومثال ما بعدها قول ابن سناء الملك :

أما والله لولا خوف سخطك لهان علىّ ما ألقى برهطك

ملكت الخافقين فتهت عجباً وليس هما سوى قلبى وقرطك

التورية فى كلمة الخافقين .

والمعنى المورى به هو المشرق والمغرب ، والمعنى المورى عنه هو القلب والقرط وقد بينه الشاعر بالنص عليه فى آخر البيت .

* * *

والخلاصة : أن التورية المجردة قسم قائم بنفسه ، وأن التورية المرشحة شعبتان ، وكذلك التورية المبينة .

أما درجات التورية من حيث القيمة الفنية فهى تنازلياً :

المرشحة ، فالمجردة ، فالمبينة .

* * *

وهناك قسم رابع سماه أصحابه التورية المهيأة .

وهى التى لا تقع فيها التورية ولا تتهيأ إلا باللفظ الذى قبلها أو باللفظ الذى بعدها ، أو تكون فى لفظين لولا كل منهما لما تهيأت فى الآخر .

وواضح من تعريفها أنها ثلاث شعب ، وقد بلغت من التكلف حداً يسمح لنا بأن نهملها [1] .

حسن التعليل

كان القزوينى موفقاً فى تعريفه حسن التعليل وفى تقسيمه له قال :

« حسن التعليل هو أن يدعى لوصف علة مناسبة باعتبار لطيف غير حقيقى » [2] .

وإذا كان التعريف هكذا واضحاً فإنه بالأمثلة سيكون أوضح .

وحسن التعليلة أربعة أقسام ، والقسمة عقلية .

لأن الوصف المعلل بالعلة المدعاة : إما وصف ثابت أى موجود أصلاً وكل ما سنعمله أننا سنعلله تعليلاً حسناً .

وإما وصف غير ثابت أى غير موجود ، ونريد إثباته أولاً وتعليله تعليلاً حسناً ثانياً .

والأول وهو الوصف الثابت الذى نقصد تعليله ينقسم إلى :

(أ) مالا تكون له فى العادة علة .

(ب) ما تكون له فى العادة علة غير التى سيأتى بها الكاتب أو الشاعر .

والثانى وهو الوصف غير الثابت وأريد إثباته أولا وتعليله ثانياً .

ينقسم إلى :

(أ) ممكن .

(ب) غير ممكن .

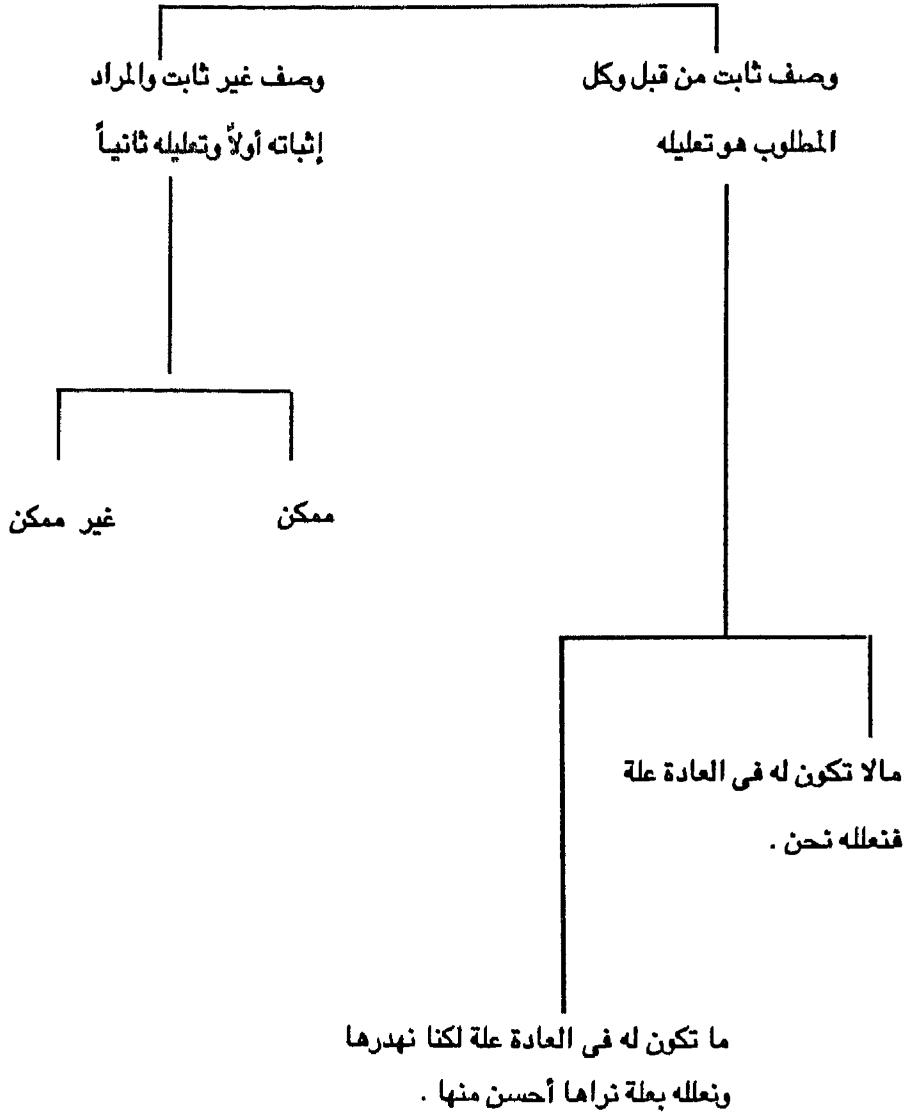
---

(١) انظرها فى التصوير البيانى ص ٣٨٤ – ٣٨٥ وفى علم البديع للدكتور عتيق ص ٢٢١ – ١٢٣ .

(٢) الإيضاح جـ ٦ ص ٦٨ .

الوصف المعلل

هكذا :



والخلاصة :

أن الوصف المعلل قسمان :

(١) ثابت .

(٢) غير ثابت .

وأن الثابت قسمان .

(أ) مالا تكون له فى العادة علة .

(ب) ما تكون له فى العادة عله .

وأن غير الثابت كذلك قسمان :

(أ) ممكن .

(ب) غير ممكن .

فالأقسام أربعة هى :

القسم الأول : الوصف الثابت مما لا تكون له فى العادة علة .

القسم الثانى : الوصف الثابت مما تكون له فى العادة علة لكنا نعدل عنها إلى علة أخرى نراها أحسن من العلة الأولى .

القسم الثالث : الوصف غير الثابت ونريد إثباته أولاً وتعليله تعليلاً حسنا ثانياً وإثباته ممكن .

القسم الرابع : الوصف غير الثابت ونريد إثباته أولاً وتعليله تعليلاً حسناً ثانياً وإثباته غير ممكن .

أمثلة القسم الأول :

من ذلك قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالى

علل الشاعر فقر الكريم بتتابع ضيوفه عليه أى بكثرة ضيوفه ، واستأنس فى ذلك

بالأماكن العالية ، فكما أنها مفرغة مما عساه أن يكون فيها بسبب توالى السيول عليها ، كذلك هو .

وواضح أن عطل الكريم من الغنى أمر ثابت أصلاً أى موجوه قبلاً ، ولما كان غير معلل عادة ، فقد جاء الشاعر وعلله تعليلاً حسناً .

وقول المتنبى :

لم يحك نائلك السحاب وإنما   حمت به فصبيبها الرحضاء

قصد أن السحب المطرة دائماً لا تقصد بإمطارها الدائم هذا محاكاة الممدوح فى جوده، فذلك مالا طاقة لها به ، وإنما حُمَّتْ كمداً منه وحسداً له ، وما مطرها إلا عرقها بسبب الحمى .

وقول أبى هلال العسكرى :

زعم البنفسج أنه كعذاره   حسناً فسلوا من قفاه لسانه

فخروج ورق البنفسج إلى الخلف لا علة له لكن العسكرى ادعى له علة حسنة هى افترائه على المحبوب .

وكالأمثلة السابقة قول المعرى فى الرثاء :

وما كلفة البدر المنير قديمة   ولكنها فى وجهه أثر اللطم

وقول ابن رشيق :

سألت الأرض لم كانت مصلى   ولم جعلت لنا طهراً وطيبا

فقالت غير ناطقة لأنى   حويت لكل إنسان حبيبا

وقول ابن هانئ :

ولو لم تصافح رجلها صفحة الثرى   لما كنت أدرى علة للتيمم

وقول ابن نباتة فى فرس :

وأدهم يستمد الليل منه   وتطلع بين عينيه الثريا

سرى خلف الصباح يطير جرياً   ويطوي خلفه الأفلاك طيا

فلما خاف وشك الفوت منه   تشبث بالقوائم والمحيا

وقول الشاعر :

أما ذكاء فلم تصفر إذ جنحت　　إلا لفرقة ذاك المنظر الحسن

وقول الآخر :

بين السيوف وعينيها مشاركة　　من أجلها قيل للأجفان أجفان

وقول الآخر :

أرى بدر السماء يلوح حينا　　ويبدو ثم يلتحف السحابا

وذاك لأنه لما تبدى　　وأبصر وجهه استحيا وغابا

أمثلة القسم الثاني :

من ذلك قول المتنبي :

ما به قتل أعاديه ولكن　　يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب

يقول القزويني : فإن قتل الملوك أعداءهم في العادة لإرادة إهلاكهم ، وأن يدفعوا مضارهم عن أنفسهم حتى يصفو لهم ملكهم من منازعتهم ، لا لما ادعاه من أن طبيعة الكرم قد غلبت عليه ، ومحبته أن يصدق رجاء الراجين بعثته على قتل أعدائه لما علم أنه إذا غدا للحرب غدت الذئاب تتوقع أن يتسع عليها الرزق من قتلاهم ، وهذا مبالغة في وصفه بالجود، ويتضمن المبالغة في وصفه بالشجاعة على وجه تخييلي ، أي تناهى في الشجاعة حتى ظهر ذلك للحيوانات العجم ، فإذا غدا للحرب رجَتِ الذئاب أن تنال من لحوم أعدائه وفيه نوع آخر من المدح وهو أنه ليس ممن يسرف في القتل طاعة للغيظ والحنق » [1] .

وقول أبي طالب المأموني في بعض الوزراء :

مغرم بالثناء طب بكسب المجـ　　ـد يهتز للسماح ارتياحاً

لا يذوق الإغفاء إلا رجاء　　أن يرى طيف مستميح رواحا

يقول القزويني : « وكان تقييده بالرواح ليشير إلى أن العفاة إنما يحضرونه في صدر النهار على عادة الملوك ، فإذا كان الرواح قلوا ، فهو يشتاق إليهم فينام ليأنس برؤية طيفهم» [2] .

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ٧٠ .

(٢) السابق نفسه ص ٧١ .

وقول ابن عربى :

أتتنـــى تؤنبنـــى بالبكـــــاء فأهـــــلاً بهـــا وبتأنيبهـــا

تقـــول وفى قولهـــا حشمـــة أتبكـــى بعيـــــن ترانى بها

فقلـــت إذا استحسنت غيركم أمـــرت الدمـــوع بتأديبهـــا

وذلك أن العادة فى دمع العين أنْ يكون السبب فيه إعراض الحبيب أو اعتراض الرقيب ، ونحو ذلك من الأسباب الموجبة للاكتئاب ، لا ما جعله من التأديب على الإساءة باستحسان غير الحبيب .

وكالأمثلة السابقة قول ابن المعتز :

قالوا : اشتكت عينه فقلت لهم من كثرة القتـل نالها الوصب

حمرتهـــا من دمـــاء مـــن قتلـــت والدم فى النصل شاهد عجب

من أمثلة القسم الثالث :

قول مسلم بن الوليد :

يا واشياً حسنت فينا إساءته نجى حذارك إنسانى من الغرق

فإن استحسان إساءة الواشى ممكن ، وإن كان غير واقع عادة ، لكنه لما خالف الناس فيه عقبه بذكر سببه ، وهو أن حذاره من الواشى منعه من البكاء فسلم إنسان عينه من الغرق فى الدموع .

ومن أمثلة القسم الرابع ، هذا البيت :

لو لم تكـــن نية الجوزاء خدمته لما رأيـــت عليهـــا عقد منتطـــق

فإن نية الجوزاء خدمته ممتنعة .

* * *

ومما يلحق بالتعليل وليس منه لبناء الأمر فيه على الشك لا على ادعاء تحقق العلة نحو قول أبى تمام :

رُبى شفعت ريح الصبا لرياضها إلى المـــزن حتى جادها وهو هامع

كأن السحاب الغرَّ غيبن تحتـــها حبيباً فما ترقـــى لهـــن مدامـــع

فقد علل ـ على سبيل الشك ـ نزول المطر من السحب بأنها غيبت حبيباً تحت تلك الربا ، فهي تبكي عليه .

وقول المتنبى :

رحل العزاء برحلتى فكأننى   أتبعته الأنفاس للتشييع

ولما ألحق عبد القاهر هذا البيت بحسن التعليل علق عليه بقوله :

« وذلك أنه علل تصعد الأنفاس من صدره بهذه العلة الغريبة وترك ما هو المعلوم المشهور من السبب والعلة فيه وهو التحسر والتأسف .

والمعنى : رحل عنى العزاء بارتحالى عنكم ، أى عنده ومعه أو به وبسببه فكأنه لما كان محل الصبر الصدر ؛ وكانت الأنفاس تصعد منه أيضاً ، صار العزاء وتنفس الصعداء كأنهما نزيلان ورفيقان ، فلما رحل ذاك كان حق هذا أن يشيعه قضاءً لحق الصحبة »[1] .

* * *

تأكيد المدح بما يشبه الذم

لتأكيد المدح بما يشبه الذم ثلاثة أضرب ، أفضلها الأول وهو :

(١) أن نستثنى من صفة ذم منفية عن الشئ صفة مدح بتقدير دخولها فى صفة الذم المنفية حيث إن الأصل فى الاستثناء أن يكون متصلاً ، وذلك كقول **النابغة** :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

أى إن كانت فلول سيوفهم من قراع الكتائب عيباً ، فإن فيهم شيئاً من العيب هو هذه الفلول ، ولما كانت فلول السيوف من قراع الكتائب مدحاً لا قدحاً كان الاستثناء منقطعاً ، وتأكد المدح بما يشبه الذم .

والتأكيد فى هذا الضرب من وجهين هما :

(أ) أنه كدعوى الشئ ببينة ، فالشاعر قد علق ـ ضمناً ـ وجود عيب فيهم على التسليم بأن فلول سيوفهم بسبب قراع الكتائب من العيوب ، ولما كانت الحقيقة أن فلول السيوف بسبب قراع الكتائب من المزايا لا من العيوب ، امتنع التسليم بأن ما بعد أداة الاستثناء فى البيت عيب ، والمعلق على الممتنع ممتنع مثله .

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٦ .

ونفى العيب عن الممدوحين بهذه الطريقة أقوى مما لو قال :

(لا عيب فيهم) وسكت .

(ب) أن الأصل في الاستثناء ـ مطلق الاستثناء ـ أن يكون متصلاً ، والاستثناء يكون متصلاً إذا كان المستثنى من جنس المستثنى منه ، فإذانطق المتكلم بأداة الاستثناء توهم المخاطب قبل أن يسمع ما بعدها أن ما بعدها سيكون من جنس ما قبلها ، وانتظر أن يكون ما بعد (غير) في البيت الذى معنا من جنس العيب المنفى قبلها ، فإذا فوجئ بعدها بصفة مدح تأكد المدح الأول (ولا عيب فيهم) بتحول الاستثناء بعده من متصل إلى منقطع إذ فى تحوله من متصل إلى منقطع إشعار بأن الشاعر لم يجد صفةذم يستثنيها فاضطر إلى استثناء صفة مدح .

والمحصلة أن ما بعد أداة الاستثناء مدح كالمدح الذى قبلها وعلى حد قول القزوينى : « تأكد المدح لكونه مدحاً على مدح ، وإن كان فيه نوع من الخلابة » (١) .

ومن أمثلة هذا الضرب غير بيت النابغة :

قول الله تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ... إلا قيلا سلاماً سلاما » .

وقول حاتم الطائى :

وما تشتكى جارتى غير أننى   إذا غاب عنها بعلها لا أزورها

وقول ابن الرومى :

ليس له عيب سوى أنه   لا تقع العين على شبهه

وقول الشاعر :

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم   تُعـاب بنسيان الأحبة والوطن

الضرب الثانى :

وهو أن يثبت لشئ صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى كقول النبى ﷺ : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش » .

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ٧٧ .

وقول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخـــلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

وقول الشاعر :

أطلب المجد دائباً غير أنـى فى طلابى لا تعرف اليأس نفسى

والاستثناء فى هذا الضرب منقطع من أول الأمر ؛ لانتفاء العموم فى المستثنى منه فيه ، وهو لذلك باق على حاله الذى بدأ به .

وقد ترتب على ذلك أنه لا يفيد التأكيد إلا بالوجه الثانى من الوجهين المذكورين فى الوجه الأول ، ومن هنا جاء الحكم بأن الضرب الأول هو الأفضل .

الضرب الثالث :

وهو أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذم .

أو كما قال القزوينى : « هو أن يأتى الاستثناء فيه مفرغاً » كقول الله تعالى : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » .

أى وما تعيب منا إلا أصل المناقب والمفاخر كلها وهو الإيمان بآيات الله .

فالفعل (تنقم) فيه معنى الذم ، والمستثنى بإلا وهو المصدر المؤول من (أنْ آمنا) متضمن صفة مدح ، وهو فى الوقت نفسه مفعول به للفعل (تنقم) لأن الاستثناء مفرغ ، وإلا ملغاة ، فيعرب ما بعدها على حسب موقعه فى الجملة .

* * *

وقد ختم القزوينى تأكيد المدح بما يشبه الذم بهذا التنبيه قال :

« واعلم أن الاستدراك فى هذا الباب يجرى مجرى الاستثناء كما فى قول أبى الفضل بديع الزمان الهمذانى :

هو البدر إلا أنه البحر زاخراً سوى أنه الضرغام لكنه الوبل (١)

فالممدوح هنا هو البدر رفعة وشرفاً ، إلا أنه البحر زاخراً ، أى متراكم الأمواج كرماً ، سوى أنه الضرغام أى الأسد شجاعة وقوة ، لكنه الوبل : جمع وابل وهو المطر الغزير .

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ٧٨ .

ولم يكتف فى وصفه بكونه بحراً فى الكرم عن كونه وبلا فيه ، لأن الوبلية تقتضى وجود العطاء ، والبحرية تقتضى التهيؤ للأخذ من كل جانب فالكرم المستفاد من البحرية كأنه كرم بالقوة ، والكرم المستفاد من الوبلية كأنه كرم بالفعل [1] .

ومهما يكن من أمر ، فقد شبه الشاعر ممدوحه بالبدر ، وهذا مدح ثم أكد المدح بتشبيهات أخرى هى أنه البحر ، وأنه الأسد وأنه الوبل ، والفضل فى ذلك للاستثناء والاستدراك ؛ فقد أزالا توهم السامع لصفات ذم تعقبهما بل أكثر من ذلك أحلاً محلها صفات مدح .

والاستدراك ـ بناء على هذا ـ من الضرب الثانى من ضروب تأكيد المدح بما يشبه الذم.

* * *

ولا يسعنى قبل أن أغادر هذا المحسن البديعى إلا أن أشيد بتناول محمد الجرجانى له ، ولو أنه أهدر عكسه وهو « تأكيد الذم بما يشبه المدح » [2] .

تأكيد الذم بما يشبه المدح

وهو ضربان :

الأول : أن يستثنى من صفة مدح منفية عن الشئ صفة ذم بتقدير دخولها فى صفة المدح المنفية .

تقول : فلان لا خير فيه إلا أنه لص ، ولا فضل للقوم إلا أنهم بخلاء .

والثانى : أن يثبت للشئ صفة ذم تعقب بأداة استثناء تليها صفة ذم أخرى له .

تقول : فلان كذاب إلا أنه خائن ، وفلان حسود إلا أنه نمام .

ومنه قول الشاعر :

هو الكلب إلا أن فيه ملالة   وسوء مراعاة وما ذاك فى الكلب

* * *

(١) انظر مواهب الفتاح للمغربى جـ ٣ ص ٦٧ .

(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

والضرب الأول يفيد تأكيد الذم من وجهين ، أما الضرب الثانى فيفيده من وجه واحد ، وهى هى الوجوه التى مرت فى تأكيد المدح بما يشبه الذم .

* * *

والاستدراك هنا كالاستدراك هناك فى إفادة التأكيد :

تقول من الضرب الأول : لا خير فى فلان لكنه جبان

وتقول من الضرب الثانى : فلان غبى لكنه شتام

* * *

بقى أن سر بلاغة تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه إنما هو التأثير على متلقى الأدب به بما يحدث فيه نفسياً من مدٍّ وجزر ومدٍّ فى تأكيد المدح بما يشبه الذم .

ومن جزر ومدٍّ وجزر فى تأكيد الذم بما يشبه المدح .

إن مرسل الأدب فى تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه كممسك الخيوط فى مسرح العرائس يحرك ما يشاء منها بالخيط غير المنظور فى يده ، أما مستقبل أدبه فإنه بتموجات نفسه وترددها بين الاغتباط والإحباط وعكسهما كالعرائس نفسها تتحرك بجذب الخيوط لها حركات ليست من كسبها .

الالتفات

فى أساس البلاغة مادة (ل ـ ف ـ ت) : لفته عن رأيه : صرفته ، وفلان يلفت الكلام لفتاً : يرسله على عواهنه لا يُبالى كيف جاء .

والمعنى الاصطلاحى للالتفات قريب مما قاله الزمخشرى ، ذلك أنه الانتقال فى الكلام من صيغة إلى صيغة ، كالانتقال من خطاب حاضر إلى غائب ، أو من مفرد أو مثنى أو جمع إلى عكس ذلك .

قال ابن الأثير معللاً تسمية ابنَ جنى له **بشجاعة العربية:**

« وإنما سمى بذلك لأن الشجاعة هى الإقدام ، وذاك أن الرجل الشجاع يركب مالا يستطيعه غيره ، ويتورد مالا يتورده سواه ، وكذلك هذا الالتفات فى الكلام »(1) .

* * *

والالتفات ثلاثة أضرب :

الضرب الأول : الرجوع من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة .

ويفعل الأديب ذلك جرياً على عادة العرب من افتتانهم فى الكلام وتوسعهم فيه ، ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان أكثر إثارة لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ولأمور بلاغية أخرى .

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى فى سورة الفاتحة:

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

يقول ابن الأثير : هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب .

---

(1) انظر الخصائص جـ ١ مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ / ١٩١٣م . صفحات ١٤٨ – ١٨٨ ، ٢٢١ ، ٣٢٣ – ٢٤٦ – ٢٦٠ ، ٢٦٦ – ٢٧٣ – ٣٣٩ – ٣٥١ ، ٥٣٧ – ٥٦٧ .
ومن الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور موضوعات :
الالتفات ٩٨ – ١٠٢ والإخبار عن الفعل الماضى بالمضارع وعن الفعل المضارع بالماضى ص ١٠٢ – ١٠٥ وعكس الظاهر ص ١٠٥ – ١٠٦ والحمل على المعنى ص ١٠٦ – ١٠٨ والتقديم والتأخير ص ١٠٧ – ١١٨ والاعتراض ص ١١٨ – ١٢٢ – ومن المثل السائر ص ١٦٧ – ١٧٣ .

ومما يختص به هذا الكلام من الفوائد أنه ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام من الربوبية العامة والرحمة الدائمة والملك الخاص ثم خاطبه بقوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » أى نخصك بالعبادة والاستعانة يا من لا تكون العبادة إلا له : ولا تليق الاستعانة إلا به . فقوله : « إياك نعبد وإياك نستعين » بعد قوله « الحمد لله رب العالمين » ليس العدول فيه من الغيبة إلى الخطاب اتساعاً فحسب ، بل إنه قد عدل به إلى الخطاب لفائدة حسنة ، وذلك أن الحمد دون العبادة ، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبده .

فلما كان الحال كذلك استعمل لفظ (الحمد) مع الغيبة فقال « الحمد لله » ولم يقل : لك .

ولما صار إلى العبادة التى هى أقصى الطاعات قال : « إياك نعبد » ، وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة فقال : « صراط الذين أنعمت عليهم » . صرح بالخطاب لمّا ذكر النعمة ، ثم قال : « غير المغضوب عليهم » ولم يقل : غير الذين غضب عليهم أو غضبت عليهم ، لأن الأول وضع موضع التقرب إلى الله بذكر نعمه ، فلما صار إلى ذكر الغضب قال : «غير المغضوب عليهم » فجاء باللفظ مُنْحرفاً به عن ذكر الغضب ، أسند النعمة إليه لفظاً ، وزوى عنه ذكر الغضب تحسناً ولطفاً .

* * *

ومن هذا الجنس قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئاً إِدًّا » .

فقوله « جئتم » وما فيه من المخاطبة بعد الغيبة ، زيادة تنكيل عليهم بالجرأة على الله عز وجل ، والتعرض لسخطه ، وتنبيه لهم على عظم ما قالوه .

وقول جرير :

طرب الحمام بذى الأراك فشاقنى   لازلت فى علل وأيك ناضر

فجرير قد أخبر عن الغائب فى الشطر الأول وهو (الحمام) ولكنه انصرف فى الشطر الثانى عن الاستمرار فى الكلام عنه والتفت إلى مخاطبته بقوله :

« لازلتَ فى علل وأيك ناضر » لزيادة فائدة فى المعنى هى الدعاء للحمام .

وقول القاضى الأرجانى :

وهل هى إلا مهجة يطلبونها   فإن أرضت الأحباب فهى لهم فدى

إذا رمتُم قتلى وأنتم أحبتى   فماذا الذى أخشى إذا كنتم عدى

فالبيت الثاني قد جاء وهو خطاب الحاضرين بعد البيت الأول وهو حديث عن الغائبين .

والغرض البلاغي من وراء الالتفات بالعدول عن الاستمرار في الإخبار عن الغائب إلى مخاطبته هو تمثل أحبابه الغائبين في البيت الأول كأنهم حاضرون أمامه : ليقرعهم ويلومهم على عدم معاملته بالمثل ، وذلك بالمقابلة بين مشاعره نحوهم ومشاعرهم نحوه . هو على أتم استعداد لأن يفديهم بمهجته إن أرضاهم ذلك وهم يرومون قتله بالتمادي في هجرانه والإعراض عنه كما لو كان عدواً لهم .

* * *

وأما الرجوع من الخطاب إلى الغيبة :

فكقوله تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » .

هنا صرف الله الكلام من الخطاب إلى الغيبة .

وإنما فعل ذلك لفائدة هي أنه ذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهم منها كالمخبر لهم ، ويستدعي منهم الإنكار عليهم والتقبيح ، ولو قال : حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح طيبة وفرحتم بها ، وساق الخطاب معهم إلى آخر الآية ، لفاتت تلك الفائدة التي أنتجها خطاب الغيبة .

هذا ملخص كلام ابن الأثير .

ومعناه أن الله خاطب من كانوا في الفلك حتى أنساهم أنفسهم فحدثهم عنهم كأنهم ليسوا هم ؛ ليتحولوا من ذاتيين إلى موضوعيين فيستنكروا فعلهم وكأنهم ليسوا هم كما يقول الأب لابنه الذي أخطأ : أنت فعلت كذا وكذا اليوم .. ثم يعطف بقوله : وبعد أن فعل ذلك لقي والده بكل جرأة كأنه لم يقترف إثماً ولم يرتكب ذنباً ، وأخذ يستعطفه راجياً منه العفو .

إن هذا اللون من التعبير فيه إشهاد الناس على أنفسهم دون أن يشعروا ، فإذا حكموا على الغائبين كان هذا الحكم حكماً منهم على أنفسهم فلا يتظلمون منه بعد ذلك ، لأنهم ارتضوه لغيرهم ظانين أن هذا الغير أناس آخرون ، وما هم بأناس آخرين بل هم المخاطبون أولاً .

* * *

ومن هذا الجنس قوله تعالى : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون » .

فإنه إنما قال : « فآمنوا بالله ورسوله » ولم يقل : فآمنوا بالله وبى ، حيث قال أولاً : « إنى رسول الله إليكم » ؛ لكى تجرى عليه الصفات التى أُجريت عليه ، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به واتباعه إنما هو هذا الشخص المستقل بأنه النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كائناً من كان ، أنا أو غيرى ؛ إظهاراً للإنصاف وبعداً عن التعصب للنفس ، فكرر أولاً فى صدر الآية بأنه رسول الله إلى الناس ، وبعد أن ثبت ذلك فى أنفسهم أخرج كلامه من الخطاب إلى معرض الغيبة للغرضين اللذين ذكرناهما آنفاً وهما :

(أ) إظهار الإنصاف .

(ب) موضوعية الشخص المطلوب الإيمان به ، لكأنه ليس هو الذى خاطبهم أولاً .

* * *

ومن هذا الجنس كذلك قول ابن النبيه :

من سحر عينيك الأمان الأمان قتلتَ ربُّ السيف والطيلسان

أسمر كالرمح له مقلة لو لم تكن كحلاء كانت سنان

فقد عدل عن الخطاب فى البيت الأول إلى الغيبة فى البيت الثانى لغرض بلاغى قد يكون التفنن فى الأسلوب ، وقد يكون التمكن من بناء التشبيه الذى يشبه فيه القوام بالرمح ، مع المحافظة على سلامة الوزن الشعرى .

الضرب الثانى

الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر

أى الرجوع من الفعل المضارع إلى فعل الأمر .

يفعل ذلك تهويلاً لحال من أجرى عليه فعل الأمر .

مثال ذلك قوله تعالى : « يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال : إنى أشهد الله واشهدوا أنى برئ مما تشركون » .

قال : (واشهدوا) ولم يقل (وأشهدكم) حتى يكون موازناً له وبمعناه ، لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك يثبت التوحيد ويشد معاقده .

وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم ، وذلك مثلما نقول لمن ساء رأينا فيهم وفى ذكائهم : إننا نشهد الله واشهدوا أنكم أغبياء . أو كما يقول الزوج لزوجته : إنى أشهد أبناءك واشهدى أنك مخطئة .

ونرجع إلى الموضوعية ، فكأنه يشهدها على امرأة أخرى قد اقتنعت هى بأنها مخطئة وستشهد .

الضرب الثالث

الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد أو من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع .

مثاله قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين » .

هنا توسع فى الكلام بتنوع الخطاب .

فقد ثنى ثم جمع ثم وحد ، فخاطب موسى وهارون عليهما السلام بالنبوة والاختيار ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء .

ثم ساق الخطاب لهما ولقومهما باتخاذ المساجد وإقامة الصلاة ، لأن ذلك واجب على الجمهور .

ثم خص موسى صلوات الله عليه بالبشارة التى هى الغرض تعظيماً له وتفخيماً لأمره ولأنه الرسول على الحقيقة .

* * *

ومن هذا النحو قوله تعالى حكاية عن حبيب النجار : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون » .

ففى هذه الآية عدول عن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة ، وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم ، لأنه أبرز الكلام لهم فى معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ؛ ليلطف بهم ويداريهم ، ولأن ذلك أدخل فى إمحاض النصح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه .

وقد وضع قوله « ومالى لا أعبد الذى فطرنى » مكان قوله : « ومالكم لا تعبدون الذى فطركم » ألا ترى إلى قوله « وإليه ترجعون » . ولولا أنه قصد ذلك لقال : الذى فطرنى وإليه أرجع .

* * *

والخلاصة أن الالتفات مظهر من مظاهر شجاعة العربية وقدرتها على تفتيق الكلام وتشقيقه والذهاب به إلى حيث يريد مرسل الأدب منه وله من إيصال فكره ووجدانه ، والتأثير به على القارئين أو السامعين .

وهو حر فيما يريد مادام عنده الرصيد الكافى من النحو والبلاغة ، ومن ذوق العربية وحسها ، واللغة معه معطاء مطواع يمضى بها فى طريق الإفراد ، ثم يبدو له فيغير اتجاهه إلى طريق التثنية أو الجمع ، ويسلك سبيل الغيبة ، إلى أن يقطع جزءاً منه فيرجع عنه إلى سبيل الخطاب أو التكلم .

وهكذا يقتحم الأديب مختلف الدروب ولغته الشجاعة معه ، لا تتخلى عنه ولا تخذله بل تسبقه إلى وجهته الجديدة لتمنحه الحكمة وفصل الخطاب .

أسلوب الحكيم والقول بالموجب

أسلوب الحكيم أو الأسلوب الحكيم هو تلقى المخاطب بترك الإجابة عن سؤاله ، والإجابة عن سؤال آخر لم يسأله لفتاً له إلى أنه كان ينبغى أن يسأل السؤال الثانى لا الأول .

من أمثلته قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » .

السؤال فى الآية الكريمة عن حقيقة الأهلة ومرائيها .

لم تبدأ صغيرة ثم تزداد حتى تتكامل ثم تتضاءل حتى لا ترى ؟؟؟

ولما كانت هذه قضية فلكية عويصة ، وكان السؤال عنها حينئذ سابقاً زمنه بوقت طويل جداً ، عدل القرآن الكريم عن الإجابة عنه إلى بيان أن الأهلة للتوقيت والعبادات وفى هذا إشارة إلى ما كان ينبغى أن يسألوا عنه وهو فائدة الأهلة لا حقيقتها ، وذلك إلى أن تتهيأ عقولهم لفهم هذه الظاهرة الكونية الصعبة .

وكالآية السابقة قوله تعالى : « ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

سألوا عما ينفقون فصُرفوا إلى بيان مصارف الزكاة إشارة إلى أن الزكاة لا يعتد بها إذا لم تقع فى أيدى مستحقيها .

* * *

ما سبق كان أسلوب الحكيم .

أما القول بالموجب :

وأبادر فأقرر أنه فى كتب البلاغة مخلوط بأسلوب الحكيم تحت اسم أسلوب الحكيم ، وأن أسلوب الحكيم مخلوط به تحت اسم القول بالموجب .

هذا القول بالموجب ضربان :

أحدهما : أن تدل صفة فى كلام لغيرك على شئ مثبت له حكم تقتضيه تلك الصفة ، وتأتى أنت فتثبت فى كلام لك تلك الصفة لغير الشئ الأول دون تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه .

وإذا كان هذا التعريف غامضاً فإن مثاله سيوضحه وهو قول الله تعالى على لسان

المنافقين فى دار الهجرة : « يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

فإنهم دلوا بالأعز على أنفسهم وبالأذل على المؤمنين ، وأثبتوا للأعز الإخراج فأثبت الله تعالى فى الرد عليهم صفة العزة لله ولرسوله وللمؤمنين دون تعرض منه سبحانه وتعالى لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ، ولا لنفيه عنهم .

والثانى : حمل لفظ وقع فى كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه .

وأمثلة هذا الضرب كثيرة منها :

قول ابن حجاج :

قلـت : ثقلـتُ إذ أتيـتُ مـراراً ... قـال : ثقلت كاهلى بالأيادى

قلت : طولتُ . قال : لا بل تطولـ ... ت وأبرمتُ قال : حبل ودادى

قال الشاعر لضيفه : قد ثقلت عليك وحملتك المشقة بزياراتى المتكررة ، فصرفه المضيف عن رأيه ، وعدل بكلمته عن معناها المراد له إلى معنى طريف لطيف .

والشئ نفسه فعله لما قال له ضيفه : أبرمت : أى جعلتك برماً بى لطول مكثى عندك ، فقد حول الكلمة عن معناها المقصود لضيفه إلى معنى البرم وهو فتل حبل المودة ليصير مبرماً أى قوياً ، فالمبرم طاقان يُفتلان حتى يصيرا واحداً [1] .

وكبيتى ابن حجاج قول القاضى الأرجانى :

فالطتنى إذ كست جسمى الضنا ... كسوة عرّت من اللحم العظاما

ثم قالتْ : أنت عندى فى الهوى ... مثل عينى صدقت لكن سقاما

وقول دويدة المغربى من أبيات يخاطب بها رجلاً أودع بعض القضاة أموالاً فادعى القاضى ضياعها :

إن قال : قد ضاعت فيصدق . إنها ... ضاعت . ولكن منك يعنى لو تعى

أو قال : قد وقعت فيصدق . إنها ... وقعت ولكن منه أحسن موقع

---

(١) أساس البلاغة مادة (ب . ر . م) ص ٢١ .

وقول على بن فضالة القيروانى :

وإخوان حسبتهم دروعاً ... فكانوها ولكن للأعادى
وخلتهم سهاماً صائبات ... فكانوها ولكن فى فؤادى
وقالوا قد صفت منا قلوب ... لقد صدقوا ولكن من ودادى

وقول شاعر راثياً :

ولما نعى الناعى سألناه خشية ... وللعين خوف البين تسكاب [illegible]طار
أجاب: قضى. قلنا قضى حاجة العلا ... فقال : مضى . قلنا لكل [illegible]غار

الشاهد فى قوله « قضى » يريد (مات) ولكنهم حملوها على إنجاز الحاجات وقضائها وأيضاً فى قوله (مضى) فقد أراد بها (ذهب إلى بارئه) لكنهم غيروا متعلق (ذهب) إلى (ذهب بالفضل ولم يترك لغيره شيئاً يفتخر به) .

* * *

انتهى الكلام عن أسلوب الحكيم والقول بالموجب .

وقد نصَّ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى ملاحظته الثانية بهامش ص ٨٩ جـ ٦ من كتاب الإيضاح على أن السبكى قد جعل الضرب الأول من القول بالموجب من المذهب الكلامى ، والضرب الثانى من الأسلوب الحكيم ، وجعل بيت المشاكلة (قلت اطبخوا لى جبة) من القول بالموجب .

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على فوضى البديع بعامة وفوضى المحسنات المعنوية منه بخاصة ، ولا غرابة فى ذلك ، فبعض هذه المحسنات متداخل ، والأكثر متمحل .

المذهب الكلامى

أو المذهب الكلامى الفلسفى كما قال ابن رشيق [1] .

وواضح أن النسبة فى العنوان إنما هى إلى علم الكلام أى علم التوحيد ، ومنطلقه ـ إن كان لابد أن يكون له منطلق ـ هو علم المنطق أو الفلسفة ، لا علوم البلاغة ولا علم البديع من علوم البلاغة ، لكن بهذا جرت المقادير .

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ٧٦ .

وها هو ذا القزوينى يعرفه بقوله : « هو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام » [1] .

يقصد على صورة قياس اقترانى أو استثنائى ، وبالجملة على طريقة أهل المنطق .

واقرأ معى كلام الجرجانى عن المذهب الكلامى وقد سماه (المحاجّة) قال : « هى ادّعاء شئ مع الحجة عليهم ، وهى كثيرة فى القرآن كقوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين » .

هى مقدمة شرطية ، وملزوم المقدمة الاستثنائية ، والنتيجة : لم يشأ ربك أن يكون الناس أمة واحدة ، بل جعل بعضهم فوق بعض درجات لاقتضاء الحكمة ذلك .

وكقوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وهى مقدمة شرطية ، والاستثنائية هى نقيض التالى ، أى لكن لم تفسد السموات والأرض ، تنتج : ليس فيهما إله غير الله ، وبيان الملازمة ما ذكره المتظلمون وسموه برهان التمانع .

وكقوله تعالى : « قالوا : ما أنزل الله على بشر من شئ ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى » . ناقض السالبة الكلية بالموجبة الجزئية [2] إلخ ما ذكره القزوينى والجرجانى ، والمضى فيه معهما ومع البلاغيين قبلهما وبعدهما خروج بالكتاب عن خطته التى قلتها فى مقدمته ، بل خروج به عن اسمه ، فهيا بنا من هنا .

تجاهل العارف

تجاهل العارف بأمثلته المتنوعة وبأغراضه المختلفة ـ عدا التعريض ـ من صميم علم المعانى ، ومن الاستفهام البلاغى فى علم المعانى على وجه **التحديد** .

عرفه السكاكى بأنه سوْق المعلوم مساق غيره لنكتة [3] .

وهذه النكتة تتردد بين أن تكون :

١ - **التوبيخ** كقول الخارجية :

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ٦٦ - ٦٧ .
(٢) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٠ .
(٣) المفتاح ص ١٨٠ .

أيا شجر الخابور مالك مورقا   كأنك لم تجزع على ابن طريف

٢ - **المبالغة في المدح** كقول البحتري :

ألمع برق سرى أم ضوء مصباح   أم ابتسامتها بالمنظر الضاحي

أو في الذم كقول زهير :

وما أدري ولست إخال أدري   أقوم آل حصن أم نساء

٣ - **التدله في الحب** كقول الحسين بن عبد الله الغزي :

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا   ليلاي منكن أم ليلى من البشر

وقول ذي الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل   وبين النقا آأنت أم أم سالم

٤ - **التحقير** كقول الله تعالى في حق النبي ﷺ حكايةً عن الكفار : « هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق أنكم لفي خلق جديد » يستهزئون بالنبي ﷺ لكأنهم لم يكونوا يعرفون عنه إلا أنه رجل .

٥ - **الإيناس** ، لأن المقام مقام هيبة ورهبة كقوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى » ؟

٦ - **التعريض** في قوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » يقول القزويني : وفي مجئ هذا اللفظ على الإبهام فائدة أخرى وهي أنه يبعث المشركين على الفكر في حالة أنفسهم وحال النبي ﷺ والمؤمنين ، وإذا فكروا فيما هم عليه من إغارات بعضهم على بعض ، وسبي ذراريهم واستباحة أموالهم وقطع الأرحام وإتيان الفروج الحرام وقتل النفوس التي حرم الله قتلها وشرب الخمر التي تذهب العقول ، وتحسن ارتكاب الفواحش ، وفكروا فيما النبي ﷺ عليه من صلة الأرحام واجتناب الآثام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإطعام المساكين وبر الوالدين ، والمواظبة على عبادة الله تعالى ، علموا أن النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين على هدى ، وأنهم على الضلالة ، فبعثهم ذلك على الإسلام ، وهذه فائدة عظيمة [1].

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ٥٥ .

التجريد

عرفه القزوينى بقوله : هو أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فى تلك الصفة مبالغة فى كمالها فيه .

وهو أقسام منها :

(١) ما يكون بـ (مِنْ) التجريدية كقولهم : لى من فلان صديق حميم ، أى بلغ من الصداقة مبلغاً صح معه أن يستخلص منه صديق آخر مثله فيها .

(٢) ما يكون بالباء التجريدية الداخلة على المنتزع منه نحو : لئن سألت فلاناً لتسألن به البحر ، فقد بالغ فى وصفه باتساع علمه أو كرمه حتى انتزع منه بحراً فيهما .

(٣) ما يكون بدخول باء المعية على المنتزع منه كقول الشاعر :

وشوهاء تعدو بى إلى صارخ الوغى بمستلئم مثل الفنيق المرحل [1]

يعنى أنها تجرى بى ومعى من نفسى لكمال استعدادها للحرب مستلئم .

(٤) ما يكون بدخول (فى) على المنتزع منه كقوله تعالى « لهم فيها دار الخلد » فإن جهنم هى دار الخلد ، لكنه انتزع منها داراً أخرى وجعلها معدة فى جهنم للكفار ، تهويلاً لأمرها ، ومبالغة فى اتصافها بالشدة .

(٥) ما يكون بدون توسط حرف نحو قول قتادة بن مسلمة الحنفى :

فلئن بقيت لأرحلن بغزوة تحوى الغنائم أو يموت كريم

يريد بالكريم نفسه ، وقد انتزع من نفسه كريماً للمبالغة فى كرمه .

(٦) ما يكون بطريق الكناية كقول الأعشى :

يا خير من يركب المطى ولا يشرب كأسا بكف من بخلا

---

(١) شوهاء : فرس قبيحة المنظر لسعة أشداقها وهى صفة محمودة فى الخيل ، وصارخ الوغى يعنى الصارخ فى الحرب والمستلئم : لابس اللأمة وهى الدرع ، والفنيق : الفحل المدلل ؛ أما المرحل فمن رَحَّل البعير أى أرسله . شبه الشاعر الفرس بالفنيق المرحل فى الضخامة والقوة وفى عدم استطاعة مصادمتها .

يقصد أنه يشرب الكأس بكف الجواد ، فقد انتزع من مخاطبه وهو ممدوحه جواداً يشرب الممدوح بكفه على سبيل الكناية ، لأنه إذا نفى عنه الشرب بكف البخيل فقد أثبت له الشرب بكف الكريم ، ولما كان الإنسان إنما يشرب بكف نفسه ، فإن الممدوح بناء على ذلك هو الكريم .

(٧) ما يكون بمخاطبة الإنسان نفسه بأن ينتزع من نفسه شخصاً آخر يوجه الخطاب إليه كقول الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وقول أبى الطيب :

لا خيل عندك تهديها ولا مال   فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

انتزع الأعشى من نفسه إنساناً آخر خاطبه ببيته أو فى بيته .

وكذلك فعل المتنبى .

* * *

وقد قيل فى التعليل لتسمية هذا المحسن بالتجريد « إن العرب تعتقد أن فى الإنسان معنى كامناً فيه كأنه حقيقته ومحصوله ، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجرداً عن الإنسان كأنه غيره وهو هو بعينه كقولهم « لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر ، وهو عينه الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئاً منفصلاً عنه أو متميزاً منه ، ثم قال : وعلى هذا النمط كون الإنسان يخاطب نفسه حتى كأنه يقاول غيره كما فعل الأعشى فى « ودع هريرة إن الراكب مرتحل » [(١)].

* * *

والتجريد فائدتان هما :

(١) أن الإنسان بالتجريد يتمكن من إضفاء الصفات الحميدة على نفسه دون حرج ومن أين يأتيه الحرج وهو يخاطب غيره لا نفسه ، ويتكلم بحريته وراحته .

(٢) التوسع فى الكلام ، فالتجريد فى الظاهر خطاب لغيرك أو حديث عن غيرك ، وهو فى الحقيقة خطاب لنفسك أو حديث عن نفسك وفى هذا من التوسع فى الأداء ما لا يخفى على متأمل .

* * *

(١) القائل هو أبو على الفارسى وانظر علوم البلاغة للمراغى ص ٣١٣ والإيضاح للقزوينى جـ ٦ ص ٥٤ – ٥٩ .

إضاءة

يحسن التنبيه إلى أننى سأجعل المحسن التالى مدخلاً لى إلى عدد من وجوه التحسين المعنوى أراه على شاكلته ومن قبيله من حيث أنه كلام نقوله بسليقة الكلام التى ورثناها أو تعلمناها، أو أنها رست على شواطئنا من واقع بيئتنا وثقافتنا ففنمناها دون أن نبذل جهداً فيها ، حتى إذا قلنا أو كتبنا انعكس ذلك كله أو بعضه على ما نقول أو نكتب دون قصد مناله ، وبدون حرص منا عليه ، وربما دون معرفة علمية به ، إن هو إلا التعبير وفنونه ، وإن هو إلا التصرف اللبق مع الأفكار والأحاسيس ، وإن هى إلا التوفيق فى الربط بين الأفكار والأحاسيس من جهة ، والتعبير عنها من جهة على نحو يحقق التعادلية الواجبة لها فى أى شكل أدبى ، قصيدة أو مقالة أو قصة أو رواية أو مسرحية إلى آخر هذه الأشكال الأدبية التى تتوالى وتتوالد وتأخذ حظها من الدراسة الواعية حيناً وغير الواعية بل الذاهلة أحياناً .

يفرط بعضهم فى تحقيق ذاته فيفتعل أشياء ويعطى أسماء يصدق عليها قول الله تعالى: « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » وفى علم البديع من هذه الأشياء والأسماء الكثير الكثير .

فيه أسماء لوجوه من المحسنات البديعية ما كان ينبغى لها أن تكون : لأنه ليس لها مضمون ، وإن وجد فهو شئ عادى نقوله بحكم أننا نقول لا بحكم أننا أدباء بارعون وشعراء بلغاء . من ذلك .

الهزل الذى يراد به الجد

يقرر القزوينى أن ترجمته تغنى عن تفسيره ، والحمد لله لقد شهد شاهد من أهله .

أما ما مثل له به فقول أبى نواس :

إذا ما تميمى أتاك مفاخراً   فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

وقول امرئ القيس :

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها   بأن الفتى يهذى وليس بفعال

هذا ما هنالك بل كل ما هنالك : عنوان وأسطر ثلاثة فى كتاب الإيضاح جـ ٦ ص ٨٤

والبيتان هجاء تهكمي واضح ، فالضب لا يأكله أشراف الناس ، أما « ليس بفعال » فالمعنى في بطن الشاعر ، وأظنه يشنع على غريمه بتقصيره فيما لا تعلمه إلا سلمى .

التفريع

وهو أن يثبت لمتعلق أمر حكم بعد إثباته لمتعلق له آخر كقول الكميت :

أحلامكم لسقام الجهل شافية   كما دماؤكم تشفي من الكلب

فرع من وصفهم بشفاء أحلامهم لسقام الجهل ، وصفهم بشفاء دمائهم من داء الكلب انتهى التفريع في كتاب الإيضاح جـ ٦ ص ٧٤ .

أسأل ما رأي النقاد دارسي البلاغة العربية في جعل شاهد هذا التفريع - وهو مدح غليظ فج - محسناً بديعياً معنوياً وصورةً بلاغية جديرة بأن تفرد بالدراسة ؟!

الاستتباع

قالوا : هو المدح بشئ على وجه يستتبع المدح بشئ آخر .

هذا تعريفه .

أما مثاله فهو بيت المتنبي :

نهبت من الأعمار ما لو حويته   لهنئت الدنيا بأنك خالد

يقول القزويني : « فإنه مدحه ببلوغه النهاية في الشجاعة ، إذ كثر قتلاه بحيث لو ورث أعمارهم لخلد في الدنيا على وجه استتبع مدحه بكونه سبباً لصلاح الدنيا ونظامها حيث جعل الدنيا مهنأة بخلوده » .

ثم يضيف : قال علي بن عيسى الربعي : وفيه وجهان آخران من المدح :

أحدهما : أنه نهب الأعمار دون الأموال .

الثاني : أنه لم يكن ظالماً في قتل أحد من مقتوليه ، لأنه لم يقصد بذلك إلا صلاح الدنيا وأهلها فهم مسرورون ببقائه .

انتهى الاستتباع في كتاب الإيضاح جـ ٦ ص ٧٩ .

والمسألة أن بيت المتنبي من أبيات المعاني وتمحل محسن بديعي معنوى فيه يطمع كل فارغ في تلمس مثل ذلك من مظانه ومن غير مظانه ، والنتيجة تخمة بلاغية وخيمة العواقب .

الجمع

وهو أن يُجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد كقوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » وقول أبي العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

وقول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحق والقمر

انتهى الجمع وما هو إلا مبتدأ وخبر أو ما أصله المبتدأ والخبر مع تعدد في أحد ركني الجملة أو فيهما معاً ، وسامح الله السكاكي والقزويني ومن لف لفهما وحذا حذوهما [1] .

التفريق

وهو إيقاع تباين بين أمرين من نوع واحد في المدح أو في غيره كقول الوطواط :

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يوم سخاء

فنوال الأمير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء

وقوله أيضاً :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شكلين

أنت إذا جدت ضاحك أبدا وهو إذا جاد دامع العين

غفر الله لرشيد الدين ، فقد أمد السكاكي والقزويني وغيرهما بهذين المثالين للتفريق [2] .

التقسيم

عرفه السكاكي بقوله هو أن تذكر شيئاً ذا جزأين أو أكثر ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو له عندك كقوله :

---

(١) المفتاح ص ١٧٩ والإيضاح جـ ٦ ص ٤٦ .

(٢) المفتاح ص ١٧٩ ـ ١٨٠ ، والإيضاح جـ ٦ ص ٤٧ .

أديبان فى بلخ لا يأكلان إذا صحبا المرء غير الكبد

فهذا طويل كظل القناة وهذا قصير كظل الوتد [1]

وعرفه القزوينى بأنه ذكر متعدد ، ثم إضافة ما لكل إليه على التعيين ومثل له ببيتى البحترى :

فما هو إلا الوحى أو حد مرهف تميل ظباه أخدعى كل مائل

فهذا دواء الداء من كل عالم وهذا دواء الداء من كل جاهل

وببيتى المتلمس :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان عير الحى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشج فلا يرثى له أحد

الجمع مع التفريق

وهو أن يُدخَل شيئان فى معنى واحد ، ويُفرق بين جهتى الإدخال .

كقول الوطواط :

فوجهك كالنار فى ضوئها وقلبى كالنار فى حرها

شبه وجه الحبيب وقلب نفسه بالنار ، وفرق بين وجهى المشابهة .

ومنه قوله تعالى : « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » [2].

المزاوجة

وهى أن يزاوج بين معنيين فى الشرط والجزاء كقول البحترى :

إذا ما نهى الناهى فلج بى الهوى أصاخت إلى الواشى فلج بها الهجر

---

(١) المفتاح ص ١٨٠ ولا يأكلان غير الكبد كناية عن الغيبة وسوء العشرة أو وصف لهما بسوء المأكل .

(٢) المفتاح ص ١٨٠ والإيضاح جـ ٦ ص ٤٩ .

وقوله أيضاً :

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها [1]

اللف والنشر

وهما يذكراني في البلاغة بمضعف الثلاثي ومضعف الرباعي في الصرف ولما كنت ومازلت لا أحب الصرف ، فإني أتخطاهما ، وعلى من أراد التفرج عليهما أن يرجع إلى المفتاح ص ١٧٩ وإلى الإيضاح جـ ٦ ص ٤٧ .

العكس

وهو أن يقدم في الكلام جزء ثم يؤخر .

ويقع على وجوه ثلاثة :

الأول كقولهم : عادات السادات سادات العادات .

والثاني : كقول الله تعالى : « يخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي » .

والثالث : كقوله تعالى : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » .

هـذا هـو **العكس** ولـولا أن التمثيل للوجهين الأخيرين فيه من القرآن الكريم لقلت (**الوكس**) في أساس البلاغة أوكس الرجل ذهب ماله ، ورجل أوكس قليل الحظ ، وليلة الوكس هي ليلة دخول القمر في نجم منحوس ، وبرئت الشجة على وكس : على مدة في جوفها، ويقال للطبيب انظر : إن كان فيها وكس فأخرجه » [2] .

ومَنْ لنا في البلاغة بمن نقول له :

« اقصد إلى مافيها من وكس فأخرجه » ، وما سيخرجه من وكس كثير كثير من ذلك العكس ، واللف ، والنشر ، والمزاوجة ، والجمع ، والتفريق ، والتقسيم ، والجمع مـع التفريق ، والجمع مع التقسيم ، والجمع مع التفريق والتقسيم ، والتفريع ، والاستتباع ، والجد الذى يراد به الهزل إلى آخر ما في البلاغة العربية من وكس .

* * *

---

(١) المفتاح ص ١٧٩ والإيضاح جـ ٦ ص ٣٤ - ٣٥ ودلائل الإعجاز ص ٧٤ - ٧٥ .

(٢) ص ٥٠٨ .

مسك الختام للمحسنات المعنوية

بعد ما ذكرناه من الوجوه الجادة وغير الجادة للتحسين المعنوى نتفكه بمحسن بديعى جاء فى كتب البلاغة ختاماً للمحسنات المعنوية ، وبعده المحسنات اللفظية ـ على الأعراف أعنى .

والحقيقة أنه كالمشاكلة ، بل أولى منها فى وجوب سلكه فى المحسنات اللفظية ، ولو كان الأمر بيدى لأمرت بطرده من وجوه التحسين جملة . أقول بطرده وهى ليست من عندى ، بل من عنده ، أقصد من عند هذا المحسن البديعى المغضوب عليه ، ذلك أن اسمه (الاطراد) .

والطرد والاطراد أصلهما اللغوى واحد هو مادة (ط . ر . د) .

قال الجرجانى : وهو ذكر نسب إنسان على الترتيب كقول النبى ﷺ : « الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » وقول دريد بن الصمة:

قتلنا بعبد الله خير لداته ذؤاب بن إسماعيل بن زيد بن قارب

قيل لما سمعه عبد الملك بن مروان قال : « لولا القافية لبلغ به آدم » [1] .

أما أنا فقد وجدت فى نسخة الطلب من كتاب الإيضاح بخطى ما يأتى :

لما جئت إلى الدنيا فى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٢٢ م سمانى أبى على اسم والده (أحمد) لكن القابلة ـ سامحها الله ـ كتبتنى فى سجل المواليد (عبده) ، ربما لأنها كانت طربة أو غزلة أو هما معاً .

وبهذا صار اسمى عبده عبد العزيز أحمد حسن على قلقيلة ، ولا تسعنى الفرحة ، فاسمى الرسمى ـ ولست فى ذلك وحدى ـ محسن بديعى معنوى هو الاطراد » .

* * *

أما بعد :

فلم يبق من وجوه التحسين المعنوى مما أورده السكاكى والقزوينى ومحمد الجرجانى إلا تسعة أنواع هى :

التوجيه والإدماج والمبالغة والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والتقسيم والاستطراد والاستخدام والنقض والمزاوجة .

تركتها لعدم اقتناعى بها ، فهى ـ كالهزل الذى يراد به الجد وما بعده ـ كلام عادى ، إذا لم نقله فماذا نقول ؟!

واحتراماً لعقلى وعقلك ، وحرصاً على وقتى ووقتك ، ثم توفيراً للحبر والورق والجهد والعرق أتوقف .

* * *

---

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٨ .

المحسنات اللفظية

الجناس

هو تشابه كلمتين فى النطق واختلافهما فى المعنى .

وبتتبعه فى كتب البلاغة والأدب وجدنا أنه ينقسم قسمين رئيسيين هما : الجناس التام والجناس غير التام ، وأن الجناس التام هو ما اتفق طرفاه في أربعة أمور هى :

١ – جنس الحروف .

٢ – عدد الحروف .

٣ – ضبط الحروف .

٤ – ترتيب الحروف .

أما غير التام فهو ما اختلف طرفاه فى واحد من الأربعة المتقدمة .

* * *

ولتتضح معالم الجناسين التام وغير التام سنفرد كلاً منهما بدراسة خاصة به على الوجه الآتى :

أولاً :

الجناس التام

هذا الجناس ثلاثة أضرب هى :

(١) المماثل .

(٢) المستوفى .

(٣) المركب .

– ١ –

المماثل

وهو ما كانت الكلمات فيه من نوع واحد : اسمين أو فعلين أو حرفين .

مثال الاسمين :

قول الله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » الجناس فى (الساعة) و (ساعة) ولا التفات إلى أداة التعريف (أل) لأنها ليست أصلاً فى بنية الكلمة .

وواضح أن الكلمتين قد اتفقتا لفظاً واختلفتا معنى ، فمعنى الأولى : يوم القيامة ومعنى الثانية بعض الوقت .

وقوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

(الأبصار) الأولى معناها : العيون ، والثانية معناها : العقول .

وقول أبى سعيد المخزومى :

حدق الآجال آجال والهوى للمرء قتال

الأول : جمع إِجْل وهو القطيع من بقر الوحش ، والثانى جمع أَجَل وهو نهاية العمر .

وقول أبى تمام :

إذا الخيل جابت قسطل الحرب صدعوا صدور العوالى فى صدور الكتائب

(قسطل الحرب غبارها ، وصدعوا أمالوا ، والجناس فى (صدور) و (صدور) فالأولى أعالى الرماح والثانية نحور الجنود) .

وقول البحترى :

إذا العين راحت وهى عين على الجوى فليس بسرٍّ ما تُسرُّ الأضالع

فالعين الأولى الباصرة ، والثانية الجاسوس .

ومثال الفعلين :

قول أبى محمد الخازن :

قوم لو انهم ارتاضوا لما قرضوا أو أنهم شعروا بالنقص ما شعروا

والجناس فى (شعروا) وما (شعروا) فهما فعلان ماضيان لكن الأول معناه (أحسوا) والثانى معناه (نظموا الشعر) .

وقول الشاعر :

يا إخوتى مذ بانت النجب وجب الفؤاد وكان لا يجب

فارقتكم وبقيت بعدكم ما هكذا كان الذى يجب

(يجب) التى فى آخر البيت الأول من الوجيب وهو الخفقان ، والتى فى آخر البيت الثانى من الوجوب وهو الحتم .

ومثال الحرفين :

قول بعضهم « من الناس من يعمل من أول النهار إلى آخره » .

والجناس فى (مِن) و (مِن) فالأولى تفيد التبعيض أى بعض الناس والثانية تفيد التوقيت أى ابتداء من أول النهار .

ومثل (من) (قد) فى « قد ينزل المطر شتاء وقد ينزل صيفاً » .

و (قد) الأولى للتكثير والثانية للتقليل .

٢
المستوفى

وهو ما كانت كلمتاه من نوعين مختلفين بأن تكون إحداهما اسماً والأخرى فعلاً أو بأن تكون إحداهما حرفاً والأخرى اسماً أو فعلاً .

فمن أمثلة الجناس المستوفى بين اسم وفعل قول أبى تمام :

ما مات من كرم الزمان فإنه ... يحيا لدى يحيى بن عبد الله

(اختلاف الرسم بسبب الإملاء لا يؤثر على الجناس لأن العبرة فيه بالنطق لا بالكتابة)

وقول أبى العلاء :

لو زارنا طيف ذات الخال أحيانا ... ونحن فى حفر الأجداث أحيانا

(أحياناً) الأولى بمعنى فى بعض الأوقات و (أحيانا) الثانية فعل ماض معناه ردنا إلى الحياة .

وقول ابن رشيق :

إذا رماك الدهر فى معشر ... قد أجمع الناس على بغضهم

فدارهم ما دمت فى دارهم ... وأرضهم ما دمت فى أرضهم

(فدارهم) فعل أمر من المداراة و (دارهم) هى الدار بمعنى البيت وكذلك (وأرضهم) و (فى أرضهم) .

ومن أمثلة الجناس المستوفى بين فعل وحرف قول الشاعر :

علا نجمه فى عالم الشعر فجأة   على أنه مازال فى الشعر شادياً

والجناس فى (علا) الأولى فهى فعل ماض من العلو ، و (على) الثانية فهى حرف جر.
وقول الآخر :

ولو أن وصلاً عللوه بقربه   لما أنَّ من حمل الصبابة والجوى

والجناس هذه المرة فى (أن) الأولى وهى حرف توكيد ونصب ، و (أن) الثانية وهى فعل ماض من الأنين .

٣

المركب

وهو ما كان أحد طرفيه مفرداً والآخر مركباً .

والمركب ـ كأصله التام ـ ثلاثة أضرب هى :

(أ) المرفو :

وهو ما كان طرفه المركب مركباً من كلمة وبعض كلمة كقول الحريرى :

ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه   بدمع يحاكى الوبل حال مصابه
ومثِّلْ لعينيْكَ الحِمامَ ووقعَهُ   وروعة ملقاه ومطعم صابه

الجناس فى كلمة (مصابه) المفردة فى نهاية البيت الأول و (م صابه) المركبة من الميم الأخيرة فى كلمة (مطعم) وكلمة صابه فى آخر البيت الثانى .

وقوله أيضاً :

والمكر مهما استطعت لا تأته   لتقتنى السؤدد والمكرمه

الجناس بين (المكر) فى أول البيت مضافاً إليه الميم والهاء من (مهما) وكلمة (المكرمه) فى آخر البيت .

(ب) المتشابه :

وهو ما كان طرفه المركب مركباً من كلمتين كاملتين أولا وأشبه طرفه المفرد لفظاً وخطاً ثانياً .

كقول أبى الفتح البستى :

إذا ملك لم يكن ذا هبة   فدعه فدولته ذاهبه

الأولى مركبة من مضاف هو (ذا) بمعنى صاحب ومضاف إليه هو (هبة) أى عطية والثانية كلمة مفردة اسم فاعل من ذهب أو من الذهاب بمعنى مولية .

وقول الآخر :

عضنا الدهر بنابه   ليت ما حل بنا به

الجناس فى (بنابه) وهى كلمة واحدة معناها بضرسه و (بنابه) فى آخر البيت وهى مركبة (بنا) جار ومجرور ، (به) جار ومجرور كذلك أى ليت الذى نزل بنا نزل به .

(جـ) المفروق :

وهو كالمتشابه فى أن أحد طرفيه مركب من كلمتين كاملتين والفرق بينهما أن التشابه هنا فى النطق فقط أى دون الكتابة كقول أبى الفتح البستى أيضاً :

كلكلم قد أخذ الجا   م ولاجـام لنـا
ما الذى ضر مدير الـ   جـام لـو جاملنا

والجناس بين (جام لنا) فى نهاية البيت الأول وهو مركب من كلمتين هما (جام) و (لنا) و (جاملنا) فى نهاية البيت الثانى وهى كلمة واحدة من المجاملة .

والطرفان متشابهان لفظاً لا خطاً كما نرى .

وقول المطوعى :

لا تعرضن على الرواة قصيدة   ما لم تكن بالغت فى تهذيبها
فمتى عرضت الشعر غير مهذب   عدوه منك وساوساً تهذى بها

والجناس فى (تهذيبها) بمعنى تنقيحها فى نهاية البيت الأول و (تهذى بها) من الهذيان فى نهاية البيت الثانى ، وهما متشابهان لفظاً لا خطاً مع اختلافهما معنى .

وقول ابن أسد الفارقى :

غدونا بآمال ورحنا بخيبة   أماتت لنا أفهامنا والقرائحا
فلا تلق منا غادياً نحو حاجة   لتسأله عن حاجة والق رائحا

والجناس بين (والقرائحا) فى نهاية البيت الأول جمع قريحة و (القِ رائحا) فعل أمر ومفعول به فى نهاية البيت الثانى ، وقد اتفقا لفظاً واختلفا خطا وقول بهاء الدين السبكى :

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهى   حتى تعود لى الحياة وأنت هى

والجناس بين (أنتهى) فعل مضارع فى نهاية الشطر الأول ، و (أنت هى) مبتدأ وخبر فى نهاية الشطر الثانى ، وهما مختلفان خطاً ومتفقان نطقاً .

* * *

انتهى الجناس التام بأقسامه : المماثل والمستوفى والمركب ، وبتفريعات المركب وهى : المرفو والمتشابه والمفروق .

وقد علق القزوينى عليه بقوله : « ووجه حسن هذا القسم أعنى التام حسن الإفادة مع أن الصورة صورة الإعادة » .

وهى مقولة مختصرة عن مقولة مطولة لعبد القاهر (1) .

ثانياً : الجناس غير التام

وهو ما اختلفت كلمتاه فى واحد من الأمور الأربعة الواجب توافرها فى الجناس التام وهى :

(أ) جنس الحروف .

(ب) عدد الحروف .

(جـ) ضبط الحروف .

(د) ترتيب الحروف .

(أ)

فإن اختلفت الكلمتان فى جنس الحروف المكونة لهما وهذا الاختلاف مسموح به فى حرف واحد فقط ، إذا اختلفت كلمتا الجناس فى حرف واحد من حيث نوعه فإن الجناس فى هذه الحالة يتوزع على ثلاثة أقسام هى :

---

(1) الإيضاح جـ ٦ ص ٩٤ وأسرار البلاغة ص ٣ - ١٣ .

١
المضارع

وهو ما كان الحرفان المختلفان فيه متقاربين فى مخرجيهما سواء كانا فى أول الكلمتين كقول الحريرى : « بينى وبين كنى ليل دامس وطريق طامس » والحرفان هما الدال فى (دامس) والطاء فى (طامس) .

أو فى وسطهما كقوله تعالى : « وهم ينهون عنه وينأون عنه » والحرفان هما الهاء فى (ينهون) والهمزة فى (ينأون) وقولهم « البرايا أهداف البلايا » والحرفان هما الراء فى (البرايا) واللام فى (البلايا) .

أو فى آخرهما كقول النبى ﷺ : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة » . والحرفان هما اللام فى (الخيل) والراء فى (الخير) .

* * *

٢
اللاحق

وهو ما كان الحرفان المختلفان فيه متباعدين فى مخرجيهما سواء كانا فى أول الكلمتين كقوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » والحرفان هما الهاء فى (همزة) واللازم فى (لمزة) ، وقول بعضهم : « رب وضى غير رضى » والحرفان هما الواو فى (وضى) والراء في (رضى) ، وقول الحريرى « لا أعطى زمامى لمن يخفر ذمامى » والحرفان هما الزاى والذال .

أو فى وسطهما كقوله تعالى : « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون » والحرفان هما الفاء فى (تفرحون) والميم فى (تمرحون) وقوله تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » والحرفان هما الهاء فى (لشهيد) والدال فى (لشديد) .

أو فى آخرهما كقول الله تعالى : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » والحرفان هما الراء فى (أمر) والنون فى (أمن) وقول البحترى :

هل لما فات من تلاق تلاف ... أم لشاك من الصبابة شاف

والحرفان هما القاف فى (تلاق) والفاء فى (تلاف) ثم الكاف فى (شاك) والفاء فى (شاف) .

٣

المصحف

وهو ما كان اختلاف الحرفين فى الكلمتين بسبب النقط فقط كالقاف والفاء ، والباء والياء، والنون والتاء ، والعين والغين ..

نجد ذلك فى قول النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه :

« قصِّر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى » ، وفى قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر إن فاتنى ربحه لم تفتنى ريحه » .

كما نجده فى قول أبى فراس الحمدانى :

من بحر جودك أغترف ... وبفضل علمك أعترف

وقول البهاء زهير :

وأعجبنى التجنيس بينى وبينه .·. فلما تبدى أشنباً رحت أشيبا

(ب)

وإن اختلفت الكلمتان فى عدد الحروف فإن الجناس يسمى ناقصاً ويكون على وجهين :

١

ما كانت الزيادة فى إحدى الكلمتين بحرف واحد سواء كان فى أول الكلمة كقول الله تعالى : « والتفت الساق بالساق ، إلى ربك يومئذ المساق » أو فى وسطها نحو « جدى جهدى » ، أو فى آخرها كقول البهاء زهير :

أشكو وأشكر فعله ... فاعجب لشاك منه شاكر

طرفى وطرف النجم فيـ ... ك كلاهما ساه وساهر

وقول البحترى :

لئــن صدفــت عنــا فربــة أنفــس صـواد إلى تلك الوجوه الصوادف

وقول أبى تمام :

يمـدون من أيد عـواص عواصـم تصول بأسياف قواض قواضب

ومنه الأبيات التى كتبها المعتمد بن عباد إلى محمد بن الطيب المصرى يدعوه إلى مجلس أنس له وهى :

أيها الصـاحب الذى فارقت عيـ ـنى ونفسـى منه السنا والسناء

نحن فى المجلس الذى يهب الرا حـة والمسمـع الغنـى والغنـاء

نتعاطـى التـى تنسـى من اللذة والرقـــة الهــــوى والهـــواء

فأتـــه تلـــق راحـــة ومحيـــا قـد أعـداً لك الحـيا والحـياء

ويسمى هذا الأخير مطرفا لتطرف الزيادة فيه .

ولقد كان عبد القاهر معجباً به ، ها هو ذا يقول فى تقريظه :

وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة كالميم من (عواصم) والباء من (قواضب) أنها هى التى مضت ، وقد أرادت أن تجيئك ثانية ، وتعود إليك مؤكدة ، حتى إذا تمكن من نفسك تمامها ووعى سمعك آخرها انصرفت عن ظنك الأول ، وزلت عن الذى سبق من التخيل ، وفى ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال » (١) .

٢

ما كانت الزيادة فى إحدى كلمتيه بأكثر من حرف فى آخرها ويسمى مذيلاً :

كقول النابغة الذبيانى :

لهم نار جن بعد إنــس تحــولوا وزال بهـم صرف النوى والنوائب

---

(١) أسرار البلاغة ص ١٣ .

وقوله أيضاً :

فيالك من حزم وعزم طواهما جديد الردى بين الصفا والصفائح

وقول حسان رضى الله عنه :

وكنا متى يغز النبى قبيلة نصل جانبيه بالقنا والقنابل

وقول الخنساء :

إن البكاء هو الشفا ء من الجوى بين الجوانح

(ج)

وإن اختلفت كلمتا الجناس فى ضبط حرف أو حرفين لا أكثر فهو الجناس المحرف .

مثال اختلاف الضبط فى حرف واحد .

قول الله تعالى : « ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » .

وقول النبى ﷺ : « جُبة البرد جُنة البرد » .

وقول ابن الفارض :

هلا نَهاك نُهاك عن لوم امرئ لم يلْف غير منعم بشقاء

وقول عبد العزيز الحموى :

لعينى كل يوم فيك عَبره تصيرنى لأهل العشق عِبره

ومثال اختلاف الضبط فى حرفين :

قول النبى ﷺ : « اللهم كما حسنت خَلْقى حسن خُلُقى » .

وقول المعرى :

والحسن يظهر فى بيتين رونقه بيت من الشَّعر أو بيت من الشِّعر

(د)

وإن اختلفت الكلمات فى ترتيب الحروف سمى الجناس.

جناس القلب أو جناس العكس

وهو ثلاثة أضرب هى :

١

قلب كل

وذلك إذا كانت كلمتا التجنيس متعاكستين لفظاً كقولهم : « حسامه (فتح) لأوليائه (حتف) لأعدائه » .

(حتف) مقلوب (فتح) و (فتح) مقلوب (حتف) .

وهو هو قول العباس بن الأحنف :

حسامك فيه للأحباب فتح ورمحك فيه للأعداء حتف

ومن بديع قلب الكل قول ابن نباتة فى مدح الأمير بهرام :

قيل كل القلوب مِنْ رهب الحرب تضطرب
قلت هذا تخرص قلب بهرام ما رهب

والشاهد فى (بهرام) فهو معكوس (ما رهب) أو فى (ما رهب) فهو معكوس (بهرام) .

* * *

ومن قلب الكل ما يسمى (المقلوب المجنح) .

وهو ما وقعت إحدى كلمتيه فى أول البيت والأخرى فى آخره ، وقد سمى بذلك لأنهما يكونان حينئذ بمثابة الجناحين للبيت .

كقول الشاب الظريف شمس الدين محمد بن العفيف :

ساق يرينى قلبه قسوة وكل ساق قلبه قاس

الجناس فى (ساق) فى أول البيت و (قاس) فى آخره ، والكلمتان متعاكستان ومتجانحتان .

وكقول الآخر :

لاح أنــوار الهــدى   من كفه فى كل حال

الشاهد فى (لاح) فى أول البيت و (حال) فى آخره فهما كذلك متعاكستان ومتجانحتان .

٢

قلب بعض

وهو ما اختلفت فيه الكلمتان فى ترتيب بعض الحروف دون بعض كما جاء فى الخبر : «اللهم استر عورتنا وآمن روعتنا» ، وكقول بعضهم : « رحم الله امرأً أمسك ما بين فكيه وأطلق ما بين كفيه » ، وكقول عبد الله ابن رواحة فى مدح المصطفى ﷺ .

تحمله الناقة الأدماء معتجراً   بالبُرد كالبدر جلّى نوره الظلما

وقول المتنبى :

ممنعــــــة منعمــــــة رداح   يكلف لفظها الطير الوقوعا (١)

وقول الآخر :

إن بيـن الضلـوع منـى نـاراً   تتلظـى فكيف لى أن أطيقا (٢)

فبحقـى عليـك يـا مـن سقانى   أرحيقـاً سقيتنـى أم حريقـا

فى الأمثلة الأربعة السابقة وقع الجناس بين كلمتين مختلفتين فى ترتيب بعض الحروف لا فى كلها ، وقد سمى لذلك (قلب بعض) .

٣

الجناس المستوى

وهو لا يبعد عن قلب الكل بل قد سماه السكاكي مقلوب الكل ، وسماه الحريرى (ما لا يستحيل بالانعكاس) وفى هذه التسمية للحريرى يكمن الفرق بينه وبين قلب الكل ، فالأول يختلف فيه معنى الكلمتين بالقلب (فتح) (حتف) (بهرام) (ما رهب) .

---

(١) الأدماء : شديدة البياض ، واعتجر العمامة : لفها حول رأسه .

(٢) الرداح : ممتلئة الجسم بعامة والنصف الأسفل منه بخاصة .

أما في الجناس المستوى فإنه كما قال الحريرى . « لا يستحيل بالانعكاس » أى لا يتحول معناه بالانعكاس عما عرفناه قبل الانعكاس ، بل يبقى هو هو ، ويكون عكس كلمتى الجناس كطردهما فى أنه تمكن قراءتهما من آخرهما كما تمكن قراءتهما من أولهما دون أن يتغير المعنى مثل : « كل فى فلك » ، (ربك فكبر) وقول عماد الدين الكاتب للقاضى الفاضل: « سر فلا كبابك الفرس » وقول القاضى الأرجانى :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

فكل نص من النصوص السابقة يُقرأ طرداً ويقرأ عكساً مع احتفاظ الكلام بمعناه فى القراءتين .

* * *

ومن الإمعان غير المحمود فى تقسيمات الجناس :

تقسيمه إلى جناس عادى هو كل ما سبق ، وجناس غير عادى سموه **الملفق** : وهو ما كان طرفاه مركبين من كلمتين .

ومن لطيفه قول القاضى عبد الباقى بن أبى حصين الذى ولِّى القضاى بمعرة النعمان خمس سنين وكان حين ولى ابن خمس وعشرين :

وليت الحكم خمساً وهى خُمْسٌ لعَمْرِى والصبا فى العنفوان

فلم تضع الأعادى (قد رشانى) ولا قالوا فلان (قد رشانى)

وألطف منه قول شرف الدين بن عنين :

خبروها بأنه (ما تصدى) لسلوٌ عنها ولو (مات صداً)

وأيضاً بتقسيمه إلى جناس **لفظى** هو كل ما سبق .

ومعنوى :

نظمه السيد على صدر الدين بن معصوم المدنى فى بديعيته بقوله :

قدرى أبو حسن يا معنوى بهم ووصف حالى ابنه حال بحبهم

وشرحه فقال :

« أردت علياً وحسناً أى قدرى عليٌ بهم ووصف حالى حسن ، فحصل جناسان دل عليهما كنايات الألفاظ الظاهرة أحدهما فى صدر البيت وهو (علىٌ وعلىٌ) والثانى فى عجزه وهو (حسن حسن) [1] .

وها هو ذا يعرف به فى قوله : من أنواع الجناس الجناس المعنوى وهو قسمان : تجنيس إضمار ، وتجنيس إشارة .

فتجنيس الإضمار هو أن يضمر المتكلم ركنى الجناس ويظهر فى اللفظ ما يرادف أحد الركنين ليدل على ما أضمره ، فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه إشارة لطيفة تدل على ذلك المضمر ، كقول أبى بكر بن عبدون وقد اصطبح بخمرة وترك بعضها إلى الليل فصار خلا :

ألا فى سبيل اللهو كأس مدامة   أتتنا بطعم عهده غير ثابت

حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة   وأمست كجسم الشنفرى بعد ثابت

بنت بسطام بن قيس اسمها الصهباء ، وقوله « كجسم الشنفرى بعد ثابت » أشار به إلى قول الشنفرى يرثى خاله تأبط شراً واسمه ثابت :

فاسقنيها أيا سواد بن عمرو   إن جسمى من بعد خالى بخل

والخل : النحيف المهزول ، فصح معه جناسان مضمران فى صدر البيت وعجزه .

الأول (صهباء وصهباء) والثانى (خل وخل) [2] .

* * *

أما تجنيس الإشارة ويسمى أيضاً تجنيس الكناية فهو ما ذكر فيه أحد ركنى الجناس وأشير إلى الآخر بلفظ يدل عليه من صفة أو عكس أو تصحيف أو مرادف كقول الشاعر :

وتحت البراقع مقلوبها   تدب على ورد خدٍ ندى

كنى عن العقارب بمقلوب البراقع ، ولا شك أن بين اللفظ المصرح به والمكنى عنه وهو المشار إليه تجانساً [3] .

---

(1) أنوار الربيع ص ٢١٧ .

(2) السابق نفسه ص ٢٠٩ .

(3) السابق نفسه ص ٢١٩ .

وكقول الآخر :

يا حمزة اسمع بوصل ... وامنن علينا بقرب
فى ثغرك اسمك أضحى ... مصحفاً وبقلبى

فقد ذكر أحد المتجانسين وهو (حمزة) وأشار إلى الجناس فيه بأن مصحفه فى ثغره أى (خمره) وفى قلبه أى (جمرة) [1] .

يقول ابن معصوم : « وقل من ذكر هذا النوع (الجناس المعنوى بشقيه) وهو عزيز الوجود جداً ، وأكثر من ألف فى المعانى والبيان أغفل ذكره ، فلم يذكره السكاكى فى مفتاحه ، ولا القزوينى في تلخيصه ولا إيضاحه ، ولا ابن رشيق فى العمدة ، ولا ابن أبى الإصبع فى تحريره على تبحره ، ولا ابن منقذ فى كتابه » [2] .

وأقول للسيد على : لم يذكروه لأنهم لم يكونوا من أصحاب البديعيات المتكثرين بالمحسنات أولاً ، ولأنهم حرصوا على أن يظل الجناس من وجوه التحسين اللفظى ثانياً .

والحق أن الجناس المعنوى يغادر الدفاتر ليوشوش الشاعر بما لا يعرفه القارئ ولا السامع .

ومن تداعى المعانى أننى ذكرت به ما عول عليه إليوت فى الأداء الأدبى وسماه المعادل الموضوعى .

* * *

وننبه إلى أن القزوينى قد أعطى ثلاثة أسماء لأى تجنيس يلى فيه أحد المتجانسين الآخر كقوله تعالى : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » وكما جاء فى الخبر « المؤمنون هينون لينون » وكقولهم « من جد وجد ، ومن قرع باباً ولج ولج » .

وكما سبق فى الجناس المطرف من قول أبى تمام :

يمدون من أيد عواص عواصم ... تصول بأسياف قواض قواضب

والأسماء الثلاثة هى :

---

(١) جواهر البلاغة للسيد أحمد الهاشمى الطبعة السادسة ص ٣٢٦ .

(٢) أنوار الربيع ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

ولأن هذه الأسماء مترادفة فإن واحداً منها يكفى مصطلحاً للظاهرة البلاغية ، ولو كان الأمر لي ما رصدت الظاهرة ولا سميتها ، فالظاهرة عادية وثلاثة الأسماء المقترحة لها غير كاشفة .

* * *

وكأن كل ما سبق من الجناس لم يكف ولم يشف ، ها هو ذا القزوينى يلحق شيئين به ، ولندعه هو يتكلم قال :

واعلم أنه يلحق بالجناس شيئان :

أحدهما : أن يجمع اللفظين الاشتقاق [1] كقول الله تعالى : «فأقم وجهك للدين القيم» وقوله تعالى : « فروح وريحان » وقول النبى ﷺ : « الظلم ظلمات يوم القيامة » وقول الشافعى رضى الله عنه ـ أو غيره ـ وقد سئل عن النبيذ : « أجمع أهل الحرمين على تحريمه » وقول أبى تمام :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

وقول البحترى :

يعشى عن المجد الغبى ولن ترى فى سؤدد أربا لغير أريب

وقول محمد بن وهيب :

قسمت صروف الدهر بأساً ونائلاً فمالك موتور وسيفك واتر

والثاني:

أن يجمعهما المشابهة وهى ما يشبه الاشتقاق وليس به كقول الله تعالى : « اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » وقوله تعالى : « قال : إنى لعملكم من القالين » ، وقوله تعالى : « وجنى الجنتين دان » .

وقول البحترى :

وإذا ما رياح جودك هبت صار قول العذول فيك هباء [2]

* * *

(١) الاشتقاق هو توافق الكلمتين فى الحروف الأصول مع الاتفاق فى أصل المعنى .

(٢) الإيضاح جـ ٦ ص ٩٩ - ١٠٠ .

انتزى الجناس بأقسامه وتفريعاته ، وبتفريعات تفريعاته وملحقاته عددتها فوجدتها خمسة وعشرين لا يمارى عاقل فى أنها ترف وسرف ، لكأنه ليس أمامنا ولا وراءنا سوى الجناس بـ ـماحته القليلة وسماجته الكثيرة ، ومن رأيى أن نستغنى عن الدراسة الأكاديمية السابقة بدراسة لاحقة نقتصر فيها على الجناس اللفظى ، ونقسمه إلى تام وغير تام فقط .

* ما توافرت فى طرفيه الموافقات الأربع وهى :

جنس الحروف ، وعدد الحروف ، وضبط الحروف ، وترتيب الحروف ، **فهو الجناس التام**.

بلا دخول فى التفصيلات والتسميات .

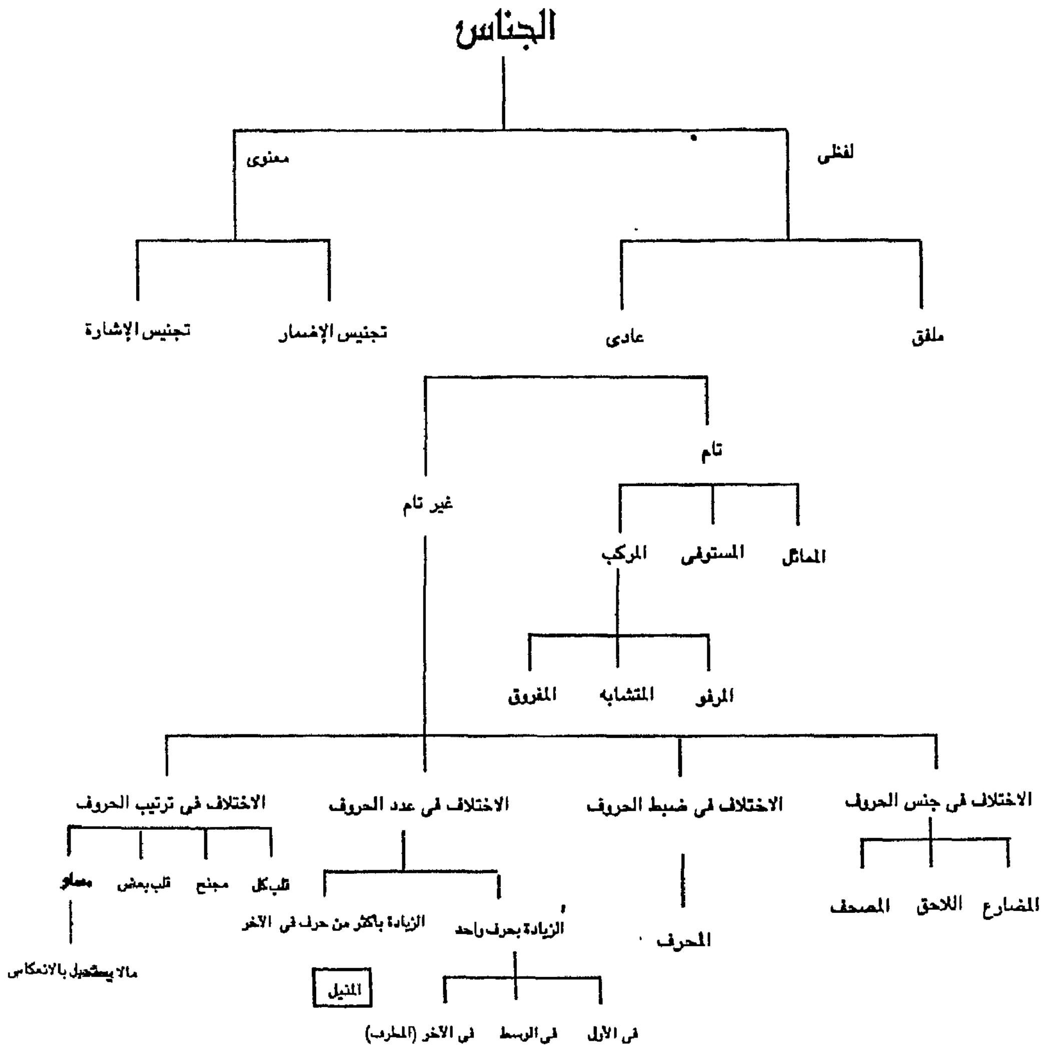
* وما تخلفت عن طرفيه موافقة من الموافقات المتقدمة **فهو الجناس غير التام** دون دخول كذلك فى التفصيلات والتسميات .

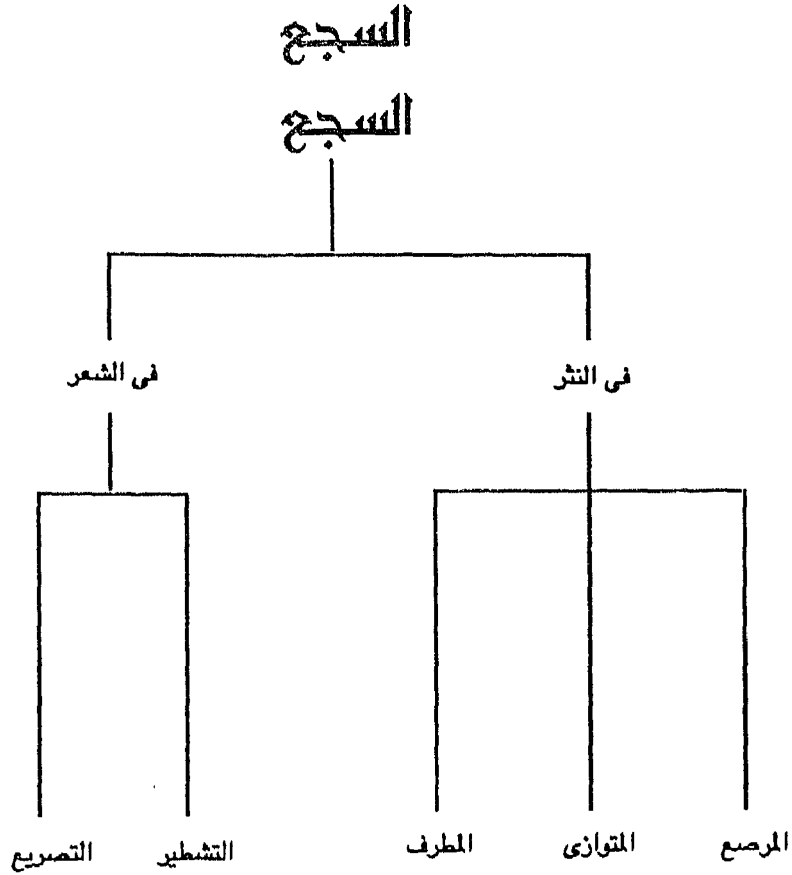
ويا حسرتا على ما فرطت فى جنب الراحة والإراحة [1] .

---

(1) الإشارات والتنبيهات ص ٢٨٩ – ١٩١ ، والإيضاح جـ ٦ ص ٩٠ – ١٠٠ وأنوار الربيع ص ٢٠٨ – ٢١٩ وعلم البديع للدكتور عتيق طبعة دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٤ ص ١٨٦ – ٢٠٥ وعلوم البلاغة العربية للمراغى ص ٣٣٠ – ٣٣٤ ، وجواهر البلاغة ص ٣١٩ – ٣٢٦، والتصوير البيانى للدكتور حفنى شرف ص ٢٥٣ وأسرار البلاغة ص ٢٥٣ – ٢٨٩ .

الجناس (رسم تخطيطي).





لنتفق من البدء على أن السجع محسن بديعى مجاله الأول النثر ومجاله الثانى الشعر ، هو قاسم مشترك بينهما لكنه فى النثر أكثر منه فى الشعر ، ومن الإنصاف القول بأن النثر أولى به من الشعر ، فقد ذهب الشعر بالوزن والقافية ، وهما موسيقى مزدوجة شقها الأول أفقى ممثلاً فى الوزن وشقها الثانى رأسى ممثلاً فى القافية .

ولنتفق من البدء على تحديد معانى الكلمات التى سيجرى القلم بها هنا كثيراً وهى القرينة ، الفاصلة ، السجع .

والأمر سهل :

فالقرينة : قطعة من الكلام ـ جملة أو فقرة ـ جعلت مزاوجة لأخرى أى مقارنة لها ، ولعله من هنا جاء اسمها .

والفاصلة هى الكلمة الأخيرة فى القرينة .

أما السجع فقد عرفه القزوينى بأنه تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد . وهو تعريف غير دقيق ، لأنه لم يحدد الحرف الذى تواطأت الفاصلتان عليه ، وأحسن منه أن نقول : هو وحدة الحرف الأخير فى الفاصلتين .

وعبارة (من النثر) فى تعريف القزوينى هى التى جعلته يقول فى إثره (وهذا معنى قول السكاكى : « الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر » .

فقد فهم القزوينى كما فهم غيره تبعاً له من عبارة السكاكى أنه أى السكاكى يقصر السجع على النثر .

أما أنا فأرى أن السكاكى قد قصد بعبارته إحضار السجع إلى الذهن من أقصر الطرق وأيسرها ، ولم يقصد حبس السجع فى قمقم النثر .

لكأنه سـأل : ألا تعرفون القوافى ؟

ولكأنه أجيب : بلى نعرفها .

فعقب: الأسجاع فى النثر كالقوافى فى الشعر .

تعريف بالتنظير ، أو تشبيه غرضه بيان المشبه وهو السجع .

مع السجع فى النثر

للسجع فى النثر ثلاثة أضرب :

١ – الترصيع أو المرصع .

٢ – المتوازى .

٣ – المطرف .

١
المرصع

وهو يتحقق إذا كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية .

فمن الأول :

قول الحريرى : « فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه » .

وقول أبى الفضل الهمذانى : « إن بعد الكدر صفواً وبعد المطر صحواً » .

وقول أبى الفتح البستى : « ليكن إقدامك توكلاً وإحجامك تأملاً » .

وقول الحكيم : « من أطاع غضبه أضاع أدبه » .

ومن الثانى :

قول الله تعالى : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » .

وقوله تعالى : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » .

وقول ابن نباتة : « أيها الناس ، أسيموا القلوب فى رياض الحكم » .

وأديموا النحيب على بياض اللمم ، وأجيلوا الأفكار فى انقراض الأمم » .

وإنما سمى هذا النوع الترصيع أو المرصع « تشبيهاً له بجعل إحدى اللؤلؤتين فى العقد فى مقابلة الأخرى مثلها » [١] .

٢
المتوازى

والمتوازى هو ما اتفقت فيه الفاصلتان وزناً وتقفية .

كقول الله تعالى : « فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة » .

---

(١) مواهب الفتاح جـ ٣ ص ٩٦ .

وكقول النبى ﷺ : « اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم ، وأعوذ بك من شرورهم » وكـ... حصل الناطق والصامت وهلك الحاسد والشامت .

* * *

والفرق بين المرصع والمتوازى أن التوافق فى المرصع قد تحقق فى كل القرينتين أو أكثرهما كما رأينا ، أما هنا فقد أقتصر التوافق على الفاصلتين ، والشرط أن يتم فيهما وزناً وتقفية أى معاً ، أما فى غيرهما فلا يشترط أى منهما ، لكن قد توجد في القرينتين كلمات قليلة متوافقة مع مثيلاتها وزناً أو تقفية .

ولاقتصار التوافق فى المتوازى على الفاصلتين وزناً وتقفية وعدم اشتراطه فيما قبلهما ـ كله أو أكثره كالمرصع ـ كانت مرتبة المتوازى من الناحية البديعية تالية للمرصع .

٣

المطرف

وهو ما اتفقت فيه الفاصلتان تقفية لا وزناً كقوله تعالى : « مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطواراً » وقوله تعالى : « والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفاً » وواضح أن التوافق فى المطرف قد تقلص حتى اقتصر على روى القرينة وهو الحرف الأخير من فاصلتها ، فلا غرابة ـ وهذا حاله ـ أن تكون رتبته البديعية بعد أخويه : المرصع والمتوازى . يقول المغربى : « وإنما سمى مطرفاً ، لأنه خارج فى التوغل فى الحسن إلى الطرف بخلاف غيره ، أو لأن ما وقع به التوافق وهو الاتحاد بين الفاصلتين إنما هو الطرف وهو الحرف الأخير دون ما يعم وهو الوزن »[1] .

والتعليلان صحيحان وهما لذلك واردان .

مع السجع فى الشعر

سبق القول بأن السجع قد بسط جناحيه على النثر والشعر .

ومن أمثلته فى الشعر على وجه العموم قول الخنساء فى أخيها صخر :

---

(١) مواهب الفتاح جـ ٣ ص ٩٥ .

حامى الحقيقة محمود الطريقة مهـ ـدي الخليقة نفـاع وضـرار
جـواب قاصيـة جـزاز ناصيـة عقـاد ألويـة للجيـش جـرار

وقول مروان بن أبى حفصة :

هـم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا أجـابوا وإن أعطـوا أطابـوا وأجـزلوا

وقول أبى تمام :

تجلى به رشدى وأثرت به يدى وفاض به ثمدى وأورى به زندى [1]

وقول أبى فراس :

وأفعالنا للراغبين كريمـة وأموالنـا للطالبين نهاب

وقول المتنبى :

فنحن فى جذل والروم فى وجل والبر في شغل والبحر فى خجل

ومن أكمله قول الشاعر :

ومكارم أوليتها متورعـاً وجرائم ألغيتها متبرعاً

هذه الأمثلة وغيرها تعطى حكماً قاطعاً بوجود السجع فى الشعر لا بقلة بل بكثرة : وإنه لمن السهل التمثيل بالشعر لضروب السجع فى النثر ، لكن البلاغيين قد وقفوا مما فى الشعر من السجع عند نوعين اثنين سموهما :

التشطير والتصريع :

أما التشطير :

فهو أن يجعل كل من شطرى البيت سجعة مخالفة لأختها كقول أبى تمام :

تدبير معتصم بالله منتقـم لله مرتقـب فى الله مرتغـب

فالشطر الأول كما نرى سجعة مبنية على قافية الميم ، والشطر الثانى سجعة مبنية على قافية الباء .

---

(١) الثمد : القليل . فى كلام العرب : « لو كنتم ماءً لكنتم ثمداً » أى قليلاً . ومن المجاز : أصبح الرجل مثموداً : فنى ماء صلبه والنساء ثمدنه .

وكبيت أبى تمام فى ذلك قول البوصيرى :

كالزهر فى ترف والبدر فى شرف   والبحر فى كرم والدهر فى همم

وقول ابن جابر الأندلسى والشاهد هو البيت الثانى :

يا أهل طيبة فى مغناكم قمر   يهدى إلى كلّ محمود من الطرق
كالغيث فى كرم والليث فى حرم   والبدر فى أفق والزهر فى خلق

وقول صفى الدين الحلى :

بكل منتصر للفتح منتظر   وكل مغترم بالحق ملتزم

* * *

بقى سر التسمية .

وعندى أن هذا الضرب من السجع إنما سمى التشطير لأنه يشطر شطر البيت وبه يصير البيت أربعة أشطر بعد أن كان شطرين .

فى أساس البلاغة : شطرت الشئ أى جعلته شطرين ، وولده شطرة نصف ذكور ونصف إناث وإناء شطران أى نصفان (١) .

وأما التصريع :

فمأخوذ من مصراعى الباب .

وهو جعل العروض مقفاة تقفية الضرب ، لكنه لا يستحسن إلا فى المطالع تمييزاً لها عن غيرها ، وليعرف منذ الشطر الأول روى القصيدة وقافيتها .

واستجابة لهذين الملحظين الفنيين صرعت مطالع المعلقات ومطالع الكثير من القصائد الجيدة .

* * *

ومن المصرع مطلعاً وغير مطلع قول أبى تمام :

ألم يأن أن تروى الظماء الحوائم   وأن ينظم الشمل المبدد ناظم

---

(١) أساس البلاغة ص ٢٣٥ .

وقوله :

بأطراف المثقفة العوالى تفردنا بأوساط المعالى

وقول المتنبى :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعراً متيم

وقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

قالوا : وأكثر من كان يستعمل التصريع فى شعره من القدماء امرؤ القيس ، فبعد مجيئه به فى مطلع معلقته :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أتى به فى أثنائها فقال :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجملى

ثم قال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

كذلك صرع أول قصيدته :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

ثم قال فى أثنائها :

ديار لسلمى عافيات بذى الخال ألح عليها كل أسحم هطال

ثم قال بعد أبيات :

ألا إننى بال على جمل بال يقود بنا بال ويتبعنا بال

لكن علماء البلاغة فضلوا أن يقتصر الشاعر فى التصريع على مطلع القصيدة للسببين السابقين ولئلا ينسب إلى التكلف .

وإذن فقول أبى تمام :

وتقفو لى الجدوى بجدوى وإنما يروقك بيت الشعر حين يصرع

ليس على إطلاقه .

* * *

ونختم التصريع بما ختمه به القزوينى قال : وهو مما استحسن ، حتى أن أكثر الشعر صرع البيت الأول منه ، ولذلك متى خالفت العروض الضرب فى الوزن جاز أن تجعل موازنة له إذا كان البيت مصرعاً كقول امرئ القيس :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالى وهل يعمن من كان في العصر الخالى

أتى بعروض الطويل (مفاعيلن) ، وذلك لا يصح إذا لم يكن البيت مصرعاً ، ولهذا خطئ أبو الطيب فى قوله :

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف (1)

* * *

وتنبيه هام هو أن الأصل فى الفواصل أن تكون ساكنة الأواخر بالوقف عليها ، لأن الفرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك فى بعض صور السجع إلا بالوقف .

ألا ترى أنك لو وصلت قولهم « ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت » لم يكن بد من إجراء كل من الفاصلتين على ما يقتضيه حكم الإعراب ، فتختلف أواخرها ويفوت السجع .

وإذا كانوا يترخصون من أجل المزاوجة فى تصريف اللغة فيقولون « الغدايا والعشايا » بدلاً عن (الغدوات) لمزاوجة العشايا .

ويقول النبى ﷺ فى تعويذه لابن بنته : « أعيذه من الهامة والسامة والعين اللامة » وأصلها الملمة ، لأنها من ألم فعبر عنها باللامة كى توافق ما قبلها .

ويقول للنساء : « انصرفن مأزورات غير مأجورات » والأصل موزورات أخذاً من الوزر ، لكنه عدل عن ذلك لمكان مأجورات .

أقول : إذا كانوا يترخصون فى ذلك كله ويغتفرون ذلك كله من أجل تحقيق المزاوجة ، فلأن يغتفروا الوقف لاكتساب حسن ازدواج السجع أولى وأحرى ، وعلى حد قول القزوينى : « فما ظنك بهم فى ذلك » ؟

---

(1) الإيضاح جـ ٦ ص ١١٢ – ١١٣ .

أي وهو أيسر وأسهل .

والسجع من حيث الطول والقصر لا يخرج عن أن يكون :

(أ) **قصيراً :** كقول الله تعالى : « والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً » .

(ب) **طويلا :**

كقول الله تعالى : « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور ، وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً وإلى الله ترجع الأمور » .

(جـ) **متوسطا :**

كقول الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

* * *

وأحسنه ما تساوت قرائنه كقول الله تعالى : « فى سدر مخضود ، وطلح منضود : وظل ممدود » .

ثم ما طالت قرينته الثانية . كقوله سبحانه : « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى » .

ثم ما طالت قرينته الثالثة . كقوله تعالى : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه » وقول أبى الفضل الميكالى : « له الأمر المطاع ، والشرف اليفاع ، والعرض المصون والمال المضاع » .

وقد اجتمعا فى قوله تعالى : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

* * *

ولا يحسن أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى كثيراً ، لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصر منها كثيراً يكون كالشئ المبتور ، ويبقى السامع كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها ، والذوق يشهد بذلك ويقضى بصحته .

* * *

وعن السجع فى القرآن الكريم نقرر أنه لا خلاف فى وجوده فيه وكثرته به وإنما الخلاف فى تسميته .

فبعض البلاغيين ـ كالباقلانى وابن الأثير ـ يتحرج من تسمية ما فى القرآن منه باسم السجع ، ويسميه (فواصل) ، تعظيماً للقرآن عن اسم السجع إذ السجع فى الأصل هديل الحمام والحمام حيوان أعجم ، وتنزيهاً له عن نغمات الكهنة ، وأجدنى غير مقتنع بالأمرين كليهما ، فكلمة (سجع) لا غبار عليها ، وتسمية ما في القرآن الكريم مما يندرج تحت مفهومها البلاغى باسم السجع إنما هى تسمية اصطلاحية شأنها شأن غيرها من المصطلحات البلاغية الأخرى بديعية كانت أو غير بديعية .

شروط جودة السجع :

ولجودة السجع شروط منها :

١ – اختلاف قرينتيه فى المعنى .

فقول ابن عباد فى مهزومين : « طاروا واقين بظهورهم صدورهم ، وبأصلابهم نحورهم » تكرار بلا فائدة .

٢ – أن يأتى عفواً غير مقصود ولا متكلف .

والمعيار فى ذلك أن يكتشفه صاحبه عند مراجعة ما قال أو كتب .

٣ – أن يراعى فى نسقه ما قلناه عن مساواة القرائن وعن طولها وقصرها .

الموازنة والمماثلة

الموازنة هى تساوى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين أو المصراعين فى الوزن دون التقفية (عكس المطرف) .

كقول الله تعالى : « ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة » .

التاء تاء التأنيث والفاء غير الثاء ، وإذا كانت التقفية قد تخلفت فى (مصفوفة) و (مبثوثة) فإن الوزن قد تحقق فيهما وتلك هى الموازنة .

وكالآية السابقة قوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ، ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا » .

والموازنة هنا بين (عزّاً وضداً) ثم بين (أزّاً وعدّاً) فقد جاء كل زوج على وزن واحد ، وتخلفت التقفية .

ومعظم آيات القرآن الكريم جارية على هذا النهج حتي أنه لا يكاد يخرج منه شئ عن السجع والموازنة .

ومن أمثلة الموازنة شعراً قول ربيعة بن ذؤابة :

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

بأشدهم بأساً على أصحابه ... وأعزهم فقداً على الأصحاب

(بأساً) و (فقداً) فى البيت الثانى ، اتفقا وزناً لا تقفية .

وقول الآخر :

هو الشمس قدرا والملوك كواكب ... هو البحر جوداً والكرام جداول

فـ (جداول) على وزن (كواكب) دون رويها .

تلك كانت الموازنة .

أما المماثلة فتتحقق إذا كان ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيهامثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن وحده .

فالأول : كقوله تعالى : « وأتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم »

وكقول البحترى يمدح الفتح بن خاقان ويذكر مبارزته للأسد :

فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد عنك مهرباً

والثانى كقول أبى تمام :

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس ... قنا الخط إلا أن تلك ذوابل

فالموازنة تامة بين كل لفظة وما يقابلها فى المصراعين عدا اللفظين (هاتا) و (تلك) .

لزوم مالا يلزم

وقد أورد الجرجانى اعتراضاً وجيهاً على هذه التسمية ، والاعتراض هو أن فى « لزوم مالا يلزم » تناقضاً ؛ إذ كيف يكون مالا يلزم لازماً ؟!

وإذا كان قد ردَّ على الاعتراض بقوله : إنه لا يلزم من حيث القافية ، ويلزم اطراده بعد الالتزام به .

فإنى أرى أن الرد لم يدفع الاعتراض بعد ، فمنذ البدء من ألزم الأديب بما لا يلزم ؟ بالطبع لم يلزمه أحد ، وإنما هو الذى ألزم نفسه ، أو كما قال ابن المعتز : هو الذى أعنت نفسه .

ثم إن المصطلح الخاص بظاهرة أدبية أو فنية أو علمية يجب أن يشملها من أولها إلى آخرها ، ولا يصح أن يقتصر عليها فى بعض مراحلها .

فلنسلم لصاحب الاعتراض اعتراضه ، ولنوافق على ما اقترحه وهو (التزام مالا يلزم) فهذا المصطلح أصدق من « لزوم مالا يلزم » وأدق منه ، لأنه هو الاسم الحقيقى للظاهرة التى نحن بصددها . وهو الاسم الحقيقى لها ، لأنه يدل عليها منذ تخلقها وفى جميع مراحلها .

* * *

ومن التسمية إلى المسمى .

قال القزوينى : هو أن يجئ قبل حرف الروى وما فى معناه من الفاصلة ما ليس بلازم فى مذهب السجع » [1] .

كقوله تعالى « فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » .

وقوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق » .

وقوله تعالى : « فلا أقسم بالخنس ، الجوارى الكنس » .

وقوله تعالى : « والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق » .

وقوله تعالى : « قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ، قال : لا تختصموا لدىَّ وقد قدمت إليكم بالوعيد » .

وكقول الحريرى : « ملت فى ريّق زمانى الذى غبر إلى مجاورة أهل الوبر لآخذ أخذ نفوسهم الأبية ، وألسنتهم العربية ، فأوطنونى أمنع جناب ، وفلوا عنى حدَّ كل ناب » [2] .

* * *

ومنه شعراً قول رافع بن هريم اليربوعى :

فـإلا تحامونـى تصبكـم بعـرة	مخالفتـى أو تقبسوا من شراريا
إذا صار لونـى كـل لـون وبُدلت	نضارة وجهى مخضباً باصفراريا
فسرى كإعلانى وتلك سجيتـى	وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ١١٦ .

(٢) مقامات الحريرى ـ المقامة الوبرية ص ١٩٦ وانظر « علم البديع » للدكتور عتيق ص ٢٢٤ .

وقول عروة بن أذينة :

إن التـــى زعمــت فــؤادك ملهــا ... خلقــت هــواك كما خلقت هــوى لها
بيضــاء باكـرهـا النعيم فصاغهـا ... بلباقـــة فأدقهـــا وأجلهـــا
حجبـت تحيتهـا فقلـت لصاحبـى ... مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلها
وإذا وجـدت لهـا وسـاوس سلــوة ... شفـع الضمير إلى الفؤاد فسلها

وقول شاعر قديم :

عصــانى قومــى والرشــاد الذى به ... أمـــرت ومـــن يعـص المجـرب ينــدم
فصـبراً بـنـى بكر على الموت إننى ... أرى عارضـــاً ينهـل بالمـوت والــدم

وقول آخر :

يقولــون فى البستـــان للعيـــن لذة ... وفــى الخمــر والمـاء الذى غير آســن
إذا شئـت أن تلقـى المحاســن كلها ... ففى وجـه من تهوى جميع المحاسن

وقد يكون الالتزام فى غير الفاصلتين أيضاً كقول الحريرى :

« ما اشتار العسل من اختار الكسل » .

والشاهد هو التزام حرفى التاء والألف فى كلمتى (اشتار) و (اختار) [1].

* * *

وبالاستقراء علم أن (مالا يلتزم) أحد أمور ثلاثة هى :

(١) **حرف وحركة معاً** كما فى قول الله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » .

وكقول عبد الله بن الزُّبير – بفتح الزاى – فى مدح عمرو بن عثمان بن عفان :

سأشكــر عمــراً إن تراخــت منيتى ... أيـــادى لـم تمنــن وإن هـــى جلُّــت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ... ولا مظهــر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتــى من حيـث يخفــى مكانها ... فكانــت قــذى عينيـــه حــتى تجلت

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ١١٦ – ١١٧ والبديع لابن المعتز ص ٧٤ – ٧٥ .

(٢) حرف فقط هو الميم فى (القمر) و (مستمر) من قول الله تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

(٣) حركة فقط كقول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

يقول الأستاذ المراغى :

« والمراد أن يكون ذلك فى بيتين أو أكثر أو فاصلتين أو أكثر ، وإلا ففى كل بيت أو فاصلة يجئ قبل الروى أو ما فى معناه ماليس بلازم فى السجع كقول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

« فمجيء ميم مفتوحة قبل حرف الروى ليس بلازم فى السجع » (*)

وهى ملاحظة صائبة ودقيقة .

* * *

ولما كان مناط البلاغة فى السجع .

ما فيه من موسيقى تسرع به إلى أذن متلقيه وتستبقيه فى ذاكرته . فإن مناط البلاغة فى التزام مالا يلزم إنما هو الاستزادة من هذا المحسن وصولاً به إلى درجة عالية فى السلم الموسيقى . والله أعلم .

التشريع

التشريع هو بناء البيت على قافيتين ، ويصح المعنى إذا وقفنا على كل واحدة منهما وسبيل ذلك أن يبنى الشاعر أبيات قصيدته على وزنين وقافيتين ، فإذا وقفنا على القافية الأولى كان البيت مستقيماً ، وإذا أضفنا ما بنى عليه شعره من القافية الثانية كان كذلك مستقيما ، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح ، وقد سمى التشريع لذلك (التوشيح) كما سمى (التوأم) .

---

(١) علوم البلاغة ص ٣٤٠ هامش رقم (٢) .

هو محسن شعرى إذن ، وإذا أمكن أن يأتى فى النثر المسجوع فإنه يكون متكلفاً سمجاً .

وقد مارس الحريرى التشريع فى قصيدة له منها :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها ... شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت فى يومها ... أبكت غداً بعداً لها من دار

والقصيدة كما نرى رائية القافية ومن وزن الكامل التام ، فإذا أسقطنا تفعيلتين صار البيتان من مجزوء الكامل وصارت الدال هى القافية هكذا :

يا خاطب الدنيا الدنيـ ... ـة إنها شرك الردى

دار متى ما أضحكت ... فى يومها أبكت غداً

وقبل الحريرى قال الأخطل :

وإذا الرياح مع العشى تناوحت ... هوج الرمال تكبهن شمالاً

ألفيتنا نقرى العبيط لضيفنا ... قبل العيال ونقتل الأبطالا (١)

البيتان من وزن الكامل التام ، والقافية اللام ، وبإسقاط تفعيلتين يتحول البيتان إلى وزن آخر هو مجزوء الكامل ، وإلى قافية أخرى هى لام (الرمال) و (العيال) هكذا :

وإذا الرياح مع العشى ... تناوحت هوج الرمال

ألفيتنا نقرى العبيـ ... ـط لضيفنا قبل العيال

وأكثر البحور قبولاً للتشريع هو الرجز الذى يتألف من (مستفعلن) ست مرات .

فإنه قد جاء (تاما) (ومجزوءاً) و (مشطورا) و (منهوكاً) . بأربع قواف .

وهذا الشعر لمحمد بن جابر الأندلسى خير شاهد على ذلك قال :

يرنو بطرف فاتر مهما رنا ... فهو المنى لا أنتهى عن حبه

يهفو بغصن ناضر حلو الجنى ... يشفى الضنى لا صبر لى عن قربه

لو كان يوماً زائرى زال العنا ... يحلو لنا فى الحب أن نسمى به

---

(١) العبيط : الذبح ، قال : اعتبط الإبل والغنم إذا ذبحها لغير داء ، ونقرى العبيط لضيفنا أى نحسن إلى ضيفنا ونقدم له من طعامنا خير ما نذبح من إبلنا وغنمنا المبرأة من الأدواء .

الأبيات من الرجز التام وقافيتها الباء ، وإذا أسقطنا تفعيلتين من آخر كل بيت صارت من مجزوء الرجز والقافية النون هكذا :

يرنـــو بطــــرف فاتـــر	مهمـــا رنـــا فهـــو المنـــى
يهفـــو بغصـــن ناضـــر	حلـــو الجنى يشفى الضنى
لـــو كـــان يومـــاً زائـــرى	زال العنـــا يحلـــو لنـــا

وإذا ثنينا وأسقطنا تفعيلة أخرى من آخر كل بيت صارت الأبيات من مشطور الرجز والقافية النون أيضاً هكذا :

يرنـــوا بطـــرف فاتـــر مهمـــارنا
يهفـــو بغصـــن ناضـــر حلو الجنى
لـــو كـــان يومـــاً زائـــرى زال العـــنا

وإذا ثلثنا وأسقطنا تفعيلة من المشطور السابق صار الشعر من منهوك الرجز والقافية الراء هكذا :

يرنـــــو بطـــــــرف فاتـــــــر
يهفـــــــو بغصـــــــن ناضـــــــر
لـــــــو كـــــــان يومـــــــاً زائـــــرى

هذا هو التشريع ، ورأيى فيه ليس لمصلحته ، إنه حافظة مثقوبة ، تهزها فتسقط منها تفعيلتان ، وتهزها ثانية فتسقط تفعيلة ثالثة ، وتهزها ثالثة فتسقط تفعيلة رابعة حتى لينهك الشعر ولا تبقى منه إلا تفعيلتان من ست تفعيلات ، ولما كان المعنى ابن المبنى فإن التشريع يعكس قدرة الشاعر على الصنعة أكثر مما يعكس قدرته على الشعر وليس من شك فى أنه لا مصلحة للشاعر ولا للشعر فى (تشريع) يبدد الشعر ، وهو لا يتبدد إلا لأنه مفكك من أول الأمر .

رد الصدر على العجز

يأتى هذا المحسن فى النثر وفى الشعر :

فى النثر بجعل أحد اللفظين المكررين أو المتجانسين أو الملحقين بالمتجانسين عن طريق الاشتقاق أو عن طريق شبه الاشتقاق .

نقول : بجعل أحد اللفظين مما مر في أول الجملة والآخر في آخرها هكذا

المكرران : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

المتجانسان : « سائل اللئيم يرجع ودمعه سائل » .

الملحقان بالمتجانسين اشتقاقاً : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا » .

الملحقان بالمتجانسين شبه اشتقاق : « قال : إني لعملكم من القالين » .

وفي الشعر بأن يجعل اللفظان المكرران أو المتجانسان أو الملحقان بالمتجانسين اشتقاقاً أو شبه اشتقاق على الوجه الآتي :

يأخذ أحدهما موقعاً ثابتاً لا يتغير وهو آخر البيت .

ويتردد الآخر بين أن يكون :

أول المصراع الأول .

حشو المصراع الأول .

آخر المصراع الأول .

أول المصراع الثاني .

أربعة مواقع يتعاقب عليها أربعة أنواع من الألفاظ .

والمحصلة ستة عشر نموذجاً هي :

(أ) المكرران :

(١) تمنت سليمى أن أموت صبابة ... وأهون شيء عندنا ما تمنت

(٢) تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

(٣) ومن كان بالبيض الكواعب مغرما ... فمازلت بالبيض القواضب مغرما

(٤) فإن لم يكن إلا معرج ساعة ... قليلاً فإني نافع لي قليلها

(ب) المتجانسان :

(١) ذوائب سود كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منها النفوس ذوائب

(ذوائب) الأولى جمع ذؤابة وهى أعلى شعر الرأس ، و (ذوائب) الثانية : جمع ذائبة : اسم فاعل من ذاب .

(٢) لا كان إنسان تيمم قاصداً صيد المها فاصطاده إنسانها

(إنسان) الأولى هو ابن آدم والمقصود به هنا الشاعر نفسه أما (إنسانها) فهو إنسان عين مهاته أى حبيبته .

(٣) فمشغوف بآيات المثانى ومفتـون بربـات المثـانى

(المثانى) الأولى (القرآن الكريم) و (المثانى) الثانية (المزامير) .

(٤) أملتهـم ثـم تأملتهـم فلاح لى أن ليس فيهم فلاح

(فلاح) الأولى معناه بدا وظهر ، و (فلاح) الثانية معناها النفع والنجاح .

(جـ) الملحقان بالمتجانسين للإشتقاق .

(١) ضرائب أبدعتها فى السماح فلسنا نرى لك فيها ضريبا

(الضرائب . السجايا والطباع ، والضريب : الند . وأصلهما واحد هو مادة ضرب .

(٢) إذا المرء لم يخزن عليه لسانه فليس على شئ سواه بخزان

(٣) فدع الوعيد فما وعيدك ضائرى أطنين أجنحة الذباب يضير

(ضائرى) و (يضير) يجمعهما أصل واحد هو مادة (ض . ى . ر) .

(٤) وقد كانت البيض القواضب في الوغى بواتر فهى الآن من بعده بتر

(بواتر) و (بتر) من مادة واحدة هى (ب . ت . ر) .

* * *

(د) الملحق بالمتجانسين لشبه الاشتقاق .

(١) ولاح يلحى على جرى العنان إلى ملهى فسحقاً له من لائح لاح

(لاح) فى أول البيت فعل ماض معناه ظهر ، و (لاح) فى آخر البيت اسم فاعل من لحاه بمعنى لامه : فما بينهما من تجانس لفظى هو شبه اشتقاق لا اشتقاق .

(٢) لو اختصرتم من الإحسان زرتكمُ والعذب يهجر للإفراط فى الخصر

(اختصر) الأول فعل ماض بمعنى قلل ، و (الخصر) فى آخر البيت اسم بمعنى البرودة ، فاللفظان متجانسان لفظاً مختلفان معنى ، وتجانسهما اللفظى مرجعه شبه الاشتقاق .

(٣) ومضطلع بتلخيص المعانى ومطلع إلى تخليص عان

(المعانى) جمع معنى و (عان) أسير ، اسم فاعل من عنا يعنو فبينهما شبه اشتقاق .

(٤) تغمد الحرب حين تغمد بأساً وتسيل الدماء حين تسل

(تسيل) من سال الماء فى مسيله ومسايله : جرى ، و (تسل) من سل السيف من غمده بمعنى انتضاه .

فاللفظان متجانسان لفظاً مختلفان معنى ، وما بينهما هو شبه اشتقاق .

انتهت نماذج رد العجز على الصدر فى الشعر .

وبعضهم يسميه (التصدير) ، والتصدير مقتصر على الصدر .

أما (رد العجز على الصدر) فمشتمل على الصدر والعجز أولا وهو نص فى رد العجز على الصدر ثانياً ، وعندى أن تسمية هذا المحسن لا تتمشى مع ما نتمرس به فيه ، وما هو الواقع من أمره ، وما نتمرس به فيه إنما هو ردُّ الصدر على العجز وليس ردَّ العجز على الصدر فلنسمه [رد الصدر على العجز] أو [إلحاق الصدر بالعجز] .

فالعجز ثابت ومستقر فى آخر البيت لأنه قافيته .

أما الصدر الذى نرده عليه ونلحقه به فهو غير الثابت وغير المستقر ، نصادفه فى أول البيت ، ونصادفه بعد أول البيت وقبل نهاية شطره الأول ونصادفه فى نهاية هذا الشطر

وأخيراً نصادفه فى أول الشطر الثانى ولا يشوش على ما نقوله ما تحتمله مادة (ردد) من رجوع إلى الخلف فمن معانيها التردد بين شيئين نقول : يحلق الطائر بين السماء والأرض أى يتحرك فى اتجاههما ويتردد بينهما . فى أساس البلاغة تردد فى الإجابة : تعثر لسانه وهو يتردد بالغدوات إلى مجالس العلم : يختلف إليها (ذهاباً وإياباً والذهاب قبلُ) وهذا أمر لا رادة فيه أى لا فائدة (والفائدة بَعْدُ) وما تقدم معناه أنه لا يلزم فى الرد اتجاه محدد . وعن سر بلاغته فإنما هو الربط بين طرفيه وهما (الصدر والعجز) .

المشاكلة

المشاكلة هى ذكر الشئ بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ، أى لمجيئه معه وأمن اللبس معول فيه على معمول اللفظ الذى تمت المشاكلة به ، أو على عامله .

الأول :

كقول أحمد الأنطاكى وقد دعاه أصحابه إلى الصبوح فى يوم بارد : وأغروه بأنهم سيجيدون طبخ ما يريد أكله ، لكن حاجته إلى الثياب كانت أشد من حاجته إلى الطعام فكتب إليهم :

أصحابنا قصدوا الصبوح بسحرة وأتى رسولهم إلى خصيصا
قالوا : اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا

أقام (اطبخوا) مقام (خيطوا) لدلالة المعمول وهو (جبة وقميصاً) عليه قصداً إلى المشاكلة بين ما يخاط وما يطبخ .

وكقول أبى تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلها أنى بنيت الجار قبل المنزل

فالجار لا يبنى بل ينتقى ، وإنما عبر عن انتقائه ببنائه قصداً إلى المشاكلة بين اختيار الجار وبناء الدار .

وكقول الصاحب بن عباد على لسان من رد القاضى شهادته برؤية هلال شوال :

أترى القاضى أعمى أم تراه يتعامى
سرق العيد كأن الـ عيد أموال اليتامى

عدل عن (أخفى) أو نحوها إلى (سرق) لتشاكل أموال اليتامى .

والقرينة لفظية هى مجيء العيد مفعولاً به للفظ المشاكلة (سرق) .

والثاني:

كقول الله تعالى : « تعلم ما فى نفسي ولا أعلم ما فى نفسك » .

أقام (ما فى نفسك) مقام (ما عندك أو ما فى علمك) ، لتشاكل (ما فى نفسى) والقرينة العاملان (تعلم) ، (ولا أعلم) .

وقوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

أقام (سيئة) الثانية مقام (عقوبة) لتشاكل (سيئة) الأولى .

والمشاكلة نوعان :

تحقيقية : كالأمثلة السابقة .

وتقديرية : كما حكى أن بعض الولاة كان يغرس غرساً حول مسجد فوقف عليه من أنشده :

إن الولايــــة لا تـــــدوم لواحـــــد	إن كنـــت تنكـــره فـايـــن الأول
واغـرس من الفعل الجميل غرائسا	فـــإذا عزلـــت فإنهـــا لا تعـــزل

أقام (اغرس) مقام (اصنع) ليشاكل فعل الأمير ، ولما كان فعل الأمير وهو الغرس عملاً لا قولاً كانت القرينة حالية ، لا لفظية .

وكقول الله تعالى : « صبغة الله » أراد تطهير الله بالإيمان ، فأقام الصبغ مقام التطهير ، ليشاكل صبغ النصارى ، فإنهم كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه المعمودية تطهيراً لهم ، والقرينة حالية هى سبب نزول الآيات ١٣٦ - ١٣٨ من سورة البقرة [١] .

والفرق بين نوعى المشاكلة من وجهين :

(١) أن التحقيقية يقع فيها لفظ المشاكلة على ما لا يصح أن يقع عليه حقيقة .

أما التقديرية فإن لفظ المشاكلة يجئ فيها على حقيقته ، ويقع على ما يصح وقوعه عليه ، لكنا نقدره بلفظ آخر مشاكل لمراد المتكلم .

---

(١) الإشارات والتنبيهات ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، والإيضاح جـ ٦ ص ٢٧ - ٣٠ .

(٢) أن قرينة التحقيقية لفظية ، وقرينة التقديرية حالية .

* * *

انتهت المشاكلة .

وقد وجدتنى غير راض عن وجودها فى علم البديع بعامة ، وفى وجوه التحسين المعنوي منه بخاصة ، ورأيت أنها أسلوب بيانى ، مجاز لغوى علاقته المشابهة ، فإن كان ذلك فبها ، وإلا فهى بالمعنى اللغوى لها محسن لفظى .

وعن أنها أسلوب بيانى أقول :

تتردد الكلمة التى تتحقق بها المشاكلة بين أن تكون استعارة تصريحية أو مكنية .

تصريحية : بأن نشبه الخياطة بالطبخ فى أن كلا منهما لازم للإنسان ومن حاجاته الضرورية ثم نحذف المشبه ، ونصرح بالمشبه به فى مكانه على سبيل الاستعارة التصريحية.

وبأن نشبه اختيار الجار ببنائه ، وإخفاء رؤية هلال العيد بسرقة العيد .

ومكنية : بأن نشبه الثياب بالطعام ، ثم نحذف المشبه به بعد استبقاء شئ من لوازمه نكنى عنه به ونضيفه إلى المشبه المذكور فى الكلام .

وبأن نشبه الجار بالمنزل فى الإيناس به ومصاحبته ثم نحذف المشبه به بعد أن نأخذ شيئاً من خواصه وننسبه إلى المشبه المذكور فى الكلام .

وبأن نشبه العيد بأموال اليتامى فى أن كلا منهما يمكن أن يستر وينكر ، ثم نحذف أموال اليتامى بعد أن نأخذ شيئاً مما يمكن أن يقع لها وهو سرقتها ونحكم به على المشبه المذكور فى الكلام .

وهكذا وهكذا ...

وإذا كان التعبير فى المشاكلة مجازاً لغوياً علاقته المشابهة ، فإن مكانه الطبيعى فى الدرس البلاغى علم البيان لا علم البديع .

وها هو ذا محمد الجرجانى يختم كلامه عن المشاكلة بقوله : « والباب كله استعارة ،

لقصد المشاكلة لا للمبالغة ، ولذلك ليست من مسائل علم البيان »[1] .

ونقول للجرجاني : أصبت وأخطأت وتناقضت .

أصبت في أن باب المشاكلة كله استعارة .

وأخطأت في إخراجها من علم البيان .

وتناقضت في الكلام بأنها استعارة ، وبأنها ليست من مسائل علم البيان ولا يشفع لك أن القصد هنا المشاكلة لا المبالغة ، فالكلام ـ بعيداً عن قصد المتكلم ـ مجاز لغوي علاقته المشابهة ، ومتى كان كذلك فهو استعارة والاستعارة من علم البيان .

وعبارة (بعيداً عن قصد المتكلم) مقصودة لي ، ففي البلاغة كما في النقد يجب أن نقصر اهتمامنا على الكلام ، ولا شأن لنا بقصد المتكلم ونيته ، فلو فتحنا هذا الباب لدافع كل إنسان عن نفسه .

وقال : إنما قصدت كذا ، وإن نيتي كانت كذا ، ولقد أفتى قدامة في شبيه لما نحن فيه بقوله : « وليس إذا علمنا أن شاعراً أراد لفظة تقيم شعره ، فجعل مكانها لفظة تحيله وتفسده وجب أن يحسب له ما يتوهم أنه أراده ، ويترك ما صرح به ، ولو كانت الأمور كلها تجري على هذا لم يكن خطأ »[2] .

* * *

وإذا كان البلاغيون قد عدلوا بالمشاكلة عن علم البيان إلى علم البديع ، فإنها مع التسامح ، ولقصد التماثل الذي لحظه الجرجاني تكون من محسناته اللفظية لا المعنوية ، لأن معناها الاصطلاحي هو ذكر الشئ بلفظ غيره والشئ المذكور بلفظ غيره في الأمثلة التي مثلنا بها لها هو (خياطة الثياب ، واختيار الجار ، وجحد الشهادة برؤية هلال شوال ، وصنع المعروف ، وتطهير الإيمان) عدل عن هذه الألفاظ إلى ألفاظ أخرى حلت محلها ، لنكته بديعية لفظية هي المماثلة أو هي المشاكلة .

والألفاظ الأخرى على الترتيب هي (طبخ الثياب ، بناء الجار ، سرقة العيد ، غرس الجميل ، صبغة الله) .

---

(١) الإشارات ص ٢٦٨ .

(٢) نقد الشعر ص ٢٠٦ .

المسألة إذن أن ألفاظاً حلت محل ألفاظ .. لماذا ؟

لتشاكل الألفاظ الألفاظ لا لتشاكل المعانى المعانى .

ونتيجة لذلك فإنه يمكن أن نتسامح بإدخال المشاكلة فى وجوه التحسين اللفظى أما المعنوى فلا .

وهأنذا قد خلعتها من هناك وزرعتها هنا فى حقلها ، حقل التحسين اللفظى .

* * *

وعن سر بلاغتها فإنما هو الاسترخاء الذهنى والاقتصاد فى الجهد العقلى . أردد ما سمعت أو ما قرأت بدلاً من عناء البحث عن كلمة أخرى لا تشاكل .

* * *

أما بعد : فقد ختم القزوينى وجوه التحسين اللفظى بنقل عن عبد القاهر قال : « وأصل الحسن فى جميع ذلك أعنى القسم اللفظى كما قال الشيخ عبد القاهر هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعانى ، فإن المعانى إذا أرسلت على سجيتها وتركت وما تريد طلبت لأنفسها الألفاظ ، ولم تكتس إلا ما يليق بها ، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب [1]

ونمضي مع عبد القاهر فنجده يحذر وينذر بقوله :

« فأما أن تضع فى نفسك أنه لابد أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهذا الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم » [2] .

ويضرب على الوتر نفسه بقوله : « وقد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا ضير أن يقع ما عناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على

---

(١) الإيضاح جـ ٦ ص ١١٧ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٠ .

المعنى وأفسده ، كمن ثقل العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها »[1].

انتهى تشرط عبد القاهر وتحوطه ، وهما فى مكانهما ، وإنهما لأحسن ما نختم به .

رحمه الله ، والحمد لله .

عبده عبد العزيز قلقيله

الرياض ٢٧/١٢/١٤٠٤هـ / ٢٢/٩/١٩٨٤م

(١) أسرار البلاغة ص ٦ .

كتب للمؤلف

١- النقد الأدبى فى العصر المملوكى الأنجلو المصرية ١٩٧٢ ط(١) ودار الفكر العربى بالقاهرة ط(٢) ١٩٩١

٢ - النقد الأدبى فى المغرب العربى الأنجلو المصرية ١٩٧١ م ط (١) والهيئة المصرية العامة للكتاب ط (٢) ١٩٨٨م .

٣ - القاضى الجرجانى والنقد الأدبى (ط) (١) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م والأنجلو المصرية ط (٢) .

(أ) القاضى الجرجانى على بن عبد العزيز ١٩٧٤ م

(ب) النقد الأدبى عند القاضى الجرجانى ١٩٧٦ م .

والهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠ ط (٣) القاضى الجرجانى والنقد الأدبى .

٤ - مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد الأنجلو المصرية ١٩٧٤ م

٥ - نقد النقد فى التراث العربى الأنجلو المصرية ١٩٧٥ م

٦ - خط سير الأدب العربى الأنجلو المصرية ١٩٧٦م ط (١) ودار الفكر العربى ١٩٩٠م ط (٢)

٧ - لغويات الأنجلو المصرية ١٩٧٦ ط (١) ودار الفكر العربى سنة ١٩٩٠م ط (٢) .

٨ - من التراث الأدبى للمغرب العربى (ط) (١) عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٩م (ط) (٢) دار أمية للنشر والتوزيع بالرياض ١٩٨٥م

٩ - دراسات فى النقد الأدبى والبلاغة دار العلوم بالرياض ١٩٨٠م ط (١) ودار الفكر العربى بالقاهرة ط (٢) ١٩٩٠م .

١٠ - أبيات المعانى فى شعر المتنبى الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٩٨٣م

١١ - البلاط الأدبى للمعز بن باديس المجلس العلمى بجامعة الملك سعود بالرياض ١٩٨٣م

١٢ - المقنع فى أن « هدى كامل المبرد » ليس « الممتع » دار الرياض للنشر والتوزيع ١٩٨٤م

١٣ - التجربة الشعرية عند ابن المقرب : مضمونها وبناؤها الفنى النادى الأدبى بالرياض ١٩٨٦م

١٤ – البلاغة الاصطلاحية   دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٨٧م ط (١) وسنة ١٩٩٠ ط (٢) .

١٥ – مساجلات   الأنجلو المصرية ١٩٩٠ م

١٦ – معجم البلاغة العربية نقد ونقض دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٩١

١٧– مقالة الأدب المقارن.   دار المعارف بمصر ١٩٩١

المصادر والمراجع

مرتبة على حسب الحروف الهجائية لأسماء الكتب

الإتقان فى علوم القرآن . جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال السيوطي القاهرة سنة ١٣٦٨ هـ .

أساس البلاغة . تأليف جار الله محمود بن عمر الزمخشري . وتحقيق عبد الرحيم محمود . القاهرة سنة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م .

أسرار البلاغة . تأليف عبد القاهر الجرجانى وتحقيق هـ . ريتر استانبول سنة ١٩٥٤ وطبعة محمد رشيد رضا بيروت سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

الإشارات والتنبيهات . تأليف محمد بن على بن محمد الجرجانى وتحقيق د. عبد القادر حسين . دار نهضة مصر للطباعة والنشر سنة ١٩٨٢ م .

أنوار الربيع فى أنواع البديع جـ ١ . تأليف السيد على صدر الدين بن معصوم المدنى . وتحقيق شاكر هادى شكر . الطبعة الأولى العراق سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ م .

الإيضاح فى شرح مقامات الحريرى . لأبى المظفر ناصر المطرزى . إيران ١٢٧٢هـ .

الإيضاح المختصر تلخيص المفتاح . تأليف الخطيب القزوينى طبعة محمد على صبيح الثانية د.ت وشرح وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي سنة ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ، ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م .

البديع فى نقد الشعر . تأليف أسامة بن منقذ ، وتحقيق الدكتورين : أحمد أحمد بدوى ، وحامد عبد المجيد . القاهرة سنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .

البرهان فى علوم القران . تأليف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى الطبعة الأولى القاهرة بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م .

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح . عبد المتعال الصعيدى . الطبعة الثانية جـ ١ سنة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٢م ، جـ ٢ سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٣ ، جـ ٣ سنة ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٤ م .

بغية الوعاة . جلال الدين السيوطى . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة سنة

١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .

البلاغة تطور وتاريخ . د. شوقى ضيف الطبعة الثانية . دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م .

البلاغة العربية . د. أحمد مطلوب طبعة وزارة التعليم العالى والبحث العلمى الجمهورية العراقية سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

البلاغة الواضحة . على الجارم ، ومصطفى أمين . دار المعارف بمصر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ م .

تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . تأليف ابن أبى الإصبع ، وتحقيق د. حنفى محمد شرف القاهرة سنة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣ م .

التصوير البيانى د. حنفى محمد شرف . الطبعة الثانية . مكتبة الشباب القاهرة ١٩٧٢م

التصوير البيانى . د. محمد أبو موسى . الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

تقديم أبى بكر . تأليف تقى الدين بن حجة الحموى . المطبعة الخيرية بالقاهرة سنة ١٣٠٤ه.

التلخيص . تأليف جلال الدين القزوينى وتحقيق عبد الرحمن البرقوقى الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣٢م .

تهذيب السعد . تأليف سعد الدين التفتازانى ، وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨ م .

الجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور تأليف ضياء الدين ابن الأثير وتحقيق الدكتورين مصطفى جواد ، وجميل سعيد . بغداد سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

جواهر البلاغة . أحمد الهاشمى . الطبعة السادسة . دار الكتب العلمية . د.ت .

حدائق السحر فى دقائق الشعر . تأليف رشيد الدين الوطواط وترجمة إبراهيم

الشواربى طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٥م .

حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون تأليف الشيخ أحمد الدمنهوري الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨ م .

خاص الخاص للثعالبى بيروت ١٩٦٦ م .

الخصائص . لابن جنى جـ ١ طبعة مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٣٣١هـ / ١٩١٣ م .

خط سير الأدب العربى د. عبده عبد العزيز قلقيلة . مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٧م ط (١) . ودار الفكر العربى سنة ١٩٩٠ ط (٢) .

دراسات بلاغية ونقدية د. أحمد مطلوب . طبعة دار الحرية ، بغداد ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجانى . طبعة السيد محمد رشيد رضا عن دار المعرفة بيروت سنة ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م . وطبعة ثانية تصحيح وشرح وتعليق أحمد مصطفى المراغى. المكتبة المحمودية بالقاهرة د.ت

دلالات التراكيب دراسة بلاغية . د. محمد أبو موسى الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

رسائل الجاحظ . تحقي عبد السلام هارون ط (١) مكتبة الخانجي بمصر ١٩٧٩م.

سر الفصاحة . لأبى محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدى ـ القاهرة سنة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

الشفاء فى بديع الاكتفاء . تأليف شمس الدين النواجي . تحقيق ومراجعة د. محمد أبو ناجي الطبعة الأولى . بيروت سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

شرح عقود الجمان في علم المعانى والبيان . جلال الدين السيوطى ، وبهامشه شرح الشيخ أحمد الدمنهورى المسمى (حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون) و (الجوهر المكنون) هذا تأليف السيد / عبد الرحمن الأخضرى .

الصبغ البديعى . د. أحمد موسى . الطبعة الأولى القاهرة سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م .

الصناعتين الكتابة والشعر . تأليف أبى هلال العسكري وتحقيق على البجاوى ومحمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى سنة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢ م .

الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز تأليف يحيى ابن حمزة العلوى : القاهرة سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م .

عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح . بهاء الدين السبكى ، القاهرة ١٩٣٧م .

علم البديع د. عبد العزيز عتيق . دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤م.

علم البيان . د. بدوى طبانة . الأنجلو المصرية سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .

علم البيان د. عبد العزيز عتيق . دار النهضة العربية . بيروت ١٩٧٤ م .

علوم البلاغة . أحمد مصطفى المراغى . الطبعة الأولى دار القلم بيروت . ١٩٨٠م وطبعة دار الباز للنشر والتوزيع . مكة المكرمة ١٣٠٢ هـ / ١٩٨٢م .

علم المعانى . د. درويش الجندى . الطبعة الثانية سنة ١٣٧١هـ / ١٩٦٢م القاهرة .

علم المعانى . د. عبد العزيز عتيق . طبعة دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٧٤م .

العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده . تأليف ابن رشيق القيروانى وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م .

فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال . لأبى عبيد البكرى بتحقيق د. إحسان عباس وعبد المجيد عابدين بيروت سنة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .

فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور . د. رجاء عيد . منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٧٩م.

فن الاستعارة د. أحمد عبد الستار الصاوى . طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م .

قبض الريح . إبراهيم عبد القادر المازنى . المطبعة العصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٧م .

الاستقامة لابن تيمية بتحقيق محمد رشاد سالم ط (١) سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م الرياض.

الكامل للمبرد . نشر مكتبة المعارف . بيروت . د. ت .

كتاب البديع . لعبد الله بن المعتز . نشر وتعليق اغناطيوس كراتشقو فسكى لندن سنة ١٩٣٥ م .

كتاب المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع تأليف بدر الدين أبى عبد الله محمد بن جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك . القاهرة سنة ١٣٤١هـ .

الكشاف . جار الله الزمخشرى . الطبعة الثانية القاهرة سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م .

كلمات فى الأدب . أنور المعداوى . طبعة أولى القاهرة .

لسان العرب . لابن منظور . بيروت سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦ م .

لغويات د. عبده عبد العزيز قلقيلة . الأنجلو المصرية سن ١٩٧٧م . ط (١) ، ودار الفكر العربى سنة ١٩٩٠ ط (٢).

مجموع الأدب فى فنون العرب للشيخ ناصيف اليازجى الطبعة الثالثة عشرة بيروت ١٩٤٨م .

المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر تأليف : ضياء الدين بن الأثير وتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . القاهرة سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م .

المختصر لسعد الدين التفتازانى على شرح تلخيص المفتاح للقزوينى الطبعة الأولى جـ (١) سنة ١٣٤٠هـ / وجـ (٢) سنة ١٣٤١هـ ، جـ (٣) سنة ١٣٤٢هـ القاهرة .

مع البلاغة العربية فى تاريخها د. محمد على سلطان . القسم الأول الطبعة الأولى . دمشق ١٩٧٩ .

معجم الأدباء لياقوت الحموى طبعة مر غليوث . القاهرة ١٩٢٣ .

معجم البلاغة العربية ـ د. بدوى طبانة ط (٢) دار العلوم بالرياض ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

مفتاح العلوم لأبى يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن على السكاكى الطبعة الأولى القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م .

مقالات فى التربية واللغة والبلاغة والنقد . د. عبده عبد العزيز قلقيلة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٤م.

منهاج البلغاء وسراج الأدباء تأليف حازم القرطاجنى وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. تونس ١٩٦٦م .

المنهاج الواضح . حامد عونى الطبعة الثانية . القاهرة سنة ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربى الأولى بالقاهرة جـ (١) سنة ١٣٤٠ ، جـ (٢) سنة ١٣٤١ جـ (٣) سنة ١٣٤٢هـ .

نحو بلاغة عربية جديدة للدكتورين محمد عبد المنعم خفاجى وعبد العزيز شرف . دار غريب للطباعة بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

نظرية إعجاز القرآن عند عبد القاهر الجرجانى عن كتابيه (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) تأليف : محمد حنيف فقيهى طبعة الشئون الدينية بدولة قطر . الطبعة الأولى سنة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

النقد الأدبى فى العصر المملوكى د. عبده عبد العزيز قلقيلة . الأنجلو المصرية ١٩٧٢م .

نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى الطبعة الثانية القاهرة سنة١٩٦٣م .

نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى جـ (٧) الطبعة الأولى القاهرة . سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م .

نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز ، فخر الدين محمد بن عمر الرازى . القاهرة ١٣١٧هـ .

محتويات الكتاب